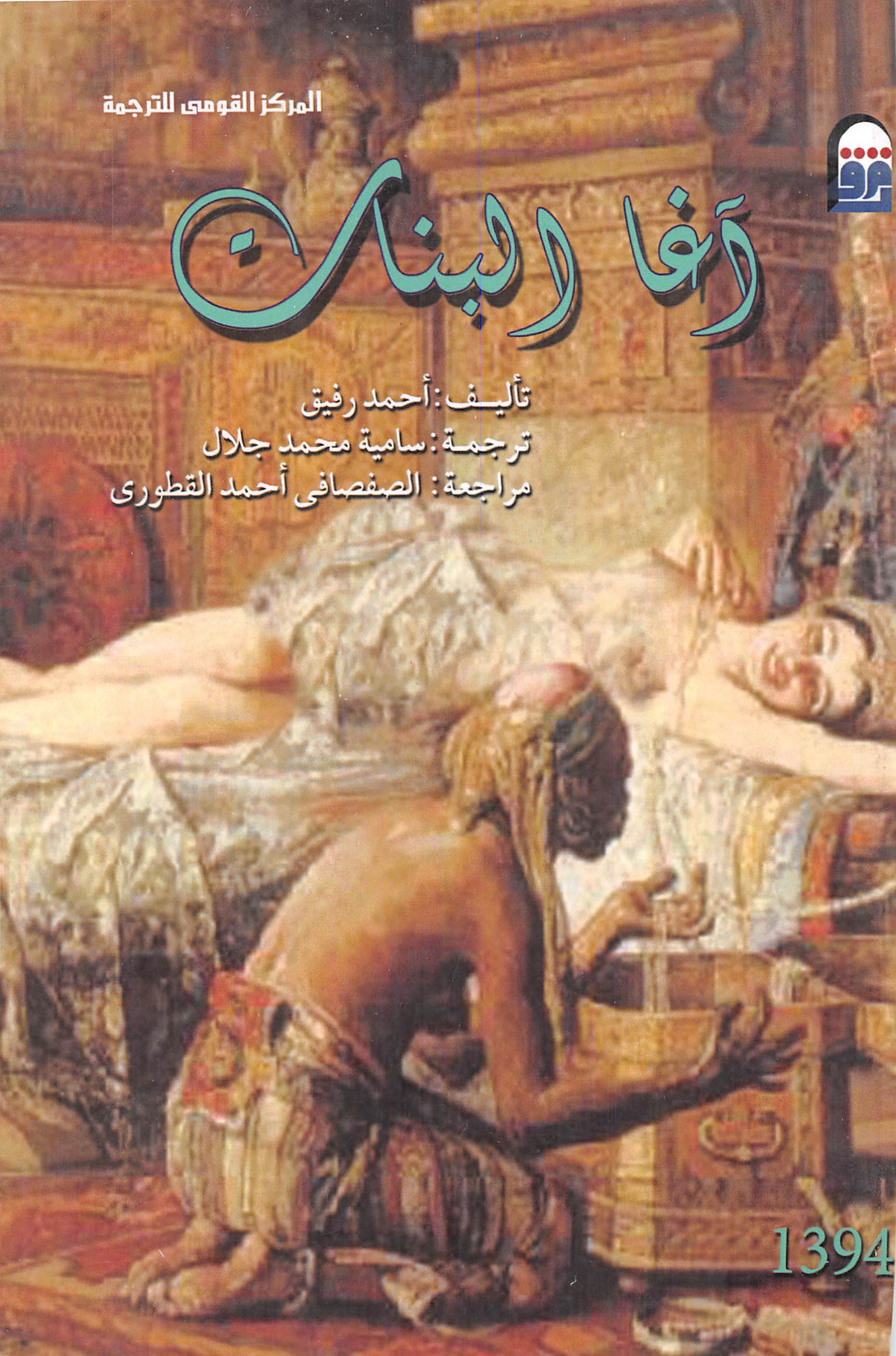


المركز القومى للترجمة

آغا البنات

تأليـف: أحمد رفيق
ترجمـة: سامية محمد جلال
مراجعة: الصفصافى أحمد القطورى

1394



الآغا كلمة معناها فى اللغة التركية الرئيس أو الشيخ أو السيد، وكانت تطلق على خصيان القصر السلطانى إبان الدولة العثمانية، التى توسعت فى استخدام الخصيان البيض "آق آغالر" والخصيان السود "قره آغالر" فى خدمة الحريم السلطانى وحراسته. وكان رئيسهم يسمى "قيزلر آغاسى"؛ أى آغا البنات، الذى يلقب بصاحب السعادة، وكانت رتبته تلى الصدر الأعظم وشيخ الإسلام آنذاك.

يبرز هذا الكتاب للقارئ أهمية الدور الذى لعبته هذه الفئة فى تاريخ الدولة، نتيجة التوسع فى استخدامهم الذى أدى إلى تغلغلهم فى شتى دوائر الحريم، بل تطلعوا إلى أن تكون مقاليد أمور الحكم فى أيديهم. ليس هذا فحسب، بل تعرض المؤلف أيضًا إلى عدد من مراكز القوى فى تلك الدولة، ومدى تباين نفوذها علوًا أو هبوطًا، ومنهم الحريم السلطانى وغيرهن من الجوارى الحسان وتسلطهن على السلطان من ناحية وعلى الصدور العظام من ناحية أخرى.

ويعتبر الأسلوب السردى البسيط من أهم الخصائص التى يتمتع بها مؤلف الكتاب، مما يضفى نوعًا من التشويق الذى يجذب قارئه إلى متابعة الأحداث التاريخية التى يصف فيها أحوال الأناضول وإستانبول مع هذه القوى المختلفة، والتى غالبًا ما يوثقها بالمصادر التاريخية العثمانية السابقة عليه؛ ومن ثم فإن كتاباته فى مجملها غالبًا ما تلتزم بمبدأ الحيدة المطلقة غير المبالغة، والتى يصور فيها جانبًا كبيرًا من الحقيقة.

آغا البنات

المركز القومى للترجمة
إشراف : جابر عصفور

- العدد : 1394
- آغا البنات
- أحمد رفيق
- سامية محمد جلال
- الصفصافى أحمد القطورى
- الطبعة الأولى 2009

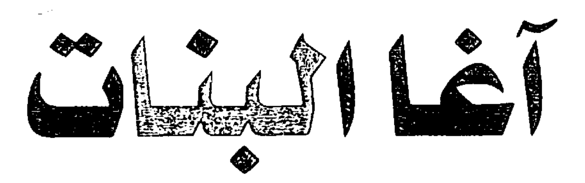
هذه ترجمة كتاب :

قيزلر آغاسى

تأليف : أحمد رفيق

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦
فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo
E.mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel.: 27354524 - 27354526
Fax: 27354554



آغا البنات

تأليف : أحمد رفيق

ترجمة : سامية محمد جلال

مراجعة : الصفصافي أحمد القطوري



2009

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

رفيق ، أحمد
آغا البنات/ تأليف: أحمد رفيق ؛ ترجمة: سامية محمد جلال ؛
مراجعة : الصفصافى أحمد القطورى
ط١ - القاهرة ، المركز القومى للترجمة ، ٢٠٠٩
٢٢٤ ص : ٢٠ سم
١ - الأدب التركى
(أ) جلال ، سامية محمد (مترجم)
(ب) القطورى ، الصفصافى أحمد (مراجع)
(جـ) العنوان ٨٩٤,٣٥

رقم الإيداع ٢٠٠٩/١٤١٦٢
الترقيم الدولى (I.S.B.N. 978-977-479-472-1)
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز .

دور «آغا البنات»

فى

تاريخ الدولة العثمانية

(١)

اجْتمع كبار رجال السَّراى[١] فى أواخر أيام شهر مارس عام ٩٩٠هـ، واصْطفوا أمام (مراد الثالث[٢]) فى ديوان المرحوم (أحْمد باشا)[٣]. عقد هذا الاجتماع لأمر طيب : فقد كانت (عائشة سلطانة)[٤] ابنة (رُسْتم باشا)[٥] سَتَتَزَوَج من فريدون بك . وقد كان لهذه الواقعة صَدى كبير من قبل رجال هذا العصر، خاصةً الصدر الأعظم[٦] (سنان باشا)[٧]، الذى كان يقف ضدّ هذا الزواج.

لم يَكن "فريدون بك : بسبب النَّكْبة التى ألَمَّت به بعد استشهاد (الصُّوقللى)[٨] يرغب فى أن يَحْظى بمثل هذه السعادة. فبينما حُرم الصوقلليون من كل مناصبهم الواحد تلو الآخر، نال هو منصب (النشانجى)[٩] وولى سنجق[١٠] (كُوسْتَنْديل).

تحمل (فَريدون بك) هذه الضَّرْبة ، وعاد بعد رجُوعه من الحرب، إلى مَزْرَعته فى (يكيجه) وهى من أعمال (آق حصار)[١١]. وظَل يَعيش على ذكرى الأيام العَظيمة التى قضاها فى عَهد صَدارة الصُّوقللى. وفى الواقع كانت هيبة فريدون بك وهَيْمَنَته مساوية لباقى السلطات الأخرى. وكان من اختراعات فريدون بك "حُمَاة الفَلَك المُزَيَّن بالنَّجوم والمَصابيح، والمُتَزَيِّنون بزى سباهية[١٢] النُّمور، مدار فخر أستانة در السعادة[١٣] وهيبتها".

كان تابعوه يستطيعون أن يخضعوا أعاظم البكلربكيين[١٤] ذوى الشأن. أما (فريدون بك)، فقد كان وقت خروُجه تتصدره المُشَاة، ومن خلفه مائة وخمسون من الجنود السباهية، وهم يرتدون الملابس القَطيفَة، ويُعادل قيمة زِى أَحَدهم بمقدار ألفين وأربعمائة آقچه[١٥]، ولكل منهم عَطيَّة وهِبَة تُقَدَّر بمائة وثمانية آقچه.

غير أن فريدون بك تحدى ضَربات الخُصوم التى وُجِّهت ضد الصُّوقللى، وبمجرد أن آتاه المَرْسوم السلطانى آمرًا إياه "لتأت ولْتَكُن فى خدْمة النشانجية"، وأعقبه فرمان[١٦] آخر نصُّهُ "لقد تم تعيينك فى السنجق، فلتأت ولتكن فى خِدْمَة الطُّغْراء الشَرِيفَة[١٧]"، حتى تَوَجه على أثره إلى السنجق.

كان فريدون بك ممتنًا للغاية من مَجيئه إلى محل سَعادَته من جَديد، غير أن عطية (مُراد الثالث) وإحسانه لم يتوقف عند هذا الحد، بل أمره أيضًا بأن يَتزَوج عائشة سلطان.

و (عائشة سلطانة) هى ابنة السلطانة (مهرْمَاه)[١٩]، وخالة (مُراد الثالث)، وكان للسلطانة (مهرماه) نُفوذ كَبير فى السَّراى، واشتهرت ابْنَتها الذَّكية من السلطان القانونى[١٩] السعيد. فى استانبول بأعمال الخَيْر والبِر. صار لهذا الزواج بَريق لامع للغاية. فقد قام بعقد القرآن شيخ الإسلام "جيوى" بِمَهْر بلَغ خمس وثلاثون ألف ذَهَبِية.

يعد وكيل "عائشة سلطانة "هو أكبر الشخصيات نفوذًا بالسراى: وهو "محَمد آغا "آغا البنات[٢٠]: وهو يُعْتَبر أيضًا أول آغا للبنات تم تَعْيينه من الزنوج فى السراى.

كان آغا البنات يلقب حينذاك بـ"آغا باب السعادة"، والذين يُكَلَّفون بخِدْمة الحرم هم كبار مُوَظَّفِي الأغَوات البِيض. وهؤلاء هم المنوط بهم انْضِباط الحَرَم والإدارة. وكان الأغَوات البيض من الأتْراك.

أَلْغَى "مراد الثالث "هذه الأصول، وكلَّف الزنوج والأغوات السود بمهمة أغوية البنات. وفي عهده صار يلقب بـ"آغا باب السعادة" فحسب، ولم يَكد "محمد آغا "يتولى منصب آغا البنات من الزِّنوج حتى اسْتَحْدَث لقب "آغا در السَّعادة"، واستقلت الوظيفتان إحداهما عن الأخرى.

احتل آغا البَنات مَكانة كَبِيرة داخل السَّراى. فاقت مكانة "أغوية درالسَّعادة الشَّريفة "مرتبة كبار رجال السَّراى جميعهم، بل وفاقت منصب "آغا السلاحدار"[٢١] أو" آغا باب السَّعادة" أيضًا.

تلي "أغوية در السعادة"، الصَّدارة والمَشْيَخَة : فَمن وُجهة نظر السلطان أن أهم وَظِيفة تلي إدارة الدَّولة والشَّريعة هي إدارة سَراى الحَريم وحِمايَتها ؛ ولهذا السبب، كانوا يطلقون على آغا البنات في السراى اسم "الآغا الكَبير".

كان آغا البنات يَضَع على رَأسه (السلِيمى)[٢٢]، ويَرْتدى في المواكب فِراء سَمُّورِى قيمًا يُغطى به كل ظَهْره، ويتقلد في خِصْره خنجرًا مُرَصَّعًا بالمَاس الخالِص الثَّمين ومَرْبوطًا بِسِلْسِلة قيِّمة يطلق عليها "آقوه"[٢٣].

لم تَقْتصر وظيفة آغا البنات على النظر في شؤون الحَرم فَحَسْب، بل وأُسند إليه أيضًا تولى شؤون أوْقَاف الحَرَمين . ولهذا السبب، كان

آغا البنات كل يوم أربَعاء، يَنْظر فى الحسابات الخَاصَّة بأوقاف الحَرَمين وكَافة المُعامَلات الخاصَّة به فى حُضُور مُفَتِّشى الحَرَمين والمُحاسبين (الملتزمين) والمقاطعةجية[٢٤] والروزْنامْجيَّة[٢٥] وكُتاب المُحاسبين بالدَّفاتر اليَوْمية والكتبة ورؤسائهم، ويَجْتَمع بهم فى قصر بجهة الاسْطبل الخاص[٢٦] خارج (اورته قاپى)[٢٧].

لم يكن "آغا البنات "يُعيَّن وُفقًا لتسلسل الدرجات، ولكن من يَحْظى بثِقة أكْبَر من السلطان يتم تَعْيينه وتَرْقيته. وطبقًا لقانون الفاتح[٢٨]، فإنه عند دخول الصَّدْر الأعْظم وشيخ الإسلام لِمُقابَلة السلطان، يتم إجلاسهما فى غُرْفَة آغا الباب العالى، وقد رُفِعَت هذه الأصول بعد أن ازْدَاد نُفوذ "آغا البنات"، وصار من العادة أن يَستَريح الصدر الأعظم وشيخ الإسْلام فى غُرْفَة "آغا البنات". كان هذا التَّغَيُّر قد رفع من شأن آغا البنات بدرجة كبيرة حينذاك.

وفى الوقت الذى يتم فيه عَزْل آغا البنات يجْرى إخراج الصُرَّة[٢٩]، ومن المراسم التى تقام فى ذلك اليوم، أن يعطى (أمير الإسْطَبل الكَبِير[٣٠]) لآغا البنات اللِّجام الفضى الخاص بِجَمل الصُرَّة، ويقوم آغا البنات بِقيادة الجَمل فى حُضُور السلطان ثَلاث مرات، وإذا لم يَتَسلم أمير الإسْطبل لجام الجمل من يد آغا البنات مرة أخرى يُفْهم عندئذ أن حضرة الآغا قد تم عزله، فَيَلْوى لجام الجَمل متجهًا خَارِج "أورته قاپى". ويتم تسليم آغا البنات المعزول بهذا الشكل إلى أمين الصُرَّة ويُرسَل إلى الحِجاز، ويَخْضَع تحت إمرة أمين الصُرَّة. أما إذا تَسلم أمير الإسطبل

الكبير لجام الجَمل، حينئذ يتم تَجديد تعيين آغا البنات، فيُقَبِّل الأرض فرحًا مسرورًا، ويَخْرج للحُضور، فيُنعم عليه بعَباءة تُغَطِّيه تمامًا ذات فَرْو بأكمام أربعة وإذا ما تم عزله جراء جُرْم كبير ارتكبه أو قام بأعمال أخرى لا تليق، يُنْفَى إلى مصر.

كان السلاطين يضفون أهميةً كبيرةً على آغا البنات؛ فقد أودعت فى يده جميع شؤون الخلق فى السراى، وسلمت إلى زِنْجِى جاهل مَحْروم من العلم والثقافة جَميع شؤون السَّراى العظيمة وكبار رجالها.

كانت الألقاب المُسْتَخدمَة فى الخطابات الموجهة من الديوان(٣١) إلى آغا البنات عند إصدار حكم من الأحكام عبارة عن: "محمد آغا دام عُلُوِّه، فَخْر الخَواص والمُقَرَّبين، ومَوْضِع ثقة المُلوك والسَّلاطين، وهو بحق آغا در سَعَادَتِى".

لم يكن انتزاع (مُراد الثالث) مهَمة أغوية البنات من الأتراك وتكليف الزنوج بها، بالأمر الذى يسعد الأغوات البِيض على الإطلاق. فقد استاء الأغوات البيض بهذا الحال الذى ألحق أضرارًا بمَصالحهم؛ واغتم الخلق أيضًا بهذا الوضع الذى جعل نفوذ كبار رجال الدولة وعِزَّهم ومَجْدهم فى أَيْدى الزنوج.

أما (مراد الثالث) فلم يكن ليأبه مطلقًا بهذه الحالة النفسية. وكان يرى أن رعاية شئون النساء ينبغى أن تسيطر على كل أمور الخلائق، بل تسودها.

"لقد وَصلت دَرَجة حُبِّهم للنساء إلى حد أن الضُّباط المُشْرِفين على الحرم المحترم بداخل الغُرَف السلطانية الخاصَّة، قد قارب عددهم أحيانًا الأربعين تقريْبًا، وأحيانًا يَزِيدون على ذلك" (بچوى. المجلد الثانى، صفحة أربعة). وكانت والدته (السلُّطانة نوربانو)[٣٢] تملأ السراى الجديدة العامِرَة[٣٣] بالسَّيدات والبَنات إرْضَاءً للسلطان وإشباعًا لرغباته. بل "إنها أَحْضَرت أيضًا فتيات قاصِرات من أجل بعض الشخصيات". "كانوا يَرْغَبون فى امتلاك الجَوارِى والحِسان، إلى حد أن الجارية التى تُباع بمائَتى ذَهَبِيَّة،كانت تُشترى ثلاثة منهن وأربعة منْهن بألف ذهبية" (بچوى المجلد الثانى، صفحة ٥).

كانت ملامِح نساء السراى من أذكى الملامح وأجملها. وتعد السلّطانة (نُوربانو) والدة مراد الثالث من أكْثَر الشَّخْصِيات المُؤَثِّرة والمُسَيْطِرة فى السراى. وكانت (السلْطانة جَوْهر ملوك) زوجة (بياله باشا)[٣٤]، و(أسما سلطانة) زوجة الصوقُّللى وأخته، من السيدات اللاتى قَضَيْن حياتِهن فى أفخم السَرايات بنُفوذِهن ونُفوذ أزْواجِهن فى عصر"السلطان القانونى"، وعاشت فى السَّراى سيدتان – وهما من فئة الـ(كَتْخدا قادين)[٣٥] كانتا تتمتعان بالمَكْر والدَّهاء والسيطرة بدرجة لم تكن تتحلى بها سيدات الكتخدا فى السراى العثمانية من قبل ومن بعد، واسم الأولى [جَانْفِدا خَاتُون[٣٦]] والأخرى [راضِيَة قالْفَه[٣٧]].

وتوجد بَيْن فئات هؤلاء السيدات أيضًا، زَوْجة رجل يَهودِى اسمها (خيراچه) والتى فرضت سيطرتها أيضًا، وقامت بالاستحواذ على جمرك إستانبول والتحكم فيه.

وبعد سيدات الفئة الأولى فى السراى، السابق ذكرهن، تتَصَدَّر السلطانة (صَفِيَّه بافو الونديكية[٣٨]) زوجة مراد الثالث، وعلى الرغم من ذلك كانت توجد سيدات (الخاصكى قادين[٣٩]) واللاتى يتجاوز عددهن الأربعين.

كانت إدارة هؤلاء السِّيدات جميعهن والعمل على انضباطهن، وكذلك إدارة السلاحداريين الذين تربوا فى الأندرون[٤٠] السلطانى داخل الحرم، والسيطرة على أرباب العلم والعرفان، وإدارة المشرفين على ركوب السلطان (وهم الركابداريين)[٤١]، وإدارة السراى الجَديدة والعامرة بأكملها، فى أيدى آغا البنات "محمد آغا".

كانت السراى مُتْرَعة باليهود الأَقْزام والمُهَرِجين والمُضْحِكين: فالمُتْعة والمَرْأة هما الشُّغْل الشاغِل لمراد الثالث على الدوام، وجميع هذه المتع يديرها آغا البنات (محمد آغا).

وكذلك يعد (شيخ السلطان) والملقب أيضًا بالشيخ الشجاع، من الشخصيات المهمة جداً، وكما تولى محمد آغا القيام بالنظر فى أحوال سيدات السراى، قام الشَيخ الشُجاع بالإشراف على رُقِيِّهن. وقد أظهر (محمد آغا) أنسًا وأُلْفة كذلك مع أستاذ وسيد العالم "سعد الدين أفندى الأصفهانى"[٤٢].

حضر (محمد آغا) آغا البنات مَراسم زَواج عائِشة سلطان ابنة (مراد الثالث)، من إبراهيم باشا". وعقد النكاح خواجه سعد الدين أفندى.

لم يكن عقد نِكاح السلاطين فى ذلك الوقت يَزيد عن مائة ألف ذهبية. أما نِكاح عائشة سلطان، فَقُدِّر بثلاثة مائة ألف ذهبية. انتهز (مُراد الثالث) فُرْصة زواج ابنته ليستمتع هو أيضًا ويبتهج؛ فقد احْتُسِيت الخُمور وسط أصداء تَصْفِيق الجاوشية[٤٣]. "وكان زينة المَجْلس ورفقاؤه المُطْرِبون والمُتَحَدِّثون ذوو الأداء الحسن، وهم يحثون أرباب العِشْق والشَوْق على التَّغَنى وإضفاء حالَة من الابتهاج".

فرض (محمد آغا) آغا البنات نفوذه فى السَّراى تسع سنوات كاملة، وأخضع لسيطرته (الخواجه سعد الدين، والشاعِر (باقى)[٤٤] الذى تولى منصب قاضِى عَسْكر الروم إيلى[٤٥]، و(جيوِى زاده)، و(سنان)، وفِرْهاد باشا. كان هذا العَصْر هو عَصْر الرَّشْوَة التى سادَت فى الإدارة العثمانية. وعلى الرغم من أن (مراد الثالث) هو الحاكم، فإن جميع شؤون الدولة كانت تُدار بالرِّشوة. يقول (مُصْطفى السَلانِيكى) وهو روزنامه جى (فِرْهاد باشا)، وقد أدرك هذا العصر: "لقد أصبح أراذل الخَلْق من زُمْرَة المُلْتَزِمين، وخَدم الأوْباش والمُحتالِين على الصِّدق والاسْتِّقامة والخَوْف والخشية بسبب الانْحِلال والفساد، ولم يفد منهم أحد، وعين العجم والأقزام والطواشية آغوية الحرم، وصاروا أرباب العلم والقلم، وبِيعت المَناصِب العالية عَلانيةً بالرُّشْوَة والهدايا المُقَدَّمة من شهر إلى آخر بشكل ثابت، وصارالجميع فى حَيْرة : فلم يكن قد بَقِيت أية مُتْعة على الإطلاق ". (تاريخ سلانيك، ص٢٠٤).

استفاد (محمد آغا) أيضًا من هذه الرَّشاوى، ووُفِّق فى بناء قَلْعة ومدينة صغيرة فى (بوغاز[٤٦] إسماعيل) على ساحِل الطونة[٤٧]. اعتبرها رِجال العَصْر من "سيئات آثاره التى حصل عليها بدون وجه حق فى سبيل التزلف إليه".

وحين قارَب ربيع الأول على الانتهاء مَرَض ذات يوم (مُحَمد آغا) آغا البنات فى السَّراى بدَاء سوء هَضْم، وأَرْسل فى الحال بعربة إلى مَنْزِله، وبمُجَرَد وصوله أسلم الروح : فأُغْلِق الدِّيوان فى اليوم التالى، وحضر جنازته جميع أركان الدولة، وأقيمت صلاة الجَنازة فى جامِع الفاتح، ودُفِن فيه (٩٩٩هـ). وتم بيع جميع أملاك (محمد آغا) وضمت بالكامل أيضًا إلى الأوقاف.

أثار آغا البنات عداَء الشعب، وخاصةً الشعراء. ولم يرض أى شخص على الإطلاق أن يَحْكم السَراى زِنْجِى فى الحقيقة. ولهذا السبب فقد تلقى الجميع خبر وفاته بالفرح والسرور.

هناك من تحدث عن وفاته قائلاً:

"ذهب عن العالم ذلك البَلاء الأَسْود".

ثم خلف "محمد آغا "زِنْجى أيضًا: اسْمَه سُرور آغا. تولى الأغوِيَّة فى آخر حكم مراد الثالث، وكانت الرُّشْوَة والظلم والسَّفه قد سَحقت الخَلْق ودمرتهم. وقد تحدث بعضهم عن ظلم السلطان صراحَةً، فقال:

"إنَّه حُكْم السلطان، فلا تَبك يا عُقُوبَة من الجَلاَّد".

فى نفس الوقت ظهر فيهم من غَضَب نتيجة ارتشاء أركان الدولة واغتصاب حقوقهم المَشْروعة، فقال:

"فلْنَصْبِر كثيراً على الجَوْر والظُلْم

ونَرى عاقِبة الأمْر وما يَفْعله الله...".

وكان فيهم أيضًا من نفذ صبره ولم يستطع انتظار العاقبة.

أما فى السَّراى فلم يكن الأغوات البِيض قد استَوعَبوا بعد، وبأى شكل إخْضاع ما لديهم من نفوذ للأغوات السُّود. وفى النهاية أثار ظلم (سُرور آغا) حَفيظَتَهم : فقد أراد "سُرور آغا" أن يَمْنَع أغوات الباب "الحُجَّاب" من الاتِّصال بالخَلْق. وقد استنفد هذا المنع صبر أغوات الطواشى. وحدث عِراك وتُشاجر أنْهى هذا الأمر برمته. ونفَى "سُرور آغا"إلى مِصر. لم تستمر أَغَوِيَّة "سرور آغا "أكثر من سنة واحدة. أدرك أيضًا (مراد الثالث) أن الأغَوات البِيض سَوف يَجْعلون العَواقب وَخِيمَة، فقام عام (١٠٠٠هـ) بِتَعْيين حاجى مصطفى آغا آغًا للسَّراى العامِرَة، وهو من الأغوات البِيض. "وقد صَدَر فَرمان الحُكْم على الأغوات السُّود والأغَوات البيض بالزَّجْر والقَهْر".

غير أن هذا "الزَّجْر والقَهْر "كان يُمكن أن يرْضى أطماع زُمْرَة من الخُدَّام ومَصالِحهم. فقد كان أركان الدولة فى السراى هم أساس الكارِثة الواقعة على الخَلْق، الذين يقومون بدورهم بعرض شكاواهم

ومذكراتهم على السُلطان مَعْتقدين أنه يتألم لحالهم . تقول إحدى شكاواهم:

"أيها السُّلطان تَتَهدَّم الدنيا بالظُّلم، وهو لا يَسْقط

وتتحطم بيوت الرَعايا، وعائلات الفُقَراء

مُنذ أن صار للدَّهر كل حاكِم دُون وحَقِير

فاستحال القَلْبُ جاهلاً، ويُدَمِّر القَلب العالم" .

ولكن من ناحية أخرى كان أعظَم الشعراء الذين آثروا مَصْلَحتهم، يُبَجِّلون عدل "مراد الثالث "بقصائد بَرَّاقة رَنانةَ.

ابْتُلِى الخَلْق بطامتين كبيرتين: القَحْط والطاعُون. وقد شرع (السَلانيكى) يُعبِّر عن ذلك بقوله "قَدَّم السُّقاة الأجلاء كَأس المَوْت من مَجْلس إلى أَخر حتى ثَمِل عالَم البَشر". أما فى السراى، فلم يكن السقاة الذين يُسْكِرون السلطان وسَيِّدات السَّراى، هم أولئك السقاة الأجلاء، بل على العكس كانوا "البَنات الحُور" المَعْشوقات اللاتى يضفين البهجة على مَجالسهم، هن "السُّقاة فِضْيات اللون، بِعَضدهِن البَلُّورِيَّة "كما يُصَوِّرها (أحْمد نَديم أفْندى) فيما بعد ذلك بعدة قرون.

كان يَهْرع إلى أبْواب السَّراى العلماء والفضلاء والشعراء أفواجًا من أجل تملق أغواتها وتقبيل أعْتابِها. وحشدت ثروة الإمبراطورية العَظيمة وفَخامَتها على أعتاب السَّراى المُمْتَدَّة حتى بوغاز إستانبول،

حيث المُتْعَة والجَاه والأُبَّهة والفَخامة، فى الوقت الذى كانت الولايات المُعْدَمة والفَقِيرة تعانى من الضَعف فى أيدى الوُلاة الظالمين المُرْتَشِين. وبينما كانت السراى فى حالة من العجز حتى مِنْ أن تَدْفع للدائنين أَمْوالهم، كان (مُراد الثالث) يتنقل كل يوم فى مَجالِس السَّفَه والبَذَخ، وسط الغِناء والطَرب، ووسط اليهـود المُهَرجِين والأَقْـزَام المُضْحِكين، وهو يقول "ألف حمد وشكر لله بلا حد "على أن يومنا قد انْقَضى على هذا النحو"!

بل إن اليهود الذين اجتهدوا فى إمتاع السلطان، قد أدْركوا عجز السَّراى والسفه الذى لحق بها : فقد كان بالسراى يَهُودِى، اسمه (جَهود جُوجَه[٤٨]) (= القزم جهود)، وهو من ندماء (مُرَاد الثالث)، بلغ من الوَقاحَة فى تَعامله مع الآخرين فى السراى إلى حد أنه كان يَتَفَوَّه بألفاظ لا تليق وغير محترمة، ويوجهها للصدور والوزراء العظام ولأصحاب المعالى المحترمين، ولم يقف (جُوجَه) عند هذا الحد، بل كان يأخذ الرَشاوى، ويقوم بتَعْيين الكثِيرين فى المناصب العليا والدرجات الكبرى، وفى النهاية بلغ حداً لم يَكن من المُمْكِن تَحمله : فصُودرت أمْلاَكه، وعادَت مرةً أخرى إلى أَصْحابها، وأعِيد إليه أقرباؤه، ورجع الأشخاص الذين أوصلهم إلى المَراتب والمَناصب المَذكُورة مَخْذولِين إلى درجاتهم الوضِيعة".

كان يُوجد أيضًا يَهودى يَتَردد دائمًا على السراى، ويحضر معه المُجوهرات النَفِيسة، ويَبِيعها بأثمان باهظة. ذات يوم قَدِم اليهودى مرةً

أخرى، وأحَضْر "قطعتين من المُجَوْهرات القَيِّمة". وأرسلهما إلى داخل القصر قائلاً "إن قيمتهما ١٢ يوكًا[٤٩]، إحْدى القطعتين عبارة عن حِزام مُرَصَّع، والأخرى طُفْرَاء مُرصَّعة كذلك، وهما نَفِيستان للغاية. أخذ رضوان آغا البلطجي اليَهُودِي إلى الداخل، وأرْسَله إلى مَخْزن سَقِيفة الفرن، حيث قام بتنظيفها، لم يدر أحد فى السراى بِهذه الواقعة، ومَرت الأيام ولم يُعْثَر على اليَهُودِي. وكان يرسل ويبيع المُجَوْهرات التى يَحْضرها معه إلى الداخل بواسطة الآغا رضْوان البَالْطَه جِى[٥٠] دائمًا، وكان أطفاله يعلمون هذا أيضًا. وعندما أحسوا بغياب أبيهم، واجهوا رضوان آغا، وشكوه قائلين:

- لقد ذهب أبونا معك، وبحوزته ثروته القَيِّمة هذه، ولم يأت حتى الآن، ماذا فعلت؟

وفى النهاية رجعوا إلى الدِّيوان، فأنْكَر رضوان آغا إنكارًا تامًا، وقال:

- إننى سلمت إليه المُجَوْهَرات مرةً أخرى فى الحَرم.

وبقى الوضع على ما هو عليه مدة طَوِيلة، ولم تقبل عائِلة البلطجى اتهامات المُشْتَكِين وقالوا:

- نحن لا نقبل هذا الاسم، فليخرج من بيننا هذا الشخص، ثم إنكم لتعلمون أحواله فى الخارج وفقًا للشرع الشريف.

وأصروا على أقوالهم. عُرِضت القَضيَّة على (مراد الثالث)، وألحْق (رضوان آغا) إلى فرقة الجُنود السباهية، وقد دفع مبلغ ١٨ آقچه، وصار ضيفًا في هذه الليلة في غرفة الأغا، وقاموا بتفتيشه هنالك، حيث ظهرت من جيبه الطُغْرَاء التي أعطاها له اليهودي. ولم يبق أمام الآغا مَجال للإنْكار حِينذاك، وقاموا بالمَزيد من التَحْرِّيات، ففتشت كل أركان السَّراي، حين علموا بوجود جُثَّة في مَيْضئة مخزن سَقِيفة الحَطب بالداخل، فأخرجوها من الميضئة، وعثروا على مائة ذراع فِرَنْكي من القَطِيفة في غُرْفَة البَالْطَه جِي. فَسارع وَرَثة اليهودي بإخراج الجُثَّة الموجودة بالميضئة، وأكدوا أنها جثته. ورغم أنه كانت هنالك أيادي مرتشية، إلاَّ أنه تم القبض على رضوان آغا وألْقِي به في البحر في الحال.

والغَريب أن كل الأمور في السَّراي كانت في قبضة اليهود، فقد كانت زَوْجة اليَهودي – وتُدْعى (خيراچه) – ذات مَقْدِرة في أن تَتَصَرَّف بسرعة في بَيع ما تريده، حتى بيع مَنْصب حكم (غَلَطه)[٥١] ذاته. "وينال رئيس الدراويش اليهودي – المشهور بتقديم هداياه القيِّمة للحرم المبجل – عطايا المرأة المملوكة له ".

تواري (مراد الثالث) بين النساء، وزالت كل لحظات السَّعادة والإقْبال لآغا البنات مُصْطفى آغا : فقد كان راتبه يصل إلى مائتي آقچه يوميًا، بالإضافة إلى مُخَصَّصات الامتياز، وانتقلت أَغَويَّة البنات إلى الزَّنُوج مرةً أخرى. ونال المَنْصب هذه المرة "عُثْمان آغا "عام ١٠٠٢ هـ.

وهيمن نفوذ (الوَالِدة صَفَّية سلطان) على السَّراى فى زمان (عثمان آغا) آغا البنات.

عاشت (راضية قالفه) - وهى من سَيِّدات السراى - فى عَهد (مراد الثالث)، وهى سيدة قوية وما زالت حتى الآن، واهتمت بتَعْيين أخيها (إبراهيم باشا) فى الدِّيوان، وكذلك ابنها (مُصْطَفى باشا) وصِهْرِها فى المناصب العُلْيا.

نال الخواجه (سعد الدين أفندى) نفوذًا قويًا لدى السلطان، ويعد (سلُيْمان آغا) الأبْكَم المشهور بـ(المُشْعِر الأبكم) من أهم الشخصيات عند الوالدة (صَفِيَّة سلطانة). وتصدرت الوالدة (صَفيَّة سلطان) قائمة المُرْتَشِين فى السراى، فقد كان يُقَّدم لها دائمًا "المَبالغ العَظِيمة والهدايا الغَزِيرة".

استمر (عثمان آغا) مدةً طَوِيلة فى وظيفته بعد حكم (مُحَمد الثالث)[٥٢]. وتولى (غَضَنْفَر آغا) فى نفس الوقت آغوية الباب العالى. وقد حظى أيضًا برِعاية الوالدة (صَفِية سلطان) وثِقَتها، ولم يتمكن الوزراء الذين لم يستطيعوا أن يتجاوزوا (غَضَنْفَر آغا)، من الاحْتِفاظ بمناصب الصَدَّارة، وعلى هذا النحو سلك الطواشى حسن باشا، فقد وصل إلى مَنْصب الصَدَّارة بتقديم الرشاوى إلى حَضْرة الوالدة سلطانة[٥٣]، وعلى ذلك لم يكد يَتَولى الصَدَارة حتى انْهَمك فى الحُصول على الرشوة التى كان قد دَفَعها من قبل، وبدأ يَبِيع المَناصِب والدَّرَجات بالنُّقود، وكان يَشْرح

للوالدة صفية سلطانة مفسرًا لها ضرورة تَقْدِيم الرشوة، وهو يقول لمن يطلب منه التعيين فى المناصب:

- هل تَعْلَمون إلى مَنْ أقدِّم المبلغ الذى آخذه منكم ؟

كان يضمر كراهيّةً شديدة لآغا الباب غضنفر آغا، حتى أنه أصْدَر قرارًا بإعْدامه، وأوضح الأمر للسلطان، ملحقًا به بعض مظاهر الفساد، ولم يَفْهم (محمد الثالث) ما فى نفسه من غرض، وعرض الأمر على الوالِدة، ونقلت الأخيرة الكلام إلى غَضَنْفَر آغا، حيث أوضح لها أنه كان يعلم كل هذا قائلاً:

- إن (حسن باشا) يأخذ الرَّشاوى علنًا، وكان يُشَهِّر بكم ويقلل من قَدْرِكم، وهو يشتكى للصغير والكبير والغنى والفقير، وقد أشاع بينهم أن حَضَرة السلطانة تُقاسِمنى نَصيبى. وكان الغَرض من هذه الشكوى أن يُسَلِّط عليكم أشقياء العامة، ويتحكم فيكم العبِيد، ويبعدكم عن حُضور السلطان، حيث يستقل هو نَفْسه بالأمر. ومن المؤكد أنه يُريد إهدار دمَى بِغَيْر حق، وليس هناك أحد يُوضح للسلطان هذه الأمور".

اتفق الخواجه سعد الدين أفندى مع آغا الإنكشارية (الطيرناقْچى)(٥٤) على (حسن آغا). وانتهت المسألة بقتل الصَّدْر الأعظم الطُّواشى (حَسن باشا)، وقد حَظِى (الخَواجه سَعْد الدين) فى عهد أغوية (غَضَنْفر آغا) على جَاه ونُفوذ بَرَّاق بعد أن مر بمِحْنَة مُؤقتة، وامتد نفوذه حتى إلى مَنْصب الصَدَّارة. ومن ذلك أنه كان يتفق مع آغا الباب غَضَنْفر آغا فى

كل الأمور، ولكن تغير الزمن، فقد ظهرت قُوات معارضة فى الخَارج ضدِ اسْتبْداد السراى، وكان الجُنود السباهية ينهضون بثورات بين الحين والآخر. وانتهت هذه الثورات بقتل زوجة اليهودى (خيراچه) قتلة بَشِعة. وتأثرت صفية سلطانة من هذه الحادثة تأثرًا شديدًا. ثارت كل هذه الاضطرابات بسبب النُّقود المُزَيَّفة المأخوذة كرشاوى وهدايا من (خيراچه)، والتى قَدَّمتها إلى الجنود الغلمان، وبلغ بهم الغَضب إلى حد أنهم قطعوا أيدى المَلْعُونة المُرتشية، وقطعوا مَوْضِع فرجها، وقاموا بصلب بعض المغْرورين من أصحاب الجاه والمناصب والمنتسبين لهذه المَلْعُونة وعلقوهم على أبواب الجناه، بل إن "نعيم أيضًا لم يكن يَرْضى بوجود الرشوة إلى هذا الحد "إن هذا الأمر يوجد فى كل العصور، ولن يتوقف فى كل الأزمان، حيث تَمنح المبالغ والهدايا فى أيدى أشخاص يتوسطون للحصول على بعض المَصالح، غير أنه فى حال تجاوزها عن الحد المعقول فلابد حينئذ من السعى إلى دفعها ومنعها بالطرق الحَكِيمة، ومن المؤكد أن العاقبة ستكون وخيمة عند هتك قانون الدولة وإثارة هذا النوع من الفَساد المُحرض على هجوم العامة".

(المجلد الأول، ص٢٣١).

لم تكن الثورات التى قامت ضد السياسة التى يُديرها آغا البنات وآغا الباب، قد ظهرت فى استانبول فحسب، بل أعلنت الأناضول عِصْيانها بالكامل أيضًا : فقد أعلن "قارا يازِيجى عِصْيانه فى نواحى (رها)،

ولم يكن المتظاهرون في نواحيها بالصورة التى رسمها (نعيم الحلبى) ووصفهم بـ"أنهم عدد غَفِير من أشقياء الأكْراد الضَّالِين وعدد آخر من الأتراك الجَهْلة"، فقد ضج شَعب الأناضول[٥٥] من ظُلم الراشِى الذى يحصل على المَنْصب بالرَّشْوة، ومن رِشْوَة النساء الأجْنَبِيات اللاتى تعج بهن السَّراى، ومن بذخ استانبول. بل أعلن كل المُتصوفة فى (إيچ إيل) العِصْيان أيضًا. ولم يكن (قره يازيجى) يعترف بالسلطان ولا باستانبول، فقد كان يقول فى أوامره التى يطلقها ضد العثمانيين، "أنا أصدرت وأمرت "مستخدمًا نفس المصطلحات المستخدمة فى الدواوين، وكان ينهى الأوامر بهذه الخاتمة "فليبقى هذا بين أيادى الحُكم الشريف، ولِيُنفذ المَضْمون الهُمايونى، وليكن ذلك مَعْلومًا، حرر فى أواسط ربيع الأول سنة تسع وألف".

وفى الدَّولة العثمانية، سيطر على السراى شخصان رئيسيان هما: (آغا البنات) وآغا الباب "غَضَنْفر آغا "، فى حين سيطر (حسن باشا اليمشجى)[٥٦] على أمور السياسة.

تمثل الأناضول أساس قوة الدولة، ومن وجهة نظر استانبول، بدت مُطَالبة الأناضول بحقوقها أمرًا سيئًا، غير أن الذين سلبوا الأناضول حَقَّه حقيقةً، هم الأشقياء المُعَيَّنون بفرمانات عالية، وأصحاب المناصب الذين قدَّموا الرشاوى لتعيينهم، وفرضوا سيطرتهم على الأناضول، التى وقفت فى واقع الأمر ضد هؤلاء الأشْقِياء. ومن تولى منصب الصَّدارة فى استانبول، هو حسن باشا (اليمشجى الألْبانِى العنيد).

توالت الثورات ضد إدارة السراى المتدهورة فى استانبول أيضاً.، وفى نهاية الأمر ثارت طائفة سرية الجيش المسماة بـ(القول[٥٧]، وطلبت من السلطان انعقاداً طارئًا للديوان، فأقيم العرش، وجلس السلطان على العرش، وتضمنت شكاوى تلك الطائفة، قضايا تتعلق بالأناضول.

لقد خرجت الأناضول من تحت سيطرة العثمانيين ونفوذهم: فقد كانت إيالة أرضروم[٥٨] فى أيدى (گوسه سَفر باشا)، وإيالة سيواس فى يد (آلاجه أتلو أحمد باشا)، وإيالة قرامان فى يد (دَلِى حسن) أخى (قره يازيجى)، وألوية مَرْزِيفون وقَسْطمونى وكانقرى فى يد كل من (الطويل حسن) و (قره سعيد). وانحصر نفوذ العثمانيين فى إيالتين. وتم إرسال فِرَقٍ من القواد خمس أو ست مرات، ولكنهم هُزِموا وتفرقوا جميعًا. وكانت طائفة الجنود المُكَوَّنة من دَوْشِيرْمَه[٥٩] استانبول، تَعْزو هذه الهزيمة إلى إهمال وكلاء الدولة و "جهل المطلعين على أسرار الحكم"، ومنهم (حسن باشا الطِيرْناقچى) الوزير الرابع، وآغا البنات عثمان آغا، وآغا الباب غضنفر آغا أيضًا. ولهذا صدر الأمر بقطع رقبة (الطيرناقچى)، ولكن تَشَفَّعت له الإنْكِشارية وأنقذوه، ولم يجد (عثمان آغا وغضنفر آغا) من يَشْفَع لهما. لقد كان عثمان آغا الزنجى وغضنفر آغا من يهود الدونمه[٦٠] النمساويين، وخلال دقيقة واحدة تَدَحْرَجت الرأسان إحداها بيضاء، والأخرى سَوْداء فى ساحة السياسة، وحَىَّ السلطان أركان

الدِّيوان "وأوصل أصــوات دعــوات طواشى الحــرم والأهالى إلى فلك الأفْلاك، ثم انصرف لحاله ، وكأن القضايا جميعها قد تم حلها بقطع هذين الرأسين (١٠١١هـ).

فى الوقت الذى كانت الثورات بدت فى شكل صِراع بين عَساكر الدَوْشِيرْمَه العبيد والجنود السباهية - ومعظمهم من أتراك الأناضول - كان يوجد فى الإدارة رجال يمثلون التَّصوف التركى فى الإمبراطورية العثمانية، ولكن لم يتوان حتى من لم يتعلم اللغة التركية بين جنود الإنكشارية، فى أن يعلن عَداوته للجنود السباهية، معتمدين فى ذلك على قوة الحكم العثمانى فى بلادهم، أما السلطان الذى يَنْحدر من العِرْق التركى، فقد ضحى بهؤلاء الجنود السباهية تحقيقًا لرغبات جنود الدوشيرمه، وخوفًا من أن يقوموا بتنحيته عن العرش، وتشهد أبواب السراى ما كان يَجْرى أمامها من قتل، وما كان يحدث من سفك للدماء تحت سقف باب السعادة : فقد سالت الدماء على الأرض بدون وجه حق أمام أبواب السراى لتأمين حكم السلطان وتَحْقيق مَلَذاته، ولم يكن هنالك من مذنب، وإنما كان المذنبون فى الحقيقة هم محمد الثالث المُنْغَمس وسط المَلَذَّات والطَرَب، ووالدته صفية سلطانة الونديكية، ونِساء السراى، والصُّدور العظام، وشيوخ الإسلام. لقد تَعب الخَلْق من هذه الجرائم، ولم يكن هناك أيضًا من يَخْشى الشكوى من استبداد السلالة العُثْمَانِية، ولم يعد الخلق تحمل فى قلوبها تلك البُطولات والتَضْحيات

الجسورة التى قام بها أجداد العثمانيين، وانطمس ما فيها من أحاسيس ممتنة تذكرهم بتلك المفاخر الماضية. ففى أى تاريخ أو أسرة غدر فيها حاكمها بأخيه ليلة جلوسه على العرش، وهو لم يبلغ بعد التاسعة عشرة من عمره ؟! لقد تمكن (محمد الثالث) الذى جلس على العرش بعد مقتل (مراد الثالث)، وهو الميَّال إلى الشَهْوة واللذة مع (بافو الونديكية)، من أن يُنقِش على صفحات تاريخ إمبراطورية عظيمة تأسست بقوة الأتراك وعزيمتهم، معُظم هذه الجرائم المفجعة الدامية التى لا يمكن أن تنمحى على الإطلاق.

لقد أثار قتل الكثير من الجنود السباهية حزن الأتراك أصحاب الفضل والعلم، وهذه الأبيات التى نظمها (عَزْمى زاده بك) فى ذلك الوقت، هى أبلغ دليل على حس الشعب:

لا عجب إن أطلقوا على كربلاء الحادث الفجيع

وليس بغريب أن تُقام المآتم وينطلق النواح اليوم

فقد استشهد على والحسن والحسين

ومن تسبب فى استشهادهم جميعًا ما هو إلا (يزيد) واحد فحسب

والذى تسبب فى إيذاء أبناء الأناضول الأبرياء والمعصومين بهذه الكوارث، ما هو إلاّ (الأرناؤطى اليمشجى)، والذى عينه (محمد الثالث) فى مَقام الصدَّارة.

كان آغا البنات الجديد هو(عبد الرازق آغا)، ولم يكد يتولى مَنْصبه، حتى بدأ فى بسط نفوذه على السراى أيضًا. وبعد عامين من حكم (محمد الثالث) توفيت (راضيه قالفه)، وفرض ابنها (مصطفى باشا) سيطرته على السراى. وكان أول عمل لآغا البنات (عبد الرازق آغا)، هو قتل ابْنه إرضاءً لأبيه؛ فقد بشَّر أحد الشيوخ ابن (محمد الثالث) وهو الأمير (محمود) - طمعًا فى المال بالتأكيد - بجلوسه على العرش، وكتب له "أدْعِية وتعاويذ "وأرسلها له، ووصلت هذه الأوراق إلى أيدى آغا البنات، وفى الحال قدمها إلى السلطان (محمد الثالث). فاشتط محمد الثالث غضبًا، وأمر بقتل الأمير، ومن بعده والدته، ثم الشيخ، ومن توسط للشيخ.

كان عبد الرازق آغا البنات من أكثر الشخصيات الشرِّيرة فى السراى، وكان مكلفًا بالقبض على الأشخاص الذين قتلهم "محمد الثالث "مهما كانوا، وكان الأتراك هم أكثر من تَعرض للقهر فى هذه الإدارة الفاسدة. فقد كانت سياسة الدولة فى أيدى امرأة جُنُوية - وهى الوالدة "صَفِيَّة سلطانة (بافو الونديكية)، تلك السَّيدة القوية، ولا تزال حتى الآن، وفى يد أرناؤطى، وفى يد زِنْجى، أما شيخ الإسلام الذى ينتمى إلى مذاهب العلماء، فهو خاضع لهم حبًا فيما يَمْنحونه له من مُخَصصات.

وفى النهاية أفسدوا العلاقة بين الوالدة سلطانة وبين (اليمشجى)؛ فقد أشاعوا خبرًا يفيد عزمه على إجراء إصلاحات تهدف إلى إبعادها

عن السراى. وفى الحقيقة، كان هذا محض بهتان. فقد كان الجشع والطمع هما الصفَة الوحيدة الغالبة فى أنحاء السراى، حتى يتمكنوا من فى تأمين مناصبِهم، وصدَّق كلاً من السلطان والوالدة سلطانة هذه الادعاءات. وأقال الوزير (اليمشجى)، ولم يستطع المثول أمام السلطان فطلب "داود باشا "ذات يوم مُقَابلة السلطان. فمنعه آغا البنات عبد الرازق آغا، فكتب (اليَمِشْجى) مذكرةً قال فيها "هناك أمور مهمة سوف أعْرِضها"، فرد على طلبه "فلتعرضها يوم الديوان(٦١)": ففهم (اليمشجى) أنه قد تم عزله، وحاول بشتى الطرق والحيل، غير أن الانْكِشارية كانت قد أعلنت عصيانها، وفى النهاية، لم ينقذه أحد من القتل، وأظهرالجميع فرحهم على أثر ذلك.

لم تمر فترة طويلة، حتى لحَق (محمد الثالث) أيضًا بمن أمر بقتلهم، وحدث ذلك عام (١٠١٢ هـ).

وكالمعتاد كُلفت صفية سلطانة بالإقامة فى السراى القَدِيمة.

* * *

كانت جثة (محمد الثالث) لا تزال مسجاة فى السراى، حتى أظهر قائمقام الصدارة(٦٢) خطًا همايونيًا أحضره من داخل السراى كتخدا الباب، وقد خاطب فيه (حسن باشا)، فتناوله (قاسم باشا)، وحاول قراءته، ولكنه لم يفلح على الإطلاق، وقال للكَتْخُدا:

- إن هذا الخط لا يشبه خط سلطاننا الذى يكتب بلا نقط: فعباراته وألفاظه لا يمكن قراءتها، ولم يكن سلطاننا يستخدم تعبير "أبى" فى حياته أبداً "واستدعى المؤرخ حسن بك، وأقرأه الخط، وفهم أنه الخط الهمايونى للسلطان الجديد "أحمد الأول[٦٣]، الذى وقع عليه بخاتم السلطان، وبسبب وفاة محمد الثالث، لم يكن قاسم باشا لِيَعْلَم حتى بذلك، وفى النهاية تمكن من معرفة الحقيقة من آغا البنات عبد الرازق آغا. دعى جميع أركان الدولة إلى السراى. كان السلطان أحمد الأول جالساً فى غرفة العرض. وقد وُضِع أمامه عَرْش باب السعادة. تَعَجَّب أركان الدولة عندما رأوا ذلك، ولم يستنبطوا منه شيئاً على الإطلاق، وظنوا أن (محمد الثالث) سوف يخرج. وعندما اكتمل المدعوون، استطاعوا أن يدركوا الأمر حينما رأوا طفلاً فى الرابعة عشرة من عُمره وهو يَرْتدى قلنسوة سوداء، وقد جلس يُحيِّى الموجودين وسط تَصفِيق الجاوشية. وفى الحال أحضروا القلانسة السوداء، وتدثروا بشارة الحزن. وتمت مراسم البَيْعة، وتفرق كل شخص إلى حاله.

بدأ العزل والنصب، وعزل آغا البنات عبد الرازق آغا عام (١٠١٢ هـ). وحل مكانه (مصطفى آغا) آغا البنات. كان السلطان فى تلك الليلة قد تم اختتانه، وبعد عام واحد وُلد الأمير (عثمان)، وعندما ولد هذا الأمير كان (السلطان أحمد) منشغلاً بالقنص، فبشره (آغا البنات مصطفى آغا) بالخبر عام (١٠١٣ هـ)، وبعد ثمانية أشهر وُلد له أمير آخر اسمه (الأمير محمد).

كان السلطان (أحمد الأول) مُغْرمًا بالصيد، وكان رئيس مُدَرِّبى الصُّقور هو(حافظ أحمد آغا)، قد حظى بِرُتْبَة النَدِيم، فلم يكن له نظير فى الشعر والمسامرة".

انقضى زمن (أحمد الأول) فى صراع بين استانبول والأناضول. قَررت الأناضول تنحية العثمانيين عما وراء الاسكدار. واستمرت هذه الصراعات والغوائل سنينًا طويلة. أحال خلالها (قويوجى مراد باشا) الأناضول إلى بحر من الدماء، وقتل مائة ألف من البشر.

كان مصطفى آغا آغا البنات فى عهد أحمد الأول، مهتمًا بالأمور السياسية. وكان يقف دائمًا ضد "قويوجى مراد باشا"، وينتقده أمام السلطان، كلما سنحت له الفرصة. وذات يوم قال للسلطان أحمد الأول أن (قُويُوجى مراد باشا) قد صار شيخًا فانيًا، وأنه لم يكن قد ذهب قاصداً الحرب، فغَضَب أحمد الأول، وقال:

– أصمت، أيها الخَبِيث، وألزم حَدَّك، فهو ذلك الغازِى والمُجاهد العجوز والوزير المحنك، فقد أخْضَع مرةً أخرى ولاية الأناضول بعد انفصالها عن الدولة، وهزم عساكرها المهيبة وقهرهم، وقد استطاع أن يَتَغلب على كل هذه المفاسد بالحجَّة والقُوة، وخدم من أجلى بروحه وكيانه. وحتى إذا كنتَ قد تفوهت بهذا الكلام على سجاياك بلا غرض وأنت خالص النية، فإننى أيضًا لن أرضى بأن تتحدث عنه بهذا الكلام. فلتذهب إذا أردت، أو لتجلس.

كان أحمد الأول محقًا. فلم تكن الأناضول تربطها علاقات حقيقةً بالإدارة العثمانية، فقد ضاق شعب الأناضول ذرعًا بها. كان قويوجى مراد باشا "الخُرْوَاتى الأصل، هو مَنْ دمر شعب الأناضول، ودفن أجسادهم، بل هو الذى ذَبح الأطفال فى مهودهم. وكانت الدولة بإمكانها إخماد أى عصيان وثورات تقوم ضدها شريطة أن ينال الشعب رفاهِيته فحسب، غير أن (قويوجى) نهض لقتل عامة الأناضول، وظل الشعب يرزخ لقرون عديدة تحت ظلم إدارة استانبول ورشوتها أيضًا.

كان أحمد الأول يقضى معظم وقته فى الصَّيْد، أو فى قصر الترسانه، وأحيانًا يذهب أيضًا إلى (أدرنه). وعند ذهابه إلى "أدرنه "كان آغا البنات مصطفى آغا يأخذ الأمراء ويرسلهم إليها قبله، ثم يذهب إليها السلطان مع جَميع أركان الدولة، وهم غير مُرَوَّضِين للصيد، وأحيانًا كان يتم إثارة الطَّرائد من مكامنها، ويهبون ما يحصلون عليه من الصيد. وعندما كان يذهب إلى (غاليبولى)، كان الأمير يزور (سليمان بك) و(يازيجى زاده) صاحب القصِيدَة المُحَمَّدِية.

لم يعد للسيدات أى نفوذ فى السراى فى عهدى (مراد الثالث) و(محمد الثالث). وعلى الرغم من ذلك، فقد تمكَّن من حماية من يرغبنه من رجال السَّراى، بل لم يستطع الصدر الأعظم من إسقاط (مصطفى آغا) الواقع تحت حمايتهن، وحاول المُفْتِى أن يستفيد من نفوذ آغا البنات. وعلى سبيل المثال كان (مصطفى آغا "آغا البنات") هو أحد

أسباب إقالة (نصوح باشا). وكان نصوح باشا هو أول من اهتم بتطهير استانبول من الكلاب. ففي عهد وزارته صَدَر فرمان بطرد كلاب استانبول إلى اسكدار وغيرها، وتركها تعوى وكأنها زبد تذهب جفاء". حدث ذلك عام (١٠٢٣هـ). كان (مصطفى چاوش الإينجلى) في هذا الوقت من جاوشية البلاط العالي. وكان في معظم الأحيان يقوم بمهمة إرسال المعاهدات إلى إيران.

عمل (أحمد الأول) بعد أن أصلح الأناضول، وهو الذى دمر شعبه، على تزيين الرَّوْضة الشريفة بالمال الذى يَنْبغى إنفاقه على رفاهية الشعب. وخَلَع حجر خاتمه الذى يطلق عليه حجر الشمشراق، والذى اشتراه أبوه (محمد الثالث) بخمسين ألفًا من الدنانير، وأرسله مُرَصَّعًا بمائتين وسبع وعشرين قطعة من الألماس النفيس. وحتى لو كان قد أرسل كل ما في الخَزِينة الهُمايونية، فلن تَنْمحى الذنوب التي ارتكبتها السراى وأركان الدولة. خَلَّف (أحمد الأول) للشعب التركى جامعًا فخمًا، وودَّع عالم الفساد والرشوة في عصره. كان داؤه هو "سوء الهضم".

وبدأت الكَوارث من بعده، فقد كان أبناؤه الأمراء صغاراً في حقيقة الأمر، ولو أنهم أنعموا النظر في أن السلطان (محمد الرابع) – الذى أُجْلِس على العرش بعد اثنين وثلاثين عامًا – كان عمره آنذاك سبع سنوات، فإنه من الممكن – على كل حال – تعيين أحد الأمراء الأكبر سنًا منه. فمثلاً الأمير عثمان، كان عمره في ذاك الوقت يبلغ ثلاثة عشر عامًا،

ولكن لم يوافق على هذا من بيدهم الأمر، وأجلسوا على عرش السلطنة مصطفى الأول[٦٤] أخي أحمد الأول، وأخرجوه من مَحْبَسه على الرغم من أنه لا يَجُوز شرعًا خِلافة المَجْنون.

وعلى الرغم من خفة عقل السلطان، إلاَّ أنه قد ظهر على الساحة في الحال. وأشاع آغا البنات مصطفى آغا هذا الأمر في كل مكان، كان مصطفى آغا هو الآمِر المستقل بالسراي في عصر أحمد الأول ؛ فقد فرض سيطرته على كل الأمور وعلى أركان الدولة وجميع رجال السراي تحت إمرته، والجميع منقادون لأوامره خاضعون لكلامه. أثار جنون السلطان حمية آغا البنات، فما لبث أن ظهر هذا الجنون علنًا أمام الملأ بعد أن عرفه من في السراي : كان السلطان مصطفى يتجول في المقابر، ويلقي بالذهب للأسماك في البحر. ورأى العالم بأسره ما يفعله، فأدركت الملايين، فيما بعد، أنه لا يمكن أن يحكم الشعب مجنون من الحكام العثمانيين.

كان آغا البنات مصطفى آغا هو "سند الجمهور ومدير أموره "في عهد (أحمد الأول)، وكان يقول:

- لو بقي في الحكم فترة من الوقت، فمما لا شك فيه أنه سوف يلْقي بالدنانير في البحر وفي الصحراء وفي الأماكن المجهولة، وسوف تَنْفذ كل ما في الخزينة العامرة.

كان هذا الرأى صائبًا، عندئذ أرسل (مصطفى آغا) إلى شَيْخ الإسلام (أسعد أفندى) وإلى القائمقام (صوفى محمد باشا)، يخطرهما بقوله:

– لقد علم الخلق بما آل إليه حال السلطان، وذاع أمره، ولم يعد من الممكن ستر حاله بالتهذيب والمُواراة، وإذا أهمل هذا الموضوع، فلن يُؤدى هذا الأمر إلا إلى خراب الخزينة والشعور بالندامة على ذلك بالتاكيد. ومن ثم لا بد من الاهتمام بضرورة الالتزام بما هو أولى القيام به.

ومن الغريب أن علماء العصر ومشايخهم، يحملون كلام آغا البنات هذا على مخاوفه من إضعاف نفوذه، فأخبروا الوالدة سلطانة قائلين:

– إن تنحى هذا الآغا عن در السعادة لهو نَفْع عظيم.

غير أن (مصطفى آغا) كان فَصيحًا، فغلبهم ببيانه وبلاغته. وفى النهاية خدعهم تمامًا. فقد أرسل إلى العلماء والأعيان يخطرهم بقوله:

– لقد تهيأ السلطان لقتل جميع الأمراء، ولسَوف يتسبب فى انْقِراض نسل العثمانيين، ويُوَجَّه مناصبكم إلى الدونيين إن سمحتم وأذعنتم بهذا الأمر.

إن اعتلاء مجنون عرش العثمانيين، وحكم مختل لإمبراطورية عظيمة لم يكن مَحْظورًا فى نظر العلماء على الإطلاق، ولكن ما إن

سمعوا بواقعة تنحيهم عن مناصبهم، حتى "بلغت قلوبهم الحناجر". فخلع في الحال مصطفى الأول، وكان قد رأى الدنيا ثلاثة أشهر وعشرة أيام، ورجع مرةً أخرى إلى وَضْعه السابق، وأغلق آغا البنات مصطفى آغا، الباب على السلطان مصطفى، وأوْصَده بالأقفال، وعلى هذا النحو، خلع السلطان من السَّراى، وأنقذ الدولة من طامة كبرى.

ظل آغا البنات مصطفى آغا موفقًا ثلاثة أعوام فحسب. ثم تولى على باشا الصدارة عام ١٠٢٩هـ. وكانت أولى مهامه هى جَمْع المال، وسلب أموال الأغنياء. وكان يقدِّم ما عليه من حقوق ويرسل المال باستمرار إلى السلطان. ولم يكن على باشا يستطيع أن يخلع آغا البنات؛ فقد كان يخشاه لكيلا يُظْهِر ما يأخذه من رشاوى وما يرتكبه من مظالم. هذا فضلاً عن كون آغا البنات هو ولى نعمته، وحاميه الوحيد عند السلطان. غير أن (على باشا) لم يكن يدقق النظر فى هذا الأمر، واستطاع أن يقوم بعمل أى شىء بعد أن ملأ كفى السلطان بالمال الوفير. وقام بمُصَادَرة جميع أموال آغا البنات (مصطفى آغا). ولقد ضحى السلطان العثمانى (گنج عثمان)[٦٥] بالآغا الموظف الذى كان سببًا فى اعتلائه العرش، وأدى حبه للمال إلى أن يُصادق وزيرًا محتالاً، وينفى آغا البنات إلى مصر.

حذا السلطان العثمانى (گنج عثمان) حذو خطوات أجداده، وأمر بقتل أخِيه الأمِير "محمد" بدون وجه حق. ولم يكن يعتمد على الهدايا والرشاوى. وتولى (سليمان آغا) منصب آغا البنات، وكان زِنْجِيًا جاهلاً.

عندما قامت الحرب مع بلونيا عام (١٠٣٠هـ) ، حضرالدباغ محمد باشا للمثول أمام السلطان لتقديم المعلومات عن أحوال الثغور، وكان آغا البنات سليمان آغا حاضراً آنذاك، فوجه إليه بعض الأسئلة التى دارت فى عقله. فقد سأله قائلاً على سبيل المثال:

- هل سوف يَقف ملك بولونيا ضد السلطان، وهل يَسْتطيع ذلك؟

فأجابه الباشا:

- فلنستعد نحن إن هو حضر، وإن لم يأت فالحظ حليف السلطان.

تضايق آغا البنات من هذا الرد:

- نحن نعلم أنك من أهل العلم، وأنك لجاهل بالعالم، فَمَنْ يكون ملك بولونيا هذا الكَلب، حتى يقف ضد السلطان العثمانى، مهما كان وضع جيشه؟

- لا يصح أن نَسْتَحقر العدو ونهينه، فجميع الكفار هم بمثابة أمة واحدة، فالنمسا والقازاق والمجر، بل وإسبانيا والفرنجة والبابا وغيرهم يَمِدُّون بعضهم بالجند، والبعض الآخر بالمال، وهم يراعون قانون الدين فيما بينهم.

أثار هذا الرد غُرور "حَضْرَة الزنجى"، فقال:

- ما فائدة أن نخشى ونحتاط أمثال هؤلاء المعتوهين البلهاء؟

ومنذ ذلك التَّاريخ أشاح بِوَجْهه عن الباشا.

وفى النهاية خضع (كنج عثمان) لجَهل الناصحِين، فبرزت الكوارث بكل فواجعها، وكانت الفرص تفوت الواحدة تلو الأخرى، واعتبر سليمان آغا (آغا البنات) أحد المَدْعومِين بالحُجَّة لدى السلطان. وفى الحقيقة، ما إن برزت رأس العصيان والتمرد، حتى كانت هذه المطالب التى تفوهت بها طائفة المماليك هى:

- لا تطالب طائفة الجنود بتنحى السلطان عن الأناضول، ولكن تطالب بنفى خواجه أفندى وآغا در السعادة

فرد السلطان العُثمانى (كنج عثمان) قائلاً:

- هذا هراء. إننى قد صَرفت النظر عن الذهاب إلى الكعبة، ولكنى لن أخْلَعهما من منصبَيْهما.

وهذا يبين أن "خَلِيفة المسلمين "متمسك بالمحافظة على آغا البنات أكثر من حرصه على زيارة الكعبة. ومع ذلك، فقد رأى جزاء صداقته بحق، فقد كان الجميع يعلم أن أصابع آغا البنات بارزة فى القَضِيَّة، وأن آغا البنات قد أضر طائفة الجنود ضرراً عظيمًا، فلقد تسبب آغا البنات فى الحيلولة دون أن يحصل الكثيرون على أرزاقهم "ومنهم (قوريجى) و(اوتراق).

كان العصيان مريعًا. فقد ظلت"الجُنود تتماوج مثل البَحْر فى الميادين، وهم يطلقون صَيْحاتهم"وكانوا يرددون هذه الجملة بين صَيْحاتهم:

- نريد آغا در السعادة والخَواجه!

وفى النهاية أخرجوا (مصطفى الأول) من مَحْبَسه. وجعلوا المُفتى يَمْتطى حصانًا، وكان لا يَستطيع أن يَتَماسك نفسه فوق الحصان، فيُعِيدونَه مرةً أخرى، ثم أجلسوه فى غرفة العرض.

أدرك السلطان العثمانى خُطورَة الكارثة. فأخْرج أركان السَّراى آغا البنات من الباب، وأوصدوا الأبواب خلفه، وما إن رأى الانْكِشاريون سليمان آغا، (حتى مزقوه كل ممزق بالرِّماح والفؤوس). وأحْضروا جُثته إلى (آت ميدانى)(٦٦) وتركوها. وأخيراً قالوا:

– نحن قد عثرنا على ما نُريد، وقد كان من الأولى قتل سلطاننا كذلك، فلنقتله.

فقاموا بالقبض على السلطان (كنج عثمان)، وقتلوه أبشع قتلةٍ فى "يدى قوله(٦٧)". ولم تكن هذه الكوارث قد أنقذت آغا البنات سليمان آغا كذلك، وبلغت عداوة الانكشاريين للسلطان حداً جعلتهم يحضرون والدته ويقطعون أذنيها من أجل أن تكون وساماً لرئيس مَدْفعية الانكشارية.

تولى السلطان الجديد (مصطفى الأول) الحكم. ومعروفة أحوال السلطان وطبائعه. ولم تكن أحوال أركان الدولة وعلماؤها مختلفة عن حال السلطان، فأحيانًا يتم قتل من أمر بقتل السلطان العثمانى الشاب، وأحيانًا يستمر عِصْيان العلماء بِضْعَة أيام، مما أضفى مظهراً مضحكًا، أما الأناضول فقد ظلت على حالها السابِق، وبقيت فى صراع أشد

حقيقةً مع استانْبول والحكم العثمانى. كانت (الروم إيلى[٦٨]) خاضعة دائمًا للقُضَاة والبكلربكيين المبعوثين لحكم إيالاتها. غير أنها كانت بعيدة عن الظُّلم والحَقارَة التى عانى منها شعب الأناضول. لقد بلغت درجة عداوة الأناضول لاستانبول والانْكِشارِية، إلى حد أنهم أدخلوا المَسامِير فى أخْمَص قدمى أحد الإنكشارية الذى تم القبض عليه. ومثلما كانت المَصْلَحة والرشوة والعِصْيان هى الحاكِمة على عرش الإمبراطورية العثمانية، كان الجُوع والرَّذيلة أيضًا هما الحاكمون على الأناضول. ولم ينقاد الباشاوات وأولو الجاه والقوة الذين جمعوا حولهم شعب الأناضول، لاستانبول ولا للحكم العثمانى.

استمر حكم مصطفى الأول على هذا الوضع. وكان الشُّيوخ فى المساجد يتحدثون عن جنون السلطان. كانت أعين مجموع الشعب الساذج والجاهل تفيض بالدموع. ولم يكن جهل القسم الأعظم من شعب استانبول وسذاجته بأقل مما هى عليه لدى السلاطين. فقد (أُقِيمت خانقاه)[٦٩] للمَوْلَوِية داخل بستان أحد مشاهير فرقة الانكشارية وهو (قَرَه خَواجِه أيوب). وقد ارتفع البناء فوق أعمدة لا أساس لها، وكان من الطبيعى أن ينهدم.. وفَسَّر الخلق هذا الوضع بانقطاع روحانية أبى أيوب الأنصارى".

ولم يكن أحد منهم يعرف من هو أبو أيوب الأنصارى، ولا أين دفن؟

الخُلاَصة أن عصر السلطان مصطفى الأول قد استَمر بشكل يمكن تحمله. وفى النهاية اتضح بطريقة أو بأخرى "أن حِفظ البلاد وحَال أمور

العباد يحتاج إلى خليفة عاقل". فانتقل العرش عام (١٠٣٢هـ) إلى (مُراد الرابع)[٧٠] وهو لا يزال شابًا، ومن أمراء السلطان (أحمد الأول). وقد بدأ نفوذ امرأة جديدة يطل آنذاك فى السراى: وهى كُوسَمْ ماه بَيْكر سلطانة.

كان (على باشا) الوزير الأعظم للسلطان (مراد الرابع) عازفًا للكمان. ونظرًا لصغر سن السلطان، فقد شرع فى حكم الدولة منفردًا بنفسه ؛ وكان مُرْتَشيًا وجَشِعًا، وقد ثار على شيخ الإسلام يحى أفندى : لأنه قدَّم إليه النَّصِيحة عندما هنأه بقدوم العيد، بأن يترك الرُّشْوة، ولكنه استمر فى أخذ الرشوة، وأخذ يعزل خُصومه الواحد تلو الآخر. وكان منصب آغا البنات هو الأهْم بالنسبة إليه. وأراد أن يَسْتقدم مصطفى آغا – المنفى إلى مصر حينذاك – لتَعْيِينه فى هذا المنصب. ومن ثم أمر بكتابة تقرير عن هذا الموضوع، فى حين اعترض رئيس القلم (قبا صاقال على آغا) قائلاً:

– لماذا تَسْتقدم مصطفى آغا ؟ وأنت تَعلم بانْفراده بنفسه وتعاليه بمنصبه قبل ذلك، وهو لن يكون مطيعًا لك، ولن يَصْغى لكلامك. فَمَنْ اعتاد عزل ما يشاء من الوزراء وتَعْيينَهم، لن يَخْشاك. ومن المؤكد وقوع المُنافسة بينكما تَدْريجيًا، ولسوف يَبْغَضك ويَسعى إلى إعدامك.

أصر الباشا. واستْقدَم مصطفى آغا من مصر، وولاه منصب آغا البنات، ولم يكد يتولى الأغَوِيَّة، حتى اتفق مع أعداء (على باشا)، وحاولوا إعْدامه، وهو فى الواقع يستحق ذلك.

لم يُفارق آغا البنات مصطفى آغا عَيْنَيّ (كُوسم سلطانة). كان كلاهما بنفس القَدْر من الذكاء والطبيعة، وبناءً على هذا تمكنا سويًا من إدارة السَّراى، ومعهم السلطان، غير أنه لم تعد الأمور فى حاجة إليهما؛ إذ أنه بمجرد اعتلاء مُراد الرابع عَرْش الدولة، تصرف كما يَحْلو له، ولم يكن ضَعيفًا بهذه الدَّرَجة أمام النساء، وكان يُشْبِع نفسه بلذة "الخَمْر وجَمال المَعْشوق". ولهذا لم يكن آغا البنات وَسيلة تَجْذب السلطان ويَخْضع لها فى السراى، لم تكن السَّراى قد عانت من قَسْوَة مُراد الرابع وظُلْمَه فَحسب، بل ساد الرُّعْب والفَزَع استانبول أيضًا : فقد مَنَع شُرْب وَرَق الدُّخان، الذى يُطْلَق عليه فى اللُّغة التركية اسم الـ(توتون). كان الشعب يئن من ظُلْم السلطان، وعلى الرَّغم من ذلك كانت الأناضول تلتف حول أولى البَأْس والقوة مثل (إلهى بك) و(طاغلر دليسى) وهم يتبارون فى مواجهة (مُراد الرابع).

وفى النهاية أظهرت (كُوَسْم سلطان) أول مظاهر نُفوذها، وصارت السبب الأول فى قتل شيخ الإسلام فى تاريخ العثمانيين، فقد أخْبَر خُصوم شيخ الإسلام أخى زاده حسين أفندى، الوالدة سلطانة، قائلين:

– يا للعجب، فلنُخْبر السلطان، لقد كوَّن المفتى جَمْعِيةً، واتَفَق مع العلماء، وإن بقى على ما هو عليه فلن يكون سوى ذئبًا".

كان مراد الرابع فى ذلك الوقت فى نواحى (إيزنيق)، ويُعد كل ما قِيل فى حق المُفْتِى هو مَحْض افْتراء وبُهتان. غير أن (أخى زاده) قد علم بأن السلطان قد أمر بإعدام قاضى إيزنيق، فأرسل تقريرًا للوالدة

سلطانة بأسلوب لا يمكن أن يليق بمثل هذا الوضع. وقد أثار الخبر الذى أعقب هذا التقرير، شكوك الوالدة سلطانة حوله. وفى الحال أخبرت كوسم سلطان ابنها بالمَوْضُوع. فرجع مراد الرابع إلى استانبول، وقتل أخى زاده حسين أفندى بأيدى عَسْكر السَّراى.

مضى عهد مراد الرابع فى أعمال قَتْل متتالية، ولقد أرهبت سياسة التَخْوِيف التى اتبعها السلطان الشعب، وسلبت كذلك نفوذ المَرأة تمامًا، وأخيرًا تُوفى مراد الرابع نَفْسه فى الغَرْفة التى أمر فِيها بَخَنْق أَخِيه الأمير قاسم، وكان يُعانى من أمراض إدْمان الشرب وعِرْق النسا ووجَع المفاصل.

استطاع آغا البنات مصطفى آغا من أن يبْقى فى عهده ثَمانِية أشهر فحسب، وتوفى أيضًا عام (١٠٢٢هـ)، وقد تمكن ريحان آغا من أن يَتولى آغَوِيَّة البنات قبله بسنة واحدة. وعند وفاته تولى آغوية البنات كل من "إدريس آغا "و "إبراهيم آغا لمدة عام واحد، ولكن لم يستطع أى منهما أن يَبْسط نفوذه مثل أسلافه على الإطلاق. فلم يكن مراد الرابع على علاقة بِحِيل النساء ومكائدِهم مطلقًا، ولم يصغ لنَصِيحة أحد، ولم يَحْتاج لوصاية أحد أيضًا، وبناءً على ذلك لم تكن الظروف المُحِيطة بالسراى تَسْمح بإظهار نفوذ آغا البنات. وعند وفاة مراد الرابع وجلوس السلطان إبراهيم(٧٢) على العرش من بعده، أطلت رأس المَرْأة ونفوذها سواءً فى السَّراى أو فى إدارة الدولة، فى الوقت الذى سمحت فيه الظروف لاستمرارية سيطرة آغا البنات سُنْبل آغا.

(٢)

بينما كانت جُثّة مراد الرابع مُسْجاة، ومُغَطاة فى غرفة من غرف السراى الجديدة العامرة، إذا بالمنادِيين يُنادون فى الشوارع بفرح وحبور:

- تَولى حكم الدَّولة والمَمْلكة السُّلْطان إبراهيم!

وفى السَّراى، كانت (كُوسَم سلطانة) فرحة لتخلصها من ظُلم (مراد الرابع)، وفى الحقيقة لم يكن هنالك ما يمنع فرحتها. أما السلطان (إبراهيم) فقد كانت عظامه ستبلى منذ فَتْرةَ تحت الثرى، غير أن السلطان إبراهيم قد تغلب على مهالك عظيمة. فحينما أمر (مراد الرابع) بتشييد قَصْرِيْه (بَغْداد) و(رَوان) عام (١٠٤٩ هـ)، كُتبت هذه الآية - التى نزلت فى حق سيدنا إبراهيم عليه السلام - بين الآيات التى كانَت منقوشة على الحَوائط السَماوية اللَّون والمَزَيَّنة بحسان البلاطات القيشانية الصينية، وهى (وإذْ يَرْفَع إبراهيم...). ولله الحمد أن (مُراد الرابع) لم يكن يُدركَ معناها، ولو أدرك أنها تُشِير إلى جلوس أَخيه إبراهيم على العرش من بعده، لكان قد قَتل الأمِير إبراهيم فى لحْظَته، وأنهى بقتله حينذاك الحكم العثمانى تماماً.

تولى السلطان إبراهيم العرش بعد أن خَرج من مَحْبَسه، متغلباً على مخاطر جسام دون أن يدرى بها، ولكنه لم يكن بحال يُمَكِّنه من إدراك

أى شىء: فقد كان فاقد الحس ؛ وأثَّر الخَوف على حَياته، والفَتْرة التى قضاها فى حَبْسه، على قواه العقلية تأثيرًا تامًا، وحال ضعف بدنه دون أن يُخْلِف له ذريةً. كانت الوالدة كُوسَم سلطانة تُفَكِّر مليًا فى البحث عن علاج له فى البداية، فوكلت آغا البنات سُنْبل آغا بهذه المهمة.

استمرت آغوية سُنْبل آغا أربَع سنوات (١٠٥٠: ١٠٥٤هـ)، وكان شاهدًا خلال هذه الفترة على العَديد من وقائِع القَتْل والحَوادث المُريعَة، ففى البداية: قُتل الأمير (كونه اوغلو) – وهو أخو نديم السلطان (مراد الرابع) "فوجوده غير ضرورى". واستُقْدم ابنه (قنَه) حاكِم إقْليم (تَكَه)، بدسيسة إلى استانبول، وتم شَنْقه فى دكان قَصَّاب بسوق "آيا صوفيه". وتَم خَنقْ (السلحدار باشا) – وهو بكلربك (طَمْشوَار) ويعد من أكثر رجال الحَرَم الهُمايُونى حظوةً – فى قَلْعة "طَمْشوَار "وذلك بسبب حيل الصدر الأعظم (قَرَه مصطفى باشا الأرناؤوطى)، بل ولقى نَفْس المصير أحد خادِمى السَّراى والمُكَلَّف بحِمايَته. وكذلك صدر الأمر بقتل نصوح باشا زاده: "وتُركت رَقَبَته المَقْطوعة أمام باب السَّراى العامرة" وجُزَّت رقبة (ذو الفقار باشا) وهو من مُؤَيِّديه. وأخيرًا أسلم الروح الوزير الأعظم (قَرَه مصطفى باشا) مَشْنُوقًا بحَبْل الجَلاد (قَرَه على)[٧٢] فى سُوق (خواجه باشا). والمَقْتولون الآخَرون خلال هذه الفترة هم: (القَبُودان بياله باشا)، و(نَرْخَچى حَسن أفندى)، و(إسلام باشا)، و(مَقْصود باشا)... وكانت السَّراى وقت حدوث أعمال القتل هذه، مُنْغَمِسَة فى المَلَّذات والطرب.

تعد الوالدة كُوسَم سلطانة من أهم السَّيدات فى السَّراى، أما رئيسة الخاصكية فهى (تَرْخَان سلطانة). و(كُوسَم سلطان) هى ابْنَة قسيس رومى، أما (تَرْخان سلطان) فأصلها بُولَنْدى. والسيدات الأخـريات ذوات النُفوذ فى السَّراى، فهن الجَوارى اللاتى كانت الوالدة سلطانة تَجْلِبهن لحُسْنِهن ومهاراتِهن، مثل (خُوبْيار، وشَكَرْبارَه، وصاچ ياغى).

كان السلطان إبراهيم ضَعيفًا جراء فَتْرة حبسه الأليمة التى قَضَاها فى غُرْفة مظلمة بالسَّراى، فَضْلاً عن ضعف عقله، وكان يُعانى من "الخَفَقان والسَّهر وشىء من الإكتئاب". ولم يستطع أمهر أطباء السراى أن يَجِدوا له عِلاجًا، فكانت الوالدة سلطانة فى حيرة من أمرها. وقد أشار مُوظفو السراى إلى أن شفائه من هذه الأمْراض يكون بالقراءة عليه ورقْيه بالبخور، ولن يُجْدى معه علاج الأطباء نفعًا. وكان بعضًا من المُعَلِّمين يداومون على زيارة السلطان، ومن الغَرِيب أنه ما إن يَتم القراءة على السلطان، حتى يَشْعر به فيهمهم قليلاً، وقد تسببُ مرض السلطان إبراهيم هذا فى تفشى مرض مُخِيف أيضًا بين رجال السَّراى وأركان الدولة.

كان (جِينجى خواجه) مداومًا على الدِّراسة، ويعيش معدمًا فى مدارس "جنى حسين أفندى"، وما لبث أن صَار بعد زيارته للسلطان، مُدَرِّسًا فى مَدارس (الخارج) و(الصَّحْن) و(السُلَيْمَانية)، ثم تولى بعد

قليل قضـاء (غَلَطه). وفى النهاية أنعم عليه بدرجة الأُستَاذِية، وكان قد أصدر أوامره بِتَشْيِيد السرايات والقصور مما أثار حِيرة العامة. كان شَعْب استانبول فى الحقيقة ضعيفًا أمام النفوذ والسلطة، فما أن يبرز شَخْص ثَرِى مُقْتدر، حتى يقــوموا له والهين راكعــين له فى الحال، ويقف الراجُون حَوْله أفواجًا أفواجًا. كان جينجى خواجه ذا حظ عظيم، فقد شرع فى جمع الثروة مُنْتَهِزًا هذه الفرصة، وقد كان لَقَّبه الرسمى فى السراى (الدَّاعى حسين أفندى)، ولقبه الأهالى بـ(جنجى خواجه)، وفى فترةٍ وَجِيزة عُيِّن صــدراً للأناضول، وعُهد إليــه أراضى الشَّعِير فى (غَلَطه)، ولكن أسمى مَنْصب تَولاه هو تَعْيِينه أستاذًا لدى السلطان. اعتلى (جنجى خواجه) أسمى المنَاصب فى المَراسم، فقد كان الوَزِير الأعظم يقف - على سبيل المثال - يَمِين المِحْراب فى المَوالد، ويقف على اليَسار معلم السلطان وحاكم الأناضول (جِنْجِى خَواجه). صار شَيْخ الإسلام يَتَمَلَّقه، وصار هو المقرىء أيضًا فى أى مَوْلد بجامع السلطان أحْمد، وكان السلطان يُغْدِق على شيخ الإسلام و(الخواجه) إغداقًا شديداً، حتى أنه وضع أمام شيخ الإسلام وجنجى خواجه مَبْخَرة مُرَصَّعة بالجَواهر الفواحة بروائح العَنْبر. كان جميع فُضلاء العَصر يَقِفون دون (خَواجه حُسين أفندى). ولقد تضايق (معيد أحمد أفندى) من هذا، وناقش (كَتْخُداه) الوزير الأعظم (محمد باشا) حول هذه المسألة، فأجابه قائلاً:

- علاج هذا الداء هو تولية المشيخة والإفتاء.

امتن كثيراً (مُعيد أحمد أفندى) بسَماع هذا الكلام من الوَزِير الأعْظم، وقدم سَبْعين صُرَّه من القروش كَرَشْوة لينال المَشْيَخة، غير أن الباشا كان يماطلَه قائلاً اليوم وغداً، بعد أن وَضع هذه النقود فى جَيْبِه، وعندما عُزِل الوَزِير الأعظم، عاش على حُلْم المَشْيَخة.

فى الحَقِيقة، كان الجَمِيع يَحْسد ثَراء هذا الخواجه، وعلى الرغم من هذا، فقد حَظِى المُؤيدون له بأرفع الدَّرجات والمَناصب.

وبينما كانت السَّراى غارقة فى بَيْع جميع المناصب بواسطة النساء والمُشَعوذين، كان الشَّعب يَرْزَخ تحت مجاهل الظلم. ضجت مَنْطِقَتى "قرق كليسا" و"چاتالجه" بالأشقياء واللصوص الذين كانوا يَشْوُن أصْحاب المَزَارِع الأغْنِياء بالأسياخ، ويقومون بِكَى زوجاتهم فَوقْ صِينِية من النحاس الساخن، ويستخرجون أموالهم المَخْفِية، ويتنافسون على الحصول على اللآلئ والمُجَوْهَرات، وهم يَغْرِسون نِعال الحصان فى ثَدْى بناتهم أيضاً. أما جَمِيع رجال الدَّولة، ويَنضم إليهم أيضاً شيخ الإسلام فكانوا يتملقون أرْكان السَّراى ويَعْمَلون على تأمين ثَرَواتِهم ومَنْصِبهم. ولم يَعُد للعلم والفَضْل أية قيمة: فالرِّياء والمُدَاهَنة والدسائس والافتراء وأعْمال السُّوء والتذلل هى من الوسائل الأكْثَر قُبولاً لضمان حياة مُرَفَّهة.

كان هنالك فى السَّراى طواشى مَأْجُور يُدْعَى (إبراهيم آغا)، بلَغ من الكِبَر عتياً، وقد تم نفيه إلى مصر، فصار يُقَدِّم المحاضر ويَعْرِض شَكَاوى أهالى مصر جراء الضرائب الباهظة التى أثقلت عليهم،

ويَرْسلونها معه إلى استانبول. وخاصةً شكاواهم ضد الوَزِير الأعْظَم. ولكن المؤيدين لآغا البنات سُنْبل آغا كانوا يَشْرَحون فى الحال للسلطان إبراهيم شيئًا آخر، قائلين له:

– إن الوزير الأعظم قد أحْضَر المَذكور ليكون آغا در السعادة، وهو يُريد أن يُهَيْمِن على كل مُجْرَيات الأمور بالداخل.

فى الحقيقة كان آغا البنات سُنْبل آغا مسيطرًا على كل ما يَجْرِى داخِل السراى، خاصةً وأنه كان مقربًا جدًا من السُلْطان إبراهيم. وكانت السَّراى تَعج بالخاصكية والجَوارى. ولم تكن الوالدة (كُوسَم سلطانة) هى الوَحِيدة التى كانت تُفَكِّر فى أمر خِلاَفة السلطان إبراهيم بالذُّرِيَّة، فما إن جَلَس السلطان إبراهيم على العرش، حتى أرسل جميع أركان الدولة هَداياهم مِنْ الجَوارى الحسان.

أصيب السلطان إبراهيم بالذهول عندما رأى نفسه بين الحِسَان فجأةً بعد أن خرج من مَحْبَسه. وقد توالى قدوم الأمراء الواحد تلو الآخر على أثر زيارة (جِنْجِى خواجه) التى كشفت عن القوة البدنية للسلطان، وكان أول الأمراء هو الأمير محمد صَيَّاد المستقبل.

انتهز آغا البنات سُنْبل آغا قدوم الأمير محمد إلى الدُّنيا ليجعلها وَسِيلة جَدِيدة للاسْتِعْباد، فقد اشترى (سُنْبل آغا) جارِيةً للسلطان عام جُلوسِه فى الحكم، وكان يظن جارِيته بكرًا، فإذا بها تلد بعد فَتْرةٍ من

الوقت طفلاً، ثم اختيرت مُرْضِعة للأمير محمد، وقد أُعْجِب بها السلطان إبراهيم إعْجابًا شديداً، فبدأ يحب طفل المرأة مَجْهول الأب أكثر من ابنه وكانت (تَرْخان سلطانة) تَشْعر بالغِيرة الشَّدِيدة، وصارت تُعادى (سُنْبل آغا) والجَارِية أيضًا.

وذات يوم، رأت السلطان إبراهيم فى الحَدِيقة يُلاطف طفل تلك المُرْضِعَة. فطغى عليها إحساس الأمُومة، ووجهت كلمات قاسِية للسلطان إبراهيم، الذى مكث قليلاً، ثم رَمَى الأمِير محمد فى الحوض، فكاد أن يموت.

وضعت هذه الحادِثة مَنْصب آغا البنات فى السَّراى فى إشكالية كَبِيرة جداً، وفى النهاية توجه إلى مصر مَع ولد الزنا، وحل مكانه(طاش يانر على آغا) الذى استُقْدِم من مصر عام (١٠٥٤هـ).

تَسبب رَحيل آغا البنات سُنْبل آغا إلى مصر فى حدوث حَوادث مُهِمَّة، فقد أُدْخِل فى سفينة (إبراهيم) القادِمة حينذاك من البَحْر الأسود، وشَحن فيها مَتاعه وأحْصِنَته وجَماعَته. وكان من المقرر أن يذهب إليها قاضى مَكَّة (محمد أفندى البُروسَّلى) فى مَأمورية أيضًا : فركب أيضًا هذه السفينة، وكان بها كثير من الأشخاص المُتَجِّهين إلى الحَج. وعلى كل حال كانت المَدافع فى ذلك الوقت يتم شحنها فى السُّفن التى تَقِل المسافرين إلى الحروب البَعِيدة. ويُعد البحر الأبيض منذ زمن طويل مهد القَراصِنة. ومن ثم تم شحنها بأربعة مَدافع، وللحفاظ على أمنها

ركب فيها عدد من الجُنود البَحَّارة. تحركت السفينة، غير أن قَراصِنة مالطة قد علموا فى الحال بأن هناك سَفينة مُتْرَعة بالمال خَرَجت للحرب، فتحصنوا فى جَزيرة كِريت، وكان من الطبيعى أن تمر السفينة من هذه الجزيرة التى لم تكن آنذاك خاضعة للعثمانيين. مرت السَّفينة التى ركب فيها سنبل آغا بجزيرة (رُودُوس)، وقد أحاطوا علمًا باستِعْداد قراصنة مالطة. قال الرودسيون لسنبل آغا "استريحوا بِضْعَة أيام فى هذا المرفأ"، استَصْوَب رئيس السَّفينة عقلانية هذا الرأى أيضًا : حيث قال:

"تلك السفن هى سفن ذات حُمُولة، وإذا أصابنا الوَهَن فسَوف يُدْركوننا، ولن يكتب لنا التوفيق فى الحرب : ونحن لا نملك معدات الحَرْب ولا جنود، فمن المَعْقول أن نَتأخر فى مرفأ رودوس بضعة أيام" غير أن آغا البنات سُنْبل آغا وقاضِى مكة قد أصرا مع المُتَّجِهين إلى الحج، على طَلَبهم بسُرْعة الوصول إلى مَوْسم الحج. تَحركت السفينة من رودوس، ودخلت مياه جزيرة كِريت، فقام قَراصِنة مالطة بمُحاصَرَتها من كل ناحية، ودخل الطرفان فى حَرْب مُرَوِّعة، استشهد فيها سُنْبل آغا ورَبَّان السَّفينة، وأسروا قاضى مكة ومحمد أفندى البروسلى، وابْتُلِي المنلا المسكين بضرر عظيم، فقد كان قد تَسبب فى ابتلاء قاضِى مَكَّة ابتلاءً عظيمًا، وقدَّم إلى جِنْجِي خواجه رُشْوَة خَمْسة آلاف قرش. عظمت خسائر السفينة، وأمْكَن إنقاذ ستون شخصًا فقط من ستمائة شخصًا. وكان ولد الزنا بين الأسْرَى أيضًا، وظن فوارِس مالطة هذا الطفل أَمِيرًا عُثْمانيًا،

وقد اشتهر ولد سنبل آغا السَّفاح هذا فى أوروبا فى العصور الأخيرة باسم (بادرو اوطومانو). وأصبحت أحصنة آغا البنات سنبل آغا، من نصيب (قنديه بك).

وما إن ذاعت هذه الوَاقعة فى اسْتانبول، حتى استَشاط السلُطان إبراهيم غَضَبًا، وصارت حادثة آغا البنات سببًا فى وقوع حرب (كريت) التى استمرت سنوات طويلة، وكان من الضرورى السَّيْطرة على الطَّرِيق المؤدى إلى البحر الأبيض، وخاصَّةً مصر، حتى يمكن فتح كريت. ولكن ما يَلْفت أنظار رجال عَهد السلطان إبراهيم أن هذه الحرب المُمِلَّة والطَّوِيلة شَبت بسبب أمور تخص عِزَّة نفس الأتراك أكثر منها أسباب عَسْكَرِية واقتصادية.

سيطر آغا البنات الجديد (طاش ياتر على آغا)، فى ذاك الوَقْت على السراى، وكانت مَهامه صعبَة، فقد زادت أعداد سَيِّدات السراى، وزادت سيطرة السيدات على السراى سَيْطرةً كَبِيرة، وعلى رأسهن:

(الوالدة ماه بَيْكر كُوسَم سلْطَانة)، و(تَرْخَان سُلْطَانة)، و(خَدِيجَة سلطانة)، و(شِيوَه كار قادِين)، و(شَكر بولى)، و(صاچ ياغى). وتوالى قدوم الأمراء الواحد تلو الآخر، ففى ذلك العام ولد أُمِير وكانت قد ولدت قبل سنتين ونصف سلطانة أيضًا، والتى تم زواجها فى الحال بيوسف باشا. وعمرت سراى إبراهيم باشا الكائن فى (آت ميدان)، وشيَّد أيضًا قَصْران، وكان قد تم إزالة مَشْرَبِيات المنازل المُشَيَّدة على الطُرُق التى سوف يُزْرَع فيها النخيل(*).

خلال هذه الفترة أرسلت العساكر والأساطيل أفْواجًا فى مَعْركة كرِيت، وبدأت الحرب تندلع فى كريت. أما فى السَّرأى فقد كانت الحروب والأفْرَاح مُستمرة على الدوام، وكانت المناصب والرُتَب تُباع وتُشْتَرىَ بنفوذ السيدات.

كان الخواجه أهم أركان الدولة. وبدأ السلطان إبراهيم يتعلم أدْعِية كَنْز العرش. ولم يكن الأتراك بسبب سَيْطرة الخواجه، يَهْتَمون حتى بلغتهم. فالأدْعِية التى يَعْرِفُونها كلها باللغة العربية : فكانوا يتبتلون إلى الله بلغة لا يفهمونها ولا حتى يعرفونها، ولكن انتشر التَّصَوف التركى حقيقة بين الشعب.

لم يطل زمن الفلاح كثيراً لآغا البنات (طاش ياتر آغا) :فقد تم عَزْله فى النهاية عام الحرب (١٠٥٥هـ)، وحل مَكانه (جلال إبراهيم آغا)، وقد شَغل هذا المَنْصب المهم حتى نهاية أيام السلطان إبراهيم، وكانت الأَغَوِيَّة فى زمنه قد شهدت تَرَدَّداً فى السَّراى ما لم تشهده من قبل، فقد ظهرت شخصيات جديدة، وخاصةً الخاصكيِة (تللى) التى أطْلِق عليها "هُماشَاه"، والتى سَيْطرت تمامًا على سَّراى السلطان إبْراهيم وعلى رَوْحه أيضًا. وأصْبَح العَزل والتَعْيين بأيدى جِنْجِى حسين أفندى والندماء فى السَّراى. وقد ارتقى (موسى آغا) كَتْخُدا (شَكَرْ پاره خَاتون)، إلى منصب أَغَوِيَّة الانكشارية، بل ألحقت الوزارة أيضًا إلى آغويته. ومُنِح حسين آغا البَلْطَجِى رئيس الحجاب وزوج السيدة (مقبوله خديجه)،

مخصصات بمبالغ كبيرة تقدر بست يوكًا. كانت السَّيِدة (خُوْبيار) مُنغمسة فى الملذات والطَرب، ولم يكن من الممكن أن يَنْقطع الخَمْر ليلة واحدة عن بيتها. ذات مرة، شب حَريق فى منزلها وكانت ثَملة، فلم تكن تعلم حتى بِوُقُوعه. وانْشَغل العُلَمَاء بسلب المَناصب ونَهْب المُخَصَّصات. وفى ذات الوقت ظلت الحَرب فى كِريت مُسْتعَرة باستمرار، واتخذت هذه الحرب ذريعة لازدياد النُفوذ والسَّيْطرة، وعندما وصل خبر الفتح، ازدادت ثروة الخواجه وعظم نُفُوَذه أيضًا.

كان الصدر الأعظم معارضًا لحرب "كريت"، وكان الخَواجه مُؤَيِّدًا لها، وما إن وصلت الأخبار بالهزيمة، حتى تقلص نُفوذ الخواجه، وعُزل حينذاك (الأرناؤدى مُحَمد أفندى) الذى اشترى مَنْصب أفندى الانْكِشارِيَّة بعشرة آلاف قرش قدمها لجِيْنجى خَواجه، وتم تعُيين غيره.

كانت (الوالدة كُوسَم سلْطانة) هى أكثر المدافعين عن (جنْجِى خواجه) والمنحازين له، وكانت تعمل على تخفيف حدة غَضَب السلطان إبراهيم وكَسْر جنُونَه. وهيمنت (شَكَر پاره) على جَمِيع سيدات السَّراى، وخُصص لإقامتها من السَّرايات التى أُغتصبت بالقوة، وكانت تَسْتطِيع برجاء واحد منها أن تمنح أكبر مناصب الدولة. فقد تمكنت من تعيين (برنچجى زاده) آغا الانْكِشارِيَّة، وظلت مُؤَيِّدةً له حتى نجحت فى أن تَلحق بالآغوية مَنْصبَىِّ الوزارة الثالثة والمُنادَمة فى السَّراى. وبناءً على ذلك يَحِق لِمَنْ يَرى آسفًا على تلك الأحوال أن يقول:

"بتَأْثِير الخَمْر صار صفار البيضة وكأنه نَجْم براق"

كـان المَحْظوظون بأرْفـع المناصب، يَنْتَسِبون إلى (جِنْجِى خَواجـه) و(شَكَر پاره) والنُدَمـاء ذوى النُفوذ أو من يَسْعَون لإسعادهم. وخلال هذه الفـتـرة التـى كـانت تُسـيطر على السَّراى غلبـة قـوى اللَّذّة والطّرَب من ناحيـة، وقُـوَى الجَشَع وجـمع الثَرْوَات لدى العُلَماء ورِجـال الدَّوْلة، ظلت أعـمال القـتل والجـزاءات مسـتمرة. فـقد قُتل فى ذاك الوقت القَپـودان والدامـاد (يُوسف باشـا)، والوَزِير الأعظم صـالِح باشـا، وأمـر السلطان إبراهيم بشنق القـپودان (يوسف باشـا)، ثم ندم على فعلتـه فيـما بعد، وكان حاضراً أثناء قتله، وقال:

- يا للجمـال، إن له وجنتـين مثل التُّفـاح الأحمر، ولكن يا للأسف فَقَد كُنْتُ ظالمًا بقتله.

وكان قد أمر أيضًا بإقالة الوزير الأعظم (صـالِح باشا) من الدِّيوان بسبب مصـادفته عربة تحمل علفًا، وهو فى طريقه إلى منطقة داود باشـا، ومتجـهًا إلى أحد الشـيوخ لكى يعالجـه بالقراءة، فأحضـروه إلى منزل الشيخ، وقاموا بشنق (صالح باشا) المَسْكِين بحَبل غليظ . وانهمك الجَيل الأخير الذى حافظت به كُوسَم السلطانة على استمرار الحكم العثمانى، بإفناء أطهر البـشـر فى غمـرة شـهواتهم وجنُونهم، ولم ينبرى أحـد من العلماء لتقديم النَّصيحـة إلى خَليفة المسلمين. وانغمس (جِنْجِى خواجـه) كالمعتاد فى البَيْع والشراء، واتفقت أمزجة حَضْرة آغا البنات مع مِزَاج السلطان (إبراهيم) وتناغمت طبائعهمـا تناغمًا قويًا، أما الوَزِير الأعْظم (أحمد باشا)، فهو الوَزِير الذى يلبى رَغَبات السلطان وأوامره.

استمرت حياة الطرب واللَّذَة في السَّراى، حتى أنه كانت أصْداء نَغَمات الطُبول لِتَعْلو على نِداء مُؤَذِنى آياصوفيه. كانت سَراى الخَليفة تَعيش حَياةً بَذَخ حَقيقية، فكان أحفاد عثمان بك المَجانين يعيشون حياة يَشْربون فيها الخَمْر ويَطْربون وهم جاهِلون بإدارة الدولة والمَمْلكة، وسط نساء روميَّات وأرْمينيات وبولَنْديات ومَجاريات وروس. "فالدولة والمملكة" يحكمها السلطان إبراهيم ! أما الملايين من رَعاياه لا يُمكن أن ينالوا حُقوقهم ولا حياتهم، وعلى شعب الأنَاضول أن يَعْمل لكي يُوفر المُخَصصات لخاصكية السلطان إبراهيم، وهو يعاني الجوع ونقص الدواء. وقبضت النساء على مقاليد الحكم والسلطة. "لقد تسبب ما كان يُؤخذ سنوياً لمخصصات خَمْس أو ست خاصكية للسلطان، ويبلغ قيمتها مائة ألف قرش، فضلاً عن الخَدم وتابِعيهم وسائِر أصْحاب البَذَخ في الداخِل والخارِج، في تعرض الخَزينة العامِرة لخَلَل في إيراداتها بسبب البذخ والإسْراف " . وكان التَّعْيين في الوظائف والمناصب تحت سيطرة النساء جَميعهن وشَفاعتهِن.

لم يكتف السلطان إبراهيم بما كان يُحيطه من أجمل النساء، فما إن يسمع بأن زوجة شخْص ما جَميلة، حتى يُبادر في طلبها ليتنعم بِحُسْنها وأحْضَانِها، بل إنه قام بإحضار زَوْجة أبْشير من سيواس، إلى قَصْره : مما كان سبباً في قِيام ثَوْرَة عِصْيان بالأناضول.

كانت جميع خاصكيات السلطان غَير مُتَزوِّجات. "فقد دأب العثمانيون على عدم عقد أى زواج لهن، ويعد وجودهن للتسرى فحسب" .

ذات مـرة "رغب السلطان إبراهيم فى أن يمـتلك إحـدى جـوارى الحَـرم السلطانـى بِنكاح شَـرْعى"، وأقـيم حَـفْل عُـرْس بَهِى فَـخِـيم، وكـان من الضَـرورِى أن يُقَـدِّم السلطـان هدايا للوزراء، فـأصـدر فـرمـانًا بمنح "كل منهم جَوارِى حَسْناوات مُرَصَّعات بالجواهر".

قَضت حدِيقة داود باشا ساعات متلألئة فى ذاك اليوم. وأحْضـرت إلى السَّراى العامِرة الجَوارِى الحَسْناوات وهن فى حُلل فَخْمة ومُرَصَّعات بالذَّهب والجَواهر. وكـان نصيب آغا البنات من تلك المنظومة عظيماً، فقد كان وَكِيـلاً للجَارِية فى النكاح، وكان الوزير الأعْظَم أحمد باشا وكِيـلاً للسلطان إبراهيم أيضًـا وأُهْدِيت لخـاصكيـة السلطانة الثـالثـة خـلال هذا العـام، عَـرَبة مرصـعـة بالمجوهرات، اتجـهت بهـا الخـاصـكيـة سلطان إلى (دَاود باشـا)، وقد احـتـشد أهـالى استانبول أفواجًا حتى بلغوا صحـارى (داود باشا) لرؤية العَرَبة.

أصبح السلطان إبراهيم عاجِزًا عن دَفْع المـال لخاصكياته وسيدات الكَتْخُدا وجَوارِيه، وفكر، وفى النهاية قرر إحْضار الألماس الذى كان أجداده قد أرسلوه إلى الرَوْضَة المطهرة. وصـا غ الخط الهمايونـى الصدر الأعظم بأسلوب براق : فقد بدأ "خليفة الأنام "الخط الهمايونى بقوله "أيها الوالى الأخْرَق الضخم مثل الفيل، أيها الوَغْد الدَيُّوث نو القِيافة الشَبِيهة بالبطيخ". وحذر أيضًا بعقابِهم إن لم يحضروا الألْماس، وحدد هـذا العـقـاب "فمن المؤكد أننى سوف أنْزَع أحْشاءه، وأفرغ فيه التبن".

كانت السَّراى حينذاك يُسيطر عليها نِساء أجْنَبِيات سَيْطرةً تامة، ولم تَشْهد سَراى العُثمانِيين حتى زمن الفاتِح، مثل نُفوذ هؤلاء النِّساء الأجْنَبِيات، فى حين لم يستطع أمراء بِيزَنْطة والصِّرْب أن يُؤثروا على إدارة الدولة تأثيرًا كبيرًا، مع أن أصول معظم الأمراء ينحدر من سلالة بنات أمراء أتراك الأناضول الشرفاء الأطهار. لقد كان الصَّدر الأعظم (مَحمد باشا) على حَق فى شكواه. فقد ضَجَّت السَّراى "بجوارى ناقِصات وهن بنات لأشْخَاص من الروس وبولَنْدا والَمجر والفِرنْك، ولم يشغل تفكيرهن سوى التَّحكم وجَمْع المال، كان المُسَيْطرون سواءً على السَّراى أو على الأتْراك كلهم، هم الأجانِب وليسوا الأتْرَاك. فقد هيمن على السلطان بَنات الرُّوم والأرْمن والبُولَنْدِيات والَمجَرِيات، وكذلك الزِنْجِى السُودانى وهو آغا البنات الذى تولى مهمة الرقيب. وعاش هؤلاء الأجانب كلهم داخل (در السَّعادة الشريفة) – وهو اسم إدارة الحرم – حياة لهو وطرب، مُتَلَهِفِين شَوْقًا للخلافة الإسلامية ولإيذاء الأتراك. وكان السلطان يكلف الغِلْمان العَجم والانكشارية الدَوْشِيرْمَه بالمحافظة على السَّراى والسَلْطَنة، فى حين أنهم قاموا بجمع ثرواتهم وتأمين مكانتهم وشراء ألْبِستهم المُزَيَّنة والمُرَصَّعة بِخِيُوط الفِضَّة، من نفقات شعوب الأناضول والروم إيلى المَنْكُوبة الذَلِيلة فى أيادى القضاة والولاة المرتشين والظالِمين، وكانت الأناضُول الوَحيدة التى قامت أحيانًا بثورات عِصْيان قَوية ضد ظلم السلطان وبذخه هذا. وكان يحق لَها القيام بهذه الثورات: (فقد كانت السناجق الخصبة والإيالات المُمتازة تُقَسَّم وتُوَزَّع بعضها

على النُدَمَاء والبعض الآخر على الخاصكيات والكَتْخُدا، وكان حكام الولايات والأمراء المشاهير غارقين فى ديونهم، يعانون الفُقَر والعوز، وفى حاجَة إلى طعام العِشاء، ويُقيمون فى السَّرايات الخَرِبَة وفى الزوايا والتكايا، ولقد صَدَق فيهم القائل:

(لقد تَحَوَّل أمراء السَّناجِق بحُكْم الزمان

إلى سَناجِق من الشَّحاذين)

أما العلماء الذين يشكلون الطَبَقة المُسْتَنيرة للدولة، فَمشْغُولون بِهَم المَناصِب وجمع الثَروات، وكان كل واحد منهم يَنْتسِب إلى إحدى خاصكيات السَّراى أو إلى امْرَأة الـ(چامْشيرجى). وأحياناً يَنْجح أحد مرتادو الدروس المَغْمُورون فى الحُصول على شُفْعَة من إحدى سَيِّدات الحرم، لكى يَتَولى مَوْلَوية طَرابلس، وإذا اعْتَرض شَيْخ الإسلام، يأمر الوَزِير الأعظم أحمد باشا بفَرَمان يَمْنَحه إياها فى الحال. وبمجرد أن تَرْغب السيدة المَسْئولة عن غَسِيل السراى، فى الزَّواج من صحاف شيخى زاده، تَحْصل على الفور لزَوْج المستقبل على مَوْلَوِية بروسه، وتُزَف بِجهاز تَتَكَفل به الدولة. وبينما استمر هذا الإسْراف والبذخ فى السراى، لم يتخلف عساكر الإيالة عن خوض معارك دامية فى كريد من أجل ازدياد رعايا السلطان إبراهيم، ولم يكن هنالك من أحد فى السَّراى من يَهْتم للصراخ الآتى من "كَرِيد". كان مضيق (چناق قلعه) قد أغْلَقه أسطول إيطاليا، وكان الباشاوات القواد يأمرون بإرسال العَساكر إلى

الأناضول باستمرار، وفى الوقت الذى كان السلطان إبراهيم يَتَلذذ بشُرْب الخمر والملذات منعماً بالطرب والنغمات بين الجوارى الحسان والخاصكيات فى السراى، كانت الرؤوس المَذْبوحة تُصْطف أمام الباب الهَمايونى[٧٣]، وهى مُرْتَدِية طرابِيش أَطْهر الخَلق.

أجبر شعب الأناضول على التجنيد فى "كريد "وهو مُساق مثل قَطِيع الغنم، ومن يبدى اعتراضًا على إرسال الجنود، يُرْسل هو نفسه إليها. لم ير التاريخ على الإطلاق مثل هذه الإدارة الظَالِمة. ولم يكن الصدر الأعظم (أحمد باشا) بأقل من السلطان إبراهيم نفسه فى ظُلْمه وجَبَروته، فبعد أن ابتلى صالح باشا بالنهاية المفجعة إثر الأمر الصادر من السلطان إبراهيم بشنقه بجبل غليظ، قرر الوزير الجشع بنزع عروقه، كما أصدر الأوامر بقطع رَقَبة أخيه مُرْتَضى باشا فى دِيار بكر، وكذلك الكَتْخُدا إبراهيم باشا فى بَغْداد، وقُدِّمت رأْسَيْهما بعظيم الاحترام إلى الوزير الأعظم، وأصْدر الأمر بقتل أخيه الآخر (ذوالفقار آغا) باستانبول، وصَادَر أمواله، وقام بنقل وظيفة ابن صالح باشا (محمد باشا) والى ارْضِروُم، إلى قَارص، وما أن وصل إليها حتى أَصدر فرمانًا شريفًا بقَتْله، وقام القبطان باشى صالح باشا بإلقاء نفسه فى البحر منتحرًا.

دامت حياة الطَرَب والملذات فى السراى، وازْدَادت أعمال القتل والحوادث المُفْجِعة فى الإيالات بشكل مستمر. كان (حيدر أوغلو) هو الوَحيد فى الأناضول الذى وقف ضد السلطان إبراهيم، وكانوا يَرْسلون

إليه بين الحين والآخر العساكر، وقد استفادوا من قوة آبازة ابشير لتحطيم شعب الأناضول، وأحيانًا لم يتوان عن ارتكاب أعمال الشنق والذبح لعشرة أو خمسة عشرة من شعب الأناضول فى شَوارع استانبول، ولا يتخلف عن إرسال من يعرف حيدر ومن لا يعرفه وكذلك من يلجأ إليه تائبًا، إلى قبضة السلطان إبراهيم وهو مقيد الذراعين مثل الأُضْحِية. ولم يشعر العلماء الراغبون فى اغتنام المخصصات من السراى، بأى إحساس أو أسى على الإطلاق عندما كانوا يعبرون بين هذه الرؤوس الدامية والمَذْبوحة الممتلىء بها الباب الهمايونى.

كانت هذه الجرائم فى نظر السلطان إبراهيم ووزرائه تُرتكب باسم الحكم، وبعد أن ضمن استمرار إدارة الدولة وحكم الإمبراطورية بدماء الثوريين وأرواحهم ضد الظلم والجور، كان من الضرورى أن تتزايد أيضًا ملَذات السلطان وتتوالى، والتى لم يكن السلطان إبراهيم مقصرًا قيد أنملة فى هذه الناحية.

فقد كثرت إقامة الأفْراح فى استانبول، وكان انتقال السلاطين وهم فى عمر سَنَتيْن أو ثلاثة، من شوارع استانبول يمثل مشهدًا غريبًا، وقد أقيمت لهم المراسم الفخمة والنخيل المزيّن الضخم.

ولكى يعيش حياةً مفعمةً بالأفراح على الدوام، لم يشأ السلطان إبراهيم أن يحرم الوزير الأعظم من هذه الحياة، فأمر الصدر الأعظم بتَطْلِيق زوجته، وزَوَّجَه إحدى بناته، وأجريت الاستعدادات على أكمل وجه

وصُنِعت النخيل من الفضة، وجمع الوزراء والعلماء فى السراى القديم، وانْعقد الزواج، وانتقلت العَروس إلى سَراى الوزير الأعظم بمَراسِم عَظِيمة، بينما اصطفت أمامها النخيل "فيما يشبه المَنَارة"، وقد زُيِّن بالذهب والفضة والمُجْوهَرات، وكان هذا العرس بمثابة وَسِيلة مَشْروعة انتهزها السلطان إبراهيم فرصة للاستمتاع بالطَرَب والمَلَذات، ضجت السراى الجديدة العامرة بأصوات النغم والخَمْر حتى الصباح، واستمرت الأفراح ثمانية عشرة يوماً بالتمام.

شعر السلطان إبراهيم بالملل من السَّراى الجديدة، ورغب الجلوس فى سراى إبراهيم باشا الكائِنة فِى (آت ميدانى)، بمَرافقة خاصكيته الثامنة التى تَزَوَّجها، فكان من الضرورى أن تُجهز السراى بالفرش: وقد تم إعدادها بالأموال التى أخذت قَهراً وغصبًا من الدكاكين والمَحْلات، وفرشت الغرف جميعها بفراء السَّمور والوشق، وبينما كان السلطان إبراهيم يرافق خاصكيته الثامنة فى غُرْفَته المَفْروشة بفِراء السمور، كانت السيدة (خُوبْيار) تُزف على الكتخدا إبراهيم أخى الصدر الأعظم.

كان الشعب، بل ومَنْ فى السراى فى حالة من الضيق بهذا الوَضْع، وكان من الطبيعى عدم استمرار هذه الحال مدةً طويلة، فقد كان كل ما حققته تركيا من فلاح شيئًا مؤقتًا، ولهذا السبب انْتَهز الفرصة كل من وفق فى أن يَتَولى منصبًا لكى يؤمن مَصلَحته الخاصة به أكثر من

القيام بخدمة الشعب. بناءً على ذلك: قال الكثيرون "لن يستمر طويلاً اختلال العالم بهذا الشكل" . وقال آخرون "من المؤكد ظهور شكل آخر".
ولكن لم يكن أعداء تركية بغافلين عندما ظهر "الشكّل الآخر"، فقد كان أملهم الوحيد أن يتهدم هذا البناء المُنْهار، وكان هناك فى أوروبا من عَرَف وأدرك أن الإدارة العثمانية كانت أيضًا فى قمة انْحِلالها، غير أن العَدَاء والغَيْرة وعدم الاتحاد فيما بين الدول قد حال دون تَكْوين قوة مُتَّفِقَة ومُتَّحِدة ضد تركيا.

بات من الضرورى علاج المَرْض الداخلى. فقد ابتليت إدارة السلطان إبراهيم بداء لم يحتمله الأتراك، حتى لقد بدأ أغَوات السراى يستحقرون الأجانب أحباء السلطان إبراهيم.

كان هناك عَرَبِى كان عند السلطان بمثابة قرة عينه (أى بمرتبة الـ(گوزده)[٧٤]، وكان يَخْرج معه وهو يحمل له المصباح فى الليالى، ولكن أراد (كتخدا الحجاب) أن يُبْعد العربى حسين آغا عن السلطان. فأبعده فترةً من الوقت، وذات يوم سأله السلطان إبراهيم:

– لماذا لم تظهر منذ فترة يا حاج محمد؟

– ينصرك الله يا سلطاننا، لا يَسْمح لى كتخدا الحجاب.

ولم يكد يسمع بذلك حتى عَزَل حسين آغا، وعين الحاج مَحمد كتخدا الحجاب فى غمضة عين.

وبينما كان السلطان إبراهيم مُنْغَمسًا فى الملذات والسرور، كانت زَوْجَة (واروار على باشا) تُصلَب وهى عاريةً تمامًا، وقد أحْرَقت الشُموع خِصْرها.

كان كل هذا الظلم بأمر من السلطان إبراهيم، وقد ابتلى (قاوانوز إبراهيم باشا) الذى قاد الجنود إلى الأناضول، بنهايةٍ مُفْجعة، فقد شُنق الباشا أولاً، ثم سُحل من "يَدى قوله "وحتى باب السراى وهو مُقَيَّد الأرجل، وترك فى النهاية أمام "عين السياسة "داخل السراى، وبقيت جثة الباشا هنالك أكثر من عشرة أيام، وتَعَفَّنت، وتأذى من رائحتها الجميع.

كان كل هذا الظلم والتعذيب بترتيب من السلطان إبراهيم وبأمر منه. وقد بلغ الظلم وانعدام الإدارة ذرْوته : فالحاكم هو السلطان إبراهيم المجرد من العقل ومن الأحاسيس، والمَجْبول على الظُلم والتعسف، والوزير الأعظم هو أحمد باشا الذى يعمل وفْقًا لهوى السلطان وملَذَّاته، وشيخ الإسلام هو عبد الرحيم الذى يغض البصر عن المَظالِم كُلِّها، غافلاً عن جميع البلايا التى تحط على عباد الله، وقاضى استانبول أيضًا هو مصلح الدين المعروف بـ"بقواد الغلمان". وما إن تولى مصلح الدين منصب قاضى استانبول، حتى أحرقت مؤخرته بالشمع، وصارت بطانةً للحمامات والدكاكين، وتفحم وجهه".

وفى النهاية، أسدلت الضَّرِيبة التى فَرضها السلطان على السَّمور والعَنْبر، سِتار الخاتمة على هذه الإدارة المُرِيعَة، وعلى حياتِه نفسها، فقد

بلغ من طَمع السلطان إبراهيم أنه كان يُجْبر حتى الغُزاة القادمين من حَرب كريد بدفع ضَرِيبَة السَّمور والعَنْبر. أخيراً وبسبب هذه الضريبة، لجأوا إلى فِرْقة الجنود المُشاة، وكان الجواب الذى قَدَّمه (قره مراد آغا) البطل فى حرب كريد، رداً على من قام بتبليغه بالضريبة: "قل للدفتردار أفندى، إننى جئتُ من كريد، ولم يكن هنالك من شيء على الإطْلاق سوى البارود المَصْقول والرَّصاص المَشْحون، ولم نكن قد سَمِعنا فى العالم ضريبة تسمى السَّمور والعَنْبر، وأنت تجمع المال ونحن ننفق ونشترى بالقرض، بلغه سلامنا، وقل له هذا".

لقد حوى هذا الرد تهديداً مروعًا، غير أن السلطان إبراهيم ووزيره لم يتمكنا مِن فَهْمه، فقد دمرت سياستهما الأغوات والشَّعب أيضًا بما صدر عنهما من ظلم وغصب لا يمكن تحمله، وعدم تحقيق ما يَرْغبونه من الأمانى، غير أنه نهض الشعب والأغوات ضد ظلم السلطان واستبداده، وقاموا بتمرد مروع استمر بضعة أيام بصورة مؤلمة.

كانت كُوسَم سلْطَانة قد أبدت ضجرها أيضًا من السلطان إبراهيم، فلم يعد لها أو لأغا البنات أى نفوذ على الإطلاق فى حقيقة الأمر. ولم تترك سيدات الـ(كتخدا قادين) فى السراى، وخاصةً (خوبيار قادين) لأغا البنات حرية التصرف فى أى أمر من الأمور أساسًا.

سعدت كُوسَم سلطانة بقِيام العصيان أيما سعادة، ولكنها لم تُصَرِح بذلك. وبدا العصيان كمقاومة خفيفة ظهرت ضد (مُصْلِح الدين)

و(قَرَه چلبى) اللذين اعتمدا على جنود المشاة وأبواب السراى، وفى النَّهاية قبل خلع السلطان إبراهيم، سلم ابنه (محمد الرابع) البالغ من العمر سبع سنوات، مقاليد الأمور للأغوات "وقد التفوا حوله كأربع وأربعين. أسعد الجلوس الجديد للأغوات العلماء اللاهثين وراء أمل التَّعْيِين فى المناصب. وحُبِس السلطان إبراهيم فى السراى بعد أن اعترته حالة من الجنون فترةً طويلة. وقُتل فى النهاية بإشارةٍ من شيخ الإسلام وأغوات الأوجاقلية (المعسكرات الإنكشارية)؛ خشية قيام المؤيدين له بثورة. استراح الشعب راحةً كبيرة. وصُودِرت جميع ثَرَوات جنجى خواجه، ومُزق الصَّدر الأعظم أحمد باشا ألف مُمَزق، وعين فى مقام الصدارة الصُوفى مَحمد باشا، أما آغا البنات جلالى إبراهيم فقد كانت كُوسَمْ سلطانة تَحْمِيه؛ ولهذا السبب حافَظ على مَنْصِبَه. فلم تزال المرأة هى المتحكمة فى السراى) من السراى؛ فقد حظى كثير من العلماء بمُخَصَّصات مهمة عن طريق أخوات السلاطين.

كان الصدر الأعظم فى حقيقة الأمر هو "الصُّوفى محمد باشا"، ولكن قبض آغوات الأوجاقلية على الأمور، وقد نَشأوا وتَربوا فى الدَوْشِيْرمَه، وتكونوا من الأرناؤد والبوشْنَاق، وكانوا يتحدون مع بَعْضهم البعض برابِطة عِرْقِيَّة واحدة، ويعد جنود المشاة السپاهيون وهم من بنى الترك "هم أَعْدَى أعداؤهم. كان السپاهيون هم أوْلاد السپاهيين أصْحاب التِيمارات والزَّعَامات، وكان السلطان يَخْمد ثَوَراتهم التى كانوا يقومون

بها باسم الحَق والعَدالة بسبب النُّقود المُزَيَّفة ومعاشاتهم مستعينًا بإنْكشاريَّة الديْوشيِرْمَه فى معظم الأحوال، وعلى الرغم من أن السلطان كان يُشَكِّل منهم الجزء الأعظم من الجيش ويضمن بهم وسيلة النصر الوحيدة؛ فقد كانوا لا يحبون على الإطلاق انكشارية السپاهيين.

لم يكد آغوات الأوجاقلية يَمْسِكون بزمام إدارة الدولة بأيديهم، حتى وجهوا أولى ضرباتهم للسپاهيين، وشرعوا فى إرسال السپاهيين إلى حرب "كريد "المخالفة للقانون، وقاموا بحجز المعاش الذى تركته عائلات (ولدش)[٧٥] لأولادهم بلا سند، وذَبحوا منهم الكثير. وقاموا يطالبون أولادهم بالدليل. نهض السپاهيون بثورة فى الحال ضد هذا الظلم. اضطرب الصدر الأعظم الصُّوفى محمد باشا، واستمر العِصْيان بضعة أيام، ساند آغوات الأوجاقلية فى الحال الصَّدْر الأعظم، ووقعت مَعْركة مُرَوِّعة بين الانكشارية والسپاهيين فى المنطقة المحيطة بجامع السلطان أحمد، كانت هذه المَعْركة هى فى حقيقة الأمر بمثابة صدام بين الأتراك - وهم المالكون الحقيقيون للوطن، وبين الأجانِب الذين كانوا يَتَلاعبون بسَراى الأتراك لصالح جَشَعهم ، والذين قَبْضوا فى أيديهم على زمام الحكم على الأتراك. وأسيلت دماء كثير من السپاهيين سيىء الحظ، واشتعلت النيران فيما حول الجامع. ومزق الانْكِشاريون أجساد السپاهيين الذين كانوا يَقَعون فى أيديهم، وامتلأت الشَّوارع بجثثهم، وكان أقرباء أؤلئك القتلى يُكَفِّنون ذويهم، ويَقْذِفون القَتْلى من الجنود الإنْكِشاريين فى البحر "وهم يقولون بأنهم العاصون الباغون".

كان إخْماد عصيان السپاهيين بواسطة قوة الانكشاريين، قد سبب فى إحكام سيطرة آغوات الأوجاقلية وزيادة نفوذهم. فقد صارت شواربهم - على حد تعبير "نعيما" - لا يقطعها الفأس.

كانت كُوسَم سلطانة مَسْرورة. فما ترغب فِعْله من آغوات الأوجاقلية، يفعلونه فى الحال. ومن المؤلم حقًّا أن ينشب صراع على المنصب بين كل من قَرَه مراد وقَره چلبى زاده، وهما اللذان قد قامَا بالثورة ضد ظلم السلطان إبراهيم، وفى الحقيقة، فإن كل الثورات التى تقوم فى تركيا تنتهى بهذه الصورة ؛ حيث يرى الذين ينقذون الشعب من الظلم، أنه من اللائق بهم أن يجازوا بأَحقِّية توليهم أكبر المناصب، ولكن ما إن يتولوا زمام الحكم، حتى يتخلصوا من الظالمِين القُدامى: الآن يظهر المسيطرون على الحكم فى الدولة: مُصلِح الدين آغا وبِكْتَاش آغا وقَرَه مُراد آغا وقَرَه جاوش وكَتْخُدا بك، وقد التحقوا جميعًا إلى أوجاق الديْوشيِرْمَه، وقد نشأوا فى الأوجاق[٧٧] (المعسكر)، ولحق بهم قره مراد آغا الصَّدر الأعظم، وشنُق الصُّوفى محمد باشا، وحظى قَرَه جاوش على آغوية الانْكِشارية، وبهايى أفندى على مَقام المَشْيَخة.

سيطرت الوالدة سلطانة كُوسَمْ على زمام الأمور فى السراى سَيْطَرةً تامة، ولم يكن نفوذ والدة محمد الرابع تَرْخان سُلْطَانة يصل إلى درجة سيطرة كُوسَم سلطانة، وعلى الرغم من ذلك كانتا تستطيعان تَوْلِية من تريدان من الآغوات فى أرْفَع المناصب، حيث كان السلطان طفلاً صغيراً، وكانت كُوسَمْ سلطانة تدير الدولة بواسطة الآغوات.

أقيمت حَفْلة خِتان السلطان بعد عام من جُلوسه على الحكم، كان آغَا البنات إبراهيم آغا يَمْسك بِالجهاز التناسلى الخاص بالسلطان محمد الرابع، و كان يَنْبغى عليه أن يَمْسِكه بخِفَّة شَدِيدة، فانسابت الدماء من تحته بغزارة، وفَقد السلطان الصغير من دمه الغزير حتى غاب عن وعيه. غَضِبَت كُوسَمْ سلطانة غضبًا شديداً، وحملت هذا الإهمال على أنه قصور من الآغا واستهانة بالسلطان : وأطلقت صَرْخَةً مدوية، وهى تقول فى السراى:

- هو لَمْ يَمْسك عن قصد، لقد أهَان السلطان، ولم يكن للآغا ذلك القدر من القِيمة فى السراى أساسًا بعد قتل السلطان إبراهيم، كان جلالى إبراهيم آغا ممن قتل السلطان إبراهيم، وكانت كُوسم سلطانة هى الوَحِيدة المُسَيْطرة على الآغا، وأثارت هذه الإهانة ضِيقها، فعُزِل فى الحال إبراهيم آغا، ونُفى إلى مصر. وعيِّن فى منصب آغا البنات محمود آغا "آغا السراى القديمة "وفى نفس الوقت حظى رئيس أغوات الوالدة تَرْخان سلطانة اوزون سليمان آغا على مَنْصب رئيس مُوظفى الإدارات الرسمية عام (١٠٥٩هـ).

بدأ السلطان يقرأ ويكتب، وكان مُعَلِّمه فى الخَط هو النديم بشير آغا، وكان الخط الذى يعلمه بشير آغا لِطلابِه جميلاً للغاية: "سوف أقطع رأسك".

حلَّ السكون والهدوء على السَّراى، وفى الحقيقة فقد كان الآغوات يقيمون حفلات اللهو خارج السَّراى، وكان قَرَه مراد باشا هو المُضيِّف

فى كل يوم، فكان يُقيم على الدوام حفلات الطرب واللهو والخمر، ولقد انعكس سُكْرَ مراد باشا فى النهاية على الحَرَم، وضاقت الوالدة سلطانة كُوسَم ذرعًا به، فأمرت بكتابة خط همايونى لابنها، وذكرت فى هذا الخط الهمايونى:

"هل جَعلتك وزيراً لكِي تَنْغَمِس فى شُرْب الخَمر والمُسْكِرات فى البساتين والحدائق، اعتن جيداً بأمور المَمْلكة، ولا أسمع مرةً أخرى بثمالتِك، وإلا لأذبحنَّ رأسك".

غَضِب مراد باشا، وأرسل فى الحال يستوضح الأمر فى السَّراى. واستقدم معلم الخط بشير آغا وأظهر الخط الهمايونى، وقال فى حدةٍ:

- ماذا تُعَلِّم السلطان بمثل هذا السلوك؟ ولمن هذا التعليم؟ فيما يبدو أنه تعليمك.

لقد وَبَّخ بَشِير آغا تَوْبِيخًا شديداً، وأقْسَم بَشِير آغا وأغلظ فى أيمانه:

- على الرغم من أننى كنت قد تعلمت إملاء لفظ ذبحت رأسك، وغيرها من الألفاظ التى تفضلت بسؤالى عن كيفية كتابة الألفاظ التى اقتضت أن يكتب بها الخط الهمايونى، ولكن لا علم لى بكتابة هذا الخط ولِمَنْ تُعَلِّم وتُلَقَّن فى حقيقة الأمر.

ولكن مراد باشا لم يستمع، وقذف ببشير آغا إلى الباب الجديد للسراى ، وعين أحد الطواشية معلماً للخط بدلاً منه.

وفى النهاية بدأ الصَّمت الذى حل فترة من الوقت فى الزوال أيضاً، فقد بدأ التنافر يطل برأسه بين الوالدة الكبيرة السلطانة كُوسَم وبين تَرْخان سلطانة والدة محمد الرابع، واشتد النزاع بين الوالدتين، ووقف آغا البنات مُحايِداً فى هذا المَوْضوع، وكان قد أخبر الصدر الأعظم بهذه المسألة لتسويتها.

جاء مراد باشا إلى السراى، ولكنه لم يستطع أن يَتَقدم نحو قصر سنان باشا "بعدما شعر بما يعود عليه من ضرر "ولم يَكَد يفهم المسألة، حتى أبدى اعتذاره وتخلى عن المَوْضوع، وأغلقت هذه القضية بنفى بعض الطواشين.

كان يحق للآغوات أن يَسْتلذوا ويَنْعموا، فالمَعْشوقات بجانِبهم يترنمن برفقة الخمر والمسكرات خلال مصايفهم، وبمصاحبة أبدع مطربى العصر وأروع مغنييه. دامت حرب كريت، ولكن لم يكن أحد يهتم بالحرب. أغلق أسطول إيطاليا المَضِيق، واصطبغت كريت بلون الدماء والنيران، والتى لم يُوليها أحد أى اهتمام : فالطَرَب والملذات والخَمْر والمال هى أكثر ما يَنْشغل بها آغوات الأوجاقْلية. وكل من شاهد استغراق الآغوات وتنعمهم فى الملذات:

- لم تكن المُتَع والملذات التى فَاقت الحد مثل ما يحدث بهذا الوضع قد رآها أحد منذ الخاقان الفاتح وبينما انْغَمس الآغَوات فى الخمر والمُسْكرات، كانت القصور الفخمة والسرايا العظيمة تُشَيد فى استانبول.

وفى النهاية كان تفكك العلاقة بين الوالدة الكبيرة كُوسَم سلطانة والوالدة الصَّغَيرة ترخان سلطانة، قد شرعت فى إيقاظ الخلاف أيضًا بين آغوات الأوجاقلية. مالت الوالدة الكبيرة إلى مراد باشا والوالدة الصغيرة إلى كَتْخُدا بك، وكانت الغلبة للوالدة الصغيرة : فازداد تدريجيًا سطوة كَتْخُدا بك، وبدأ العلماء والوزراء وأعداء المناصب والمخصصات، يلازمون باب كَتْخدا بك، وكانت المناصب والدرجات تُمْنح برأيه، اشتعلت الفرقة أخيرًا بين قره مراد باشا وكَتْخُدا بك، وأجْبر مراد باشا على أن يَسْتقِيل من الصدارة، وجاء بدلاً منه ملك أحمد باشا وزيرًا أعظم عام (١٠٦٠ هـ)، وهو زوج قايا سلطانة.

استَشرت الرُّشْوة فى السراى وبين آغوات الأوجاقِلية بشكل مريع، حتى أنه لم يكن أحمد ملك باشا يستطيع أن يَفْرغ منها، فشرع فى تسجيل إيراد الرشاوى المَأْخُوذة للتعيين فى المناصب، بشكل رَسْمى فى الروزْنامه، ولم يكن ينتج عن هذا أية فائِدة كَبِيرة، فقد كان الذين يحصلون على الرشوة يقيدون فى الدفتر مقدارًا ضَئِيلاً فقط من المال الذى أخذوه.

تأثر الشعب من ظلم آغوات الأوجاقِلية تأثرًا شديدًا، واغتمت الأناضول لما وقع عليهم من الظلم وزاد العدو من أساطِيله تَدْرِيجيًا، وفى النهاية اضطرت الظروف إلى طلب المال من الخَزِينة الداخلية، وفى الحال أرسلت الأوامر والتكاليف الشاقة إلى البلاد، "وفرضت

الضَّرائب الباهِظة خاصةً على الحرفيين، وصعدت صَرخات الفقراء إلى السماء، ولم يكن هنالك من يَصْغى إليها".

وبينما كان الظلم والرشوة يتحكم بشدة فى كل الأمور، كان المُعَلَّمون قد أبرزوا القضية المتعلقة بالتكية والمدرسة. وبينما لم يكن هناك من رأى أية فائِدة على الإطلاق سواءً للتَكيَّة أو المَدْرَسة، غير أنه قد تأذى الشعب، واضطربت المملكة، وكان الإيطاليون يضغطون على جنودنا فى كريت، ولم يبد المعلمون أدنى اهتمام بهذه المسائل، ومن ناحية أخرى كانوا يَعْملون على إرسال السپاهيين مرةً أخرى إلى كريت.

فى هذه الأثناء نتج عن قِيام شيخ الإسلام بَهائِى أفندى بحَبْس قُنْصل الإنجليز فى الاصطبل، ووقوفه خاصةً ضد الآغوات، أن قاموا بعزله، وتولى قره چلبى زاده عبد العزيز أفندى منصب المَشْيخة.

وبينما ساد استانبول سيطرة المال والطمع والمُتَع والملذات، وقعت الأناضول فى أيادى اللصوص : فقد ابتلى على آغا القونوى وسائر السپاهيين بالغدر من زعماء السپاهيين لقبيلة "يكى "وحاكمها آبازه حسن. وبِيعت الإيالات التى يَحْكمونها إلى الآخرين من قبل آغوات الأوجاقْلِية. فنهضوا، وقدموا إلى استانبول يشتكون، وأخْبَروا الآغوات، وطالبوا برؤوس من غدر بهم، غير أنهم هُددوا أيضًا وقد رد عليهم آغوات الأوجاقْلِيَّة، فقد أمر الأغوات حسن آغا قائلين:

– فلترحل وتذهب.

وأصر حسن آغا وقال:

- لن أرحل حتى أتولى جباية الضرائب، أو أحصل على المال المخصص من خزانة الدولة وغيرها.

وأرْسَلوا إلى حسن آغا ثلاثين صرة من النقود المخصص من خزانة الدولة، وطلبوا منه أن يرحل دون رجعة، تَظلم حسن آغا، وذكر أنه إن رحل فسوف ينزعون المال من الشعب، حتى أنه وضح ذلك صراحةً فقال:

- ألا ترحمون تلك الولايات؟

كانت هذه الولايات هى الأناضول، غير أن من سوء حظ الأناضول بكل أراضيها الفياضة وشعبها الطاهر، كانت تعتبر بالنسبة إلى آغوات الدوْشيِرْمَه الأوجاقْلِيَّة بمثابة مزرعة خاضعة لأوامرهم. فكانت مصادر كل واردات استانبول فى أيديهم، ويدخل كل ما يحصلون عليه من نهب للأناضول فى صرر الولاة والحُكَّام وتقدم الرشاوى لهم باستمرار. وتنثر الأموال المنهوبة من الأناضول تحت أقدامهم فى استانبول "نقداً"، فيجيبون بلا مبالاة:

- فلتقوموا ولترحلوا، وإن شئتم، اضرموا الأناضول بالنيران.

يحمل هذا الرد بقدر ما هو ظالم، مفهومًا مهمًا: فجواب الآغوات يظهر صراحةً أن حب الأناضول والرحمة بأهلها والعمل على تَعْمِيرها ورفاهِيتها،

يرتبط بالضرورة بمن له علاقة بالأناضول، أما الأجانب الذين ينتمون إلى وطن آخر، وكذلك أولو المناصب المُعَيَّنون فى مؤسسات الإمبراطورية وهم ينتمون إلى السراى وأصحاب النفوذ، فمن الطبيعى ألا يعطون أية أهمية لها، حتى لو اضطرمت النار فيها. لقد شملت الإمبراطورية كل العناصر من الآرناؤط والقفقاس والبوشناق والصرب وكرواتيا وبولندا والمجر، ولم تكن تستطيع أن تعبر إطلاقًا عن كيان معظمهم بعد عصر السلطان القانونى، كانت الرابطة الجِنْسِيَّة هى الغالبة تمامًا : وكانت الأباظية تلتزم ببلادهم آبازه. أما الأتراك، فكانوا فى حالةٍ وضيعة وحقيرة، غُرباء حتى وهم فى بلادهم خاضعين لحكم قَطِيع من هؤلاء الأجانب، وكان سوء إدارة العجم وتوليهم منصب أركان الدولة، قد حال دون تولية الأتراك المناصب الرفيعة فى مؤسسات الدولة، أو إدارتها واستغلال ذكائهم.

بل وتلوث الدم التركى أيضًا خلال الحكم العثمانى، وكان السلطان – الذى أخضع السَّراى إلى أيدى آغا البنات الزِّنْجِى، بل وسلم له كيانه أيضًا – يطمئن كذلك فى أن يحكم الدولة أجناس غير الترك.

كانت الأناضول هى البلدة الوحيدة التى حافظت على طهارتها ونقاء دمائها ضد العروق المختلطة من رجال الدولة والسراى. وكانت الأناضول هى الملاذ الذى يهرب إليه أصحاب المزاج من الحكام العثمانيين ورجال السراى أيضًا. لم تهدأ الثورات فى الأناضول؛ فقد غشاه الظلم

فى كل ناحية، ولم يظهر فيه أى أثر للرفاهية والغنى، وكان يرسل له قطّاع الطرق واللصوص، ولم ير فيه أى أثر للعُمْران : وخصصت جميع ثرواته وأرواح أهله لتزيين استانبول وتعميرها وإملاء صُرَر رجال الدولة. كانت الأناضول مَرْعى للآغوات الأوجاقْلِيَّة ترعى فيها جيادهم، بل كانت لجيادهم قيمة عن أهل الأناضول المُطِيعين مثل الغنم.

كان بِكْتاش آغا قد أصدر عقابًا قاسيًا للغاية ضد قاضى أنقره؛ بسبب استخدام الأهالى لقلعة أنقرة قبل أن تدخلها جياده.

لم يكن هنالك من أحد بالسَّراى يَهْتم بالأناضول، حتى كُتَّاب الوقائع (عندما يتحدثون عنها، كانوا يحورون الكلام بالشكل التالى "لقد صارت ولاية الأناضول بِحِكْمة من الله سبحانه وتعالى، مرتعًا لأصناف من الأشقياء". فى حين أن الأناضول هى أساس الترك ومنشأهم. إن السبب فى جعلها بهذا الشكل يكمن فى فساد إدارة الدولة وحِرْمانها من نور العلم والعدالة.

كان الآغوات قد شعروا بالندم بعد أن تركوا الأناضول السپاهيين، فقالوا:

– ها. إنهم متألمون ومتأذون منا، وكان هدفهم العصيان والذهاب إلى آبازه.

أفزعوا من خلفهم الجياد، وأمروا بقطع رأس كل من يصادفونهم وإحضارها، وألحقوا أيضًا "مال تبه "بسپاهية الأناضول. وذبحوا الجميع

ودفنوا أجسادهم، وأخذوا رؤوسهم، وقدموها للآغوات، وفى اليوم التالى تصدرت رؤوس السپاهيين أمام الباب الهمايونى. فثقل على الأهالى هذه المعاملة، ومن كان يُشاهد هذه الرؤوس يَلْعن الآغوات ويقول:

- ما الذى ارتكبه هؤلاء المَساكِين من جُرْم ؟ ليبتليهم الحق ويلقوا عقابهم عما قريب.

وفى النهاية أثار ظلم الآغوات عصيان تجار استانبول، وقلب عصيان مريع استانبول رأساً على عقب. وكان يحق للأهالى عصيانهم: فلم يكن هؤلاء الآغوات يبيعون المناصب والرُتب فحَسب، بل كانوا يعملون على تَجْوِيع أهل استانبول. وكان آرناؤط[٧٨] بكتاش آغا هو رئيس المُحْتَكِرين، فلا يمكن أن يَبِيع أحد غيره باستانبول لحوم الغنم التى تجلب له، وعندما تصل إلى دُكانِّه، كان أصحاب الدكاكين فى استانبول يَشْتَرون من بكتاش بالقرض، ويديرون أمواله. وإذا كال لهم بخسران، وهم رأسماله، لا يستطيع المكلفون عمل شىء حياله، وهو ينظر إليهم بنظرة لها مغزى، مبتسماً فى وجوههم، وهو يقول:

- إنكم رأس مال بكتاش آغا.

كان بكتاش آغا يَمْنع جَميع المُوردين من استِيراد الأغنام. وعندما اشتكى الأهالى من ارتفاع أسعار اللحوم والأطعمة الأخرى وقَدَّموا مطالبهم، أجابهم بكتاش آغا بقوله:

- هذه المدينة مدينة الأغْنياء، وليست للفُقراء، ومن يَعْجز عن المعيشة بها فليسكن خارجها وليأكل البُرْغُل والشُرْبَة.

كانت الأناضول فى نظر آغوات الدوشيرمه بمثابة "بلد منفصلة عن استانبول"، وكان مؤيدو بكتاش آغا يوافقونه على رأيه، فيقولون:

– سلطاننا البهى، كثير من الترك يأتون ويفسدون مزَارِعك، وهم يستمتعون فى مثل هذه المدينة اللطيفة، ويصرون على شراء اللحم وغيرها، ألا يستحون أنهم يشترونها بخمس عشرة آقچه ؟ فليرحلوا إلى بلد قديمة حيث لا يكون لهم فيها حظ.

تملك الآغوات استانبول، ويرافقهم أيضًا مجموعة من البشر لا خلاق لهم طمَّاعون. ولم يكن فى الإمكان أن تتقدم الصناعة والتجارة فى المملكة؛ فليس ممكنًا توفير الثروة مع حب الذات. وكان العلماء والكتاب هم أكثر طبقات الشعب المستنيرة فى المملكة، وكانت أعينهم متعلقة بالسراى والآغوات الذين يتوسطون لهم فى السراى والرجال ذوى النفوذ، وسمت المُداهنة والواسطة على كل الفَضائل العِلْمِية، وغدا من الممكن دائمًا الفوز بالمال وضمان التعيين فى المناصب، بعد غض الطرف عن الشرف والكرامة.

لم يكن فى السراى الرجل الذى يستطيع أن يسيطر حتى على النساء، وكانت الوالِدات والمَحْظِيات وآغا البنات هم الذين فقط يحترمون السلطان، فى حين كان محمد الرابع طفلاً حديث التعلم للقراءة والكتابة، وقد تم خَتْنِه حديثًا، وهو يدخل ويخرج من السراى حسبما يطلب منه الآغوات، وكان يُرافق نفوذ هؤلاء الآغوات مثل قَرَه مراد باشا وبكتاش

آغا وكتخدا بك، ورغبات الوالدة سلطانة أيضًا، خاصةً تلك العلاقة التى كانت تربط بين بكتاش آغا والوالدة كُوسَم، وهى من النوع الذى يلفت النظر، إلى حد أنه قد انطلقت الشائعات حول زواجه منها، أما مَعْشوق السُلْطانة تَرْخان فهو كَتْخُدا بك.

كانت الوالدة تَرْخان سُلطانة المَعْشُوقة، تَبْلغ من العمر أربعة وعشرين عامًا، شابة جميلة شقراء، وكانوا يظنون أنها روسية لأنها جاءت من ناحية روسية. وأصبح من الضرورى أن يسود نفوذ الوالدة كُوسَم فى السراى بسبب حِنْكَتها وفِطْنَتها وقيادتها فى الإدارة والحكم، حتى أنه كان من المعتاد عند وفاة السلاطين انتقال الوالدات إلى السراى القديمة، غير أن كُوسَم سلطانة بقيت فى السراى الجديدة. وعندما جلَس محمد الرابع على العرش، كان من الضرورى أن يَنْتقل النفوذ إلى السلطانة تَرْخان، وما لبثت كُوسَم سلطانة أن أثقلت على من فى السراى. وكان الآغوات هم أكثر مَنْ يستولون على السلطانة كوسم. الآن انقسم الآغوات إلى قسمين، فكان المنحازون للوالدة كُوسَم والسلطانة تَرْخان يتنازعون ويَسبُّون بعضهما البعض دائمًا، وكان المنحازون لترخان سلطانة هم رئيس الخدم سليمان آغا الزنجى، ومُعَلَّم السُلْطان رِيحان آغا، والنَدِيم إسماعيل آغا، وباقى الطواشية، وهم لا يعطون أى أهمية مطلقًا لشخصيات كبار الوالدات فى السراى، وهم أيضًا لا يتحملونهن، فكانوا يُحْرِّضون دائمًا الولدة كُوسَم سلطانة عليهن، أما الوالدة كوسم فكانت

دائمًا جَشِعة، وتُبْدى عداءها لتَرْخان سلطان على الدوام، والواقع أن كلتاهما لم يشعرا بأية ثقة تجاه بعضهما البعض.

لم تُبال الوالدة كُوسَم بما جرى للشعب من اضطراب، والفَقْر الذى ساد المَمْلكة، وعندما ثار تُجار استانبول وأهلها ضد الآغوات بعد أن ضَاقوا من ظلمهم، أصدرت فى النهاية قرارها بنقل تَرْخان سلطانة وأتباعها، مُعْتَمدة على الآغوات فى السَّراى. كان رأى الوالدة كُوسَم يدور حول ذلك المحور وهو: قتل حفيدها محمد الرابع بتحريضها للآغوات، وقذف السلطانة ترخان إلى السراى القديمة وفقًا للعادة، وإجلاس أخى محمد الرابع الأمير سليمان على العرش. كان الأمير سليمان فى الحقيقة على قدر السلطان إبراهيم، والدته هى دَلْ آشوب سلطانة، وهى سيدة"صافية القلب ذات طبيعة جذابة "، وتعجز عن أن تظهر نفوذ الوالدة سلطانة. وبناءً على ذلك سوف يظل كل النفوذ لها فى السراى. كان آغا البنات شخص خاضع لها. وبعد أن يتم نقل المنحازين لترخان سلطانة لن يكون فى الإمكان تخيل نهاية نفوذ الوالدة كوسم.

كانت كُوسم سلطانة قد تحدثت مع الآغوات حول هذه المسألة، وأدركت أن أتباع تَرْخان سلطانة يتحالفون ضدها، فكتبت مذكرة قالت فيها: "اطلبوا الطَّواشية الأرْبَعة واقتلوهم". ووافق الأغوات فى الحال؛ ذلك لأن سطوتهم كان لا يزال قائمًا بنفوذ الوالدة كُوسم، وخاصةً وقد ثار عليهم أهالى استانبول، وكانت السَّيطرة كلها على السراى سوف تنتقل إلى الوالدة كُوسَم بالطريقة التى خططت لها.

فى ذلك الوقت استمر الحال كما هو فى الماضى، مَنْ سحق لأهالى استانبول واستمتاعهم بالطرب والتنعم بالملذات. وكانوا قد اتفقوا مع الوالدة الكبيرة على ما يلى: سوف تترك الوالدة كُوسم فى تلك الليلة بَعْضهم يَفْتحون الأبواب الخَلْفية والباب الحَديدى، وسوف يَدْخلون منها الآغوات أثناء الليل، ويقتلون أتباع تَرْخَان سلْطَانة جميعهم.

كانت تَرْخان سلطانة على علم تام بخُصُومة الوالدة كُوسَم، وقامت الوالدة كوسم بوضع السِّم فى شراب السلطان محمد الرابع. فى ذلك اليوم استدعت ترخان سلطانة رئيس المُرَبِّين سليمان آغا ريحان آغا، وأدركت ما تخطط إليه الجانية الوالدة سلطانة. فى هذه الأثناء جاءت مذكرة من الآغوات: فقد كانوا يريدون "الآغوات الأربعة" التى وصت بهم الوالدة كوسم.

اضطربت ترخان سلطانة اضطرابًا كبيرًا، وذهل سليمان آغا، فقد كانت هذه المذكرة مهمة للغاية، وعلى كل حال فسوف تحدث واقعة مهمة فى السراى، وفى الخارج كانت الأهالى واَقفة على أقدامها، والآغوات تستعد للقيام بطامةٍ كبرى، وبدأ المربى الزِّنْجى سليمان آغا يَنْشط فى الحال، وتناول بعضًا من أتباع الوالدة كُوسم، وشرحوا له:

- سوف تكون بعض أبواب السراى مفتوحة، ويُقَدِّم الأفراد الأوجاقلية، ولسوف يتجرأون على القِيام بأعمال سَيِّئة ذات نوايا خبيثة.

أسرع سليمان آغا إلى تَرْخان سلطانة يُخْبِرها بالمسألة، وكان يَنْبغى حينئذٍ عدم إضاعة الوقت على الإطلاق، وإنهاء أمر الوالدة كُوسم قبل دخول الآغوات السراى، وقد قرر هذا بشكل قَطْعى سليمان آغا وريْحان آغا والمُرَبِّى إبراهيم آغا وإسماعيل آغا.

حل المساء، وغربت أشعة الشمس خلف منارتى جوامع السلطان سليم والفاتح والسليمانية. وكانت هذه الليلة ليلة من ليالى رمضان المُقْمِرَة، وكانت قد بدأت آفاق الأناضول تتلألأ بضوء القمر الباهت. أَفْطر مَنْ بالسراى، وأقِيمت صلاة التراويح، وبَدأت أضْواء القمر الشاحبة التى تعلو خلف "كوزتبه"، تَرْتَعش فوق الماء الذى يلثم حواف السراى. كانت السراى والقباب والماليك يظهرون من بين أشْجَار السرو والدلب العالية، وهم صامتون واجمون وجوماً يثير الخيال. انْسَحب كلٌّ فى مكانه. كان الآغوات قد تناولوا الإفطار على باب الآغا، وينتظرون حلول الساعة المُحَدَّدة. كان سليمان آغا قد ترك الميدان للآغوات، وحشد له كثيراً من الأتباع فى السراى، وتَمْنطق الجميع بالسِّيوف، وكانت الوالدة كُوسَم بالداخل، متلهفة ولا تطيق صبراً فى غرفتها المُزَيَّنَة حوائطها بالزهور وصور الصينيين. وكان أتباع كوسم سلطانة بالسراى قد بلغوا أكثر من ثلاثمائة شخص، يطوفون حول جناح الوالدة الكبيرة وينتظرون دورهم، وكانوا يعرفون بقدوم الآغوات، وهم أيضاً متمنطقون بالأسلحة ومتأهبون. قَدِم سليمان آغا مع الخدم الطواشية وكثير من الآغوات إلى ميدان السراى،

وبدأ النزاع بين أتباع الوالدة الكَبِيرة، ولم يكد آغا الباب يسمع هذا الضجيج، حتى جاء، وسألهم ماذا تريدون، فقالوا:

- نحن نطلب من سلطاننا تسليم الوالدة الكبيرة.

فعارض آغا الباب، وأمرهم "أن يتفرقوا".

لم يصغ سليمان آغا ومَنْ معه:

- نحن نريد بالتأكيد الوالدة، أو أننا سوف نقتل جميعنا.

جاء هذه المرة رئِيس الغُرَف، وأراد تَفْرِيق طواشِية الغُرَف. وقد تم تمزيقهم فى هجوم مُريع، فلم يستطع سليمان آغا أن يقف حينذاك، فقد دخل معه الآغوات المسلحين ومزقوا كل من صادَفُوه، وجاء أمام حُجْرَة الوالدة الكَبِيرة.

وما إن سمعت كُوسَم سلطانة بوقع أقدام فى الخارج، حتى نهضت بفرح كبير، فقد ظنت أن الآغوات قد أتوا، وصاحت من الداخل بصوت عال على الخدم:

- هل جاءوا؟

فرد عليها سليمان آغا من دَهْليز بابها:

نعم، جاءوا.

تعرفت كُوسَم سلطانة على صوت سُليمان آغا، فتجمدت فى مكانها، واندفعت على الفور، هارِبةً من غرفةٍ إلى أخرى، اختَفى سليمان آغا فى

الداخل، وتصدَّرت أمامه جماعة من الآغوات تُهاجم غُرف السراى، كانت كُوسَم سلطانة مختبِئة فى دولاب، غير أنه لم يستطع إنقاذها، فقد قَبْضوا عليها. وسَحَق مُحمد الصغير وهو مِنْ النَّوع الذى يُطْلَق عليه اسم (زَلْفَلِى) كُوسَم سلطانة بقبضاته، وفى النهاية "ماتَت مَخْنُوقة وقد أحكم فى حَلْقُومها حَبل أحد الستائر آنذاك"، وانسال الدم من فمها وأنفها، وقد ظلت أيدى محمد الصغير مغمورة فى داخل الدماء فوق رأسها.

فى أثناء ذلك كان الآغوات يتناولون إفْطارهم على باب الآغا، ونظر آغا الانكشارية تجاه السراى، فرأى أشخاصًا وأنوارًا على غَيْر العادة. فنادى بكتاش آغا، مشيراً إلى السراى، وهو يقول:

– أخى، يتلألأ بداخل السراى هذه الليلة كثير من الشَّمع، يعلم الله ماذ يحدث ؟ انظر!

حدق اثنان من الآغوات بدقة فى السراى، وأدركا على الفور الأمر. وبينما جاء (صامْسونْجِى) مضطربًا، وهَمَس فى أذن الآغوات بانفعال:

– لقد انتهى الأمر، ولقد اتضحت الأمور، لقد انتهى أمر الوالدة والله أعلم، بلغ صدى اصطكاك السيوف عنان السماء، وقد أنقذنا بأعجوبة، ونفذنا بأرواحنا بصعوبة خارج الباب الهمايونى.

كان سليمان آغا هو الحاكم الوحيد فى السراى، استَدْعى سليمان آغا الصدر الأعظم سِياوُش باشا وحكى الحادثة بالتفصيل. وقُتل كل أتباع الوالدة الكبيرة.

حل الصباح، وبدأت آشعة الشمس تضيء الديوان، ودعيت الجماعات المعارضة للآغوات، إلى السراى، وكانت آغوات الجنود يعارضون منذ فترة طويلة آغوات الأوجاقْلِية. وكان السِپاهيون أيضًا من هؤلاء الجماعات. أتى العلماء والوزراء وآغوات الجنود إلى السراى، ولم يكن السپاهيون يفكرون أن السراى تعمل على سَحْقهم لصالح أوجاق الدَوْشِيرْمَه حتى فى طلباتهم الشرعية. نُصِب العرش، وجَلَس عليه محمد الرابع، والتف حوله الوزراء والعلماء، وكان يجلس "اللالا سليمان آغا رئيس آغوات صاحبة المقام الوالدة سلطانة "بجانب الوزير الأعظم وشخصية أكبر درجة من السپاهية بطربوش أبيض، وقد اتخذ خواجه زاده وحنفى أفندى وضعًا محترمًا، وتقدموا سويًا مع حنفى أفندى، وقالوا هذا الكلام لمحمد الرابع:

– ليحفظ الله تعالى سلطاننا العظيم من كل سوء، أنت الخَلِيفة، ومن يخالفك يكون عاصيًا باغيًا، ويتوجب قتله، فما أعجب كرامة كثير من الأجانب والغالبين وما أكثرهم؟ أصدر الأوامر بإخراج علم رسول (ﷺ) ورفعه، وأرسل فى المدينة المنادين بإطاعة المسلمين لأولى الأمر، ومن يعص يُعاقب، وامنح بإحسانك على الفور بتعيين من يستحق ممن يدعون لك، بتوليته مَنْصب المُفْتِى والقاضى عسكر، وإن شاء الله تعالى سوف تتفكك جماعة العصاة، وإن كان فى كلام هؤلاء السادة شيء صادق وحقيقى، فقوله "كثير من الأجانب والغالبين"، ففى الحقيقة كان الآغَوَات

هم المسيطرون على السراى والدولة، وكذلك الإنكشارية جميعهم من الأجانب، وأيضًا كان سليمان لالا - الذى طوى السراى فى قبضته - كان زِنْجِيًا سُودانيًا، أما الوالدة سلطانة فهى بُولَنْدِية، وكان العُنْصر التركى مشردًا فى وطنه ومتفرقًا فى أيدى الأجانب منذ عهود طويلة، وكانت الأناضول الحَبِيبة ومَراعِيها الخضراء وأنهارها التى تجرى بين الجبال المزهرة، وبساتينها وحدائقها الغناء بالورود، وقد اغتصبوا حقوقها وراحتها، ولم يعملوا على رفاهِيتها وتَعْمِيرها. لقد خضعت جميع مقدسات الأناضول من أجل تنعم الأجانب وإشباع رغباتهم وجشعهم وجمع ثرواتهم، وقد اجْتَمعوا فى السراى باستانبول لحمايته. ومن الواضح أن الضريبة التى حصلت عليها مؤسسة السراى من الأناضول منذ قرون طويلة هى: المَال والأرْواح، فلم يتوان الدَوْشِيرْمه المتحكمون من قبل السراى على الأناضول، عن إظهار بشاعتهم العدائية حتى فى قتلهم لأرواح أهالى الأناضول. وذات مرة ذهب حسن البُوياجى إلى الأناضول لجمع الضرائب، ومن أجل أن تدوم حياة الخمر والسكر للآغوات الأوجاقْلِية وملأ صررهم بالأموال، كان يجر نساء الأناضول الطاهرات والعفيفات، واللاتى لم يتواجد أزواجهن فى بيوتهم حينذاك، فوق رؤوس الجبال، وهن مقيدات بسلاسل من أعناقهن. ولم يقنع الظالمون بقتلهن بعدما فشلوا فى الحصول على ما رزقن به من أفواههن، والذى لم يتجاوز بعد حلوقهن، وإنما أرادوا الاستفادة من موتهن أيضًا : فقد أصروا على نزع السلاسل التى قُيِدن بها : لعدم تمكنهم من أخذ الأموال منهن،

وإزعاجهم برائحة الجثث التى تحللت. ويكمن السبب فى كل هذا الظلم فى نسل بنى عثمان الذى جاء بعد السلطان القانونى، من سلاسة بنات بلاد الكفر من بولندا وروسيا والمجر. وكان هذا هو السبب فى عداوة جميع سپاهية الأناضول وأهلها وأولاد قَلَنْدر وقره يازِيجى الذين نشأوا فيها، تجاه العثمانيين. وكان أتراك استانبول أيضًا يعادون الأجانب، ولكن لم يكن بأيديهم القيام بعمل أى شيء لحماية السراى أو الوقوف ضد سيطرة الأغوات، أما سهول الأناضول الشاسعة، وجبالها الوَعِرة، وطُرقها التى لا تمر منها القوافل، فقد كانت تبسط أجنحتها دائمًا لتحمى أولادها الذين ولدوا فى أحضانها وتحررهم. كان قرار أولاد قلندر الذين تصدروا أهالى الأناضول "لإنهاء حكم العثمانيين فى اسكدار"، وكذلك التعبيرات التى اكتتبها قارا يازيجى فى الأحكام الصادرة على هيئة "وعندما يتيسر الحكم له" يوضح هذا بصراحة الغاية التى استهدفتها الأناضول من الإدارة العثمانية: تركيا للأتراك.

ولكن تطبيق هذا القانون كان يمثل مُشْكِلة لمن يَلْتف حوله شعب الأناضول. أولاً: كان الشعب نفسه جاهلاً. ثانيًا: لم يتول الترك المناصب العالية فى مؤسسة الإمبراطورية العثمانية. حقيقةً كان معظم العُلَماء من الترك، ولكن كان قُصارى جهدهم فى تحصيل علوم الحضارة الفارسية والعربية التى ابتليت بالانحطاط، ولم يكن فى مقدرتهم قبول العلوم الغربية فى تركيا، وقد أفقدهم هذا العجز قدرتهم على إحداث طفرة تثير

الذهن وتوقظ الخلق، وحال انتشار الرشوة والوساطة أكثر من الفضيلة والثقافة بين السراى ورجال الدولة، دون بزوغ عالم حقيقى. وقد اقتصرت الوظيفة الوحيدة للترك على "أَغَوِيَّة الجُنود "فى العاصمة والجيش.

ولم يكن لهم أية أهمية مطلقًا بجانب الجنود البَكْتاشِيين، فكان يَنْبغى تثقيف أهالى الأناضول، ولكن لم يعترض أحد على التكاليف الدِّيوانية والضرائب و"إرسال الجنود"والفداء بالروح من أجل إشباع رغبات ظالمى السراى فى حرب كريت التى لا يُعْرَف نهايتها، و"التجرؤ على افتراش الأرض والاستناد على الحجر".

لم يفتقد "حَنفى "و"خَواجه زاده جَوْهر "التركية فى أرواحهما، ولكن الدراسة فى المدارس قد جعلت ثقافتهما عربية مثل جميع الطبقات العلمية، وكان من الضرورى هداية الشعب إلى بذور الحق والعدالة والحرية والاستقلال، أكثر من تجمعهم حول عَلَم رسول الله (ﷺ). فلم يكن الأرناؤوط الذين ملأوا استانبول يجتنبون "عَلَم رسول الله (ﷺ)" بل إن "العَلَم الشريف"الموجود بالسراى، لم يكن عَلَم رسول الله"وإنما خِرَق بالية. ولقد حَظى الأتراك على انتصاراتهم فى قوصوه ونيكبولو وورانه واستانبول بدون "العَلَم الشريف".

يقول السلحدار محمد آغا: "كان هذا العَلَم الشَّريف فى حقيقته قطعة ثُبُتَ بالتواتر أنها لسيدنا ونبينا محمد المصطفى (ﷺ)، واسمها (عُقاب)، وهى من الصوف الأسود. وتؤكد بعض السير أن العَلَم الشَّريف

قد سُمِي بالعقاب، وقد أرسله "خاير باى" إلى السلطان "سليم خان" فاتح مصر، وبمرور الزمن قُسِّم إلى قطع مختلفة، وطُرِّز فى الدولة العلية ثلاث أعلام على غرار الأصل، وحُدد لكل علم المُناسبة الخاصة به، فالعَلَم الأول يَنْضم إلى المَوْكب السلطانى، ولا يَنْفَصل عن الخِرْقَة الشريفة، وثانيه محفوظ بداخل الخَزِينَة العامِرة، وكلما اقتضى الأمر يُعْطى واحدة منها إلى الوزير الأعظم والقائدِ الأكرم، وأحيانًا تُحْفَظ فى الخزينة".

لم يكن "محمد آغا آغا البنات يتدخل فى أى شىء، فكانت جميع الأمور يديرها "الباش آغا سلطانة تَرْخان "لاَلاَ سليمان آغا"، وكان يَصْدر أوامره كُلها باسم السلطان. وكانت الآغوات قد قصدت باب الآغا، واتجهوا نحو جامع "اورته".

بدأ "لالا سليمان آغا "باب التعيينات، وأراد أن يُعَيِّن فى المشيخة أبى سعيد أفندى وهو من سلالة خواجه سعد الدين الأصفهانى، ولكنه كان مشهوراً بتذبذبه، وحظى بها حنفى أفندى فى نهاية الأمر، ولم يوافق "لالا سليمان" على هذا التعيين، فنادى أبى سعيد أفندى، وقَدَّم إليه خَط الإفتاء، وعَيَّن "خواجه زاده قاضى عسكر فى الروم إيلى أولاً، ثم فى الأناضول، فحظى السادة بمرامهم.

وأخرج المنادين إلى شوارع استانبول، واجتمع الأهالى حول العَلَم الشريف، وعلى أبواب السراى، وعندما شاهد الآغوات تجمعهم حول السراى، شرعوا فى موالاتهم بالمال، وأخرج "بكتاش آغا "الأموال التى

كان يخبئها فى المخزن الذى أقامه تحت حوض حديقته، وبعثرها على الأرض، وقدّمها للقادم والعابر محاولاً استمالته، غير أنه لم يكن هناك من كان ينظر إلى أمْوال الآغوات. وكانت قد انقطعت العلاقة بين "كَتّخُدا بك و"تَرْخان سلطانة".

كانت عداوة "لالا سليمان آغا" تتجه ضد كل الآغوات الأوجاْقلِية. وشرع كتخدا بك ينثر أمْواله أيضًا، ولكنه غضب عندما رأى عدم اهتمام الأهالى بالنظر حتى إلى أمواله، ورَجع إلى "بكتاش آغا، وقال:

– أيها الأرناؤوطى الجَشع، هذا بسبب وجهك القبيح، فليبتليك الله، لقد فعلت ما فعلته، المال ضرورى لنا وانقلبت الأحوال فوق رؤوسنا، وعندما فسدت أمور الدولة، تَصِير الأموال هى العلاج لكل آلامنا، فلنجمعها فى الحال، ولقد أفسدتنا ولم تصلح أحوالنا، وأغويتنا وأفسدت علينا دنيانا بجمع المال. فلننظر الآن! لدينا من الأموال ما هو بهذا القدر، فهل تتمكن من أن تَسْتَمِيل فرداً واحداً، فلننظر، ما الفائدة التى عادت علينا من هذه الأموال؟.

وبدأ يكفر ببكْتَاش آغا. وأشار الموالون للآغوات يشيحون بوجوههم عنه تمامًا. شرع "سليمان آغا "فى تنفيذ التعيينات ضد الآغوات، فعين كل واحد منهم فى إحدى الإيالات، فرفض بعضهم الذهاب، واختفوا فى استانبول، وقبض عليهم "سليمان آغا" وقتلهم الواحد تلو الآخر.

كان يوجد كاتب اسمه "صَارِى "وهو من المُوالين للآغوات، وكان شَخْصًا ذكيًا للغاية ومُهَرِّجًا، ويتملق معظم الآغوات، وعندما سأل الآغوات وهم يَجْلِسون فى عظمة وكبر شديد، قائلين:

- من أين جاء "صَارِى" الكاتب؟

كان يقول "صارى" مشيراً إلى أنه جاء من الدِّيوان الهُمايُونِى:

- جئتك من أسواق العبيد.

غير أنهم لم يكونوا هم "الناجِحون الأميون "الذين اجَتمعوا حول ديوان الهمايونى، والذين نشأوا من المماليك والديْوشَيرْمَه، فالآغوات الأوجاقْلِية لم يكونوا فى نظر الأتراك سوى أجانِب فَحسب. وقد قتل بعض من المُوالين للآغوات، ونفى البعض الآخر. وتفرق الأهالى كل فى مكانه. ولم تَهْدأ حتى أقصى البلاد من الموالين للوالدة الكبيرة. فقد كان آغا البنات السابِق "جلالى إبراهيم آغا "فى مصر. وكان هو أيضًا من الموالين لها. خاصةً وقد وجه إليه تُهْمة ضُمور سوء نَواياه ضد محمد الرابع. وكانت أسْطورة "أداة الحِلاَقة المَسْمُومة للمَرْحوم السلطان جم مَقْبولة جدًا بالنسبة للسراى، فى حين توفى السلطان "جم "من مَرَض السرطان أما الخَلْق فى السراى، فقد كانوا يَمْحون من ألسنتهم حكاية أداة الحَلْق المَسْمُومة، فقد حلَق الآغوات أحدهم بها، فانْتَفَخ رأس الرجل، ودل تصرف "إبراهيم آغا" على سُوء النِيَّة من جديد، و"أظهر اضطرابًا عظيمًا فى السراى".

أرْسل الرَجل إلى مِصْر فى الحَال، وقتل آغا البنات السابق، و"تَم القَبْض" على أمواله وأملاكه، وأرسل إلى السراى.

كان أكبر رجل فى السراى حِينذَاك، هو "لالا سليمان آغا "الزِّنْجِى، ويَنْبَغى الآن توليته مَنْصِبًا يتناسب مع خدماته، ولم يكن من اللائق إبقاء "محمد آغا "فى منصب آغا البنات، وبناءً على هذا تم عزله وتولية "سليمان آغا "بدلاً منه عام (١٠٦١ هـ).

(٣)

تَزاحم فى السراى الجَدِيدة العامرة فى يوم العِيد الحادِى عَشر جَمْع غفير براق مهيب بمناسبة مراسم الحكم. وفى صباح يوم مُشْمِس من شهر مايو، بدأت تظهر استعدادات كبيرة فى دائرة آغا البنات، وكان شيخ الإسلام والوزراء والعلماء وأركان السراى يَصْعدون أفواجًا على سلالِم دائرَته المزينة حوائطها بالبلاطات الصِّينِيات المُزَرْكَشات باللون الأصفر والأخضر.

كانت مراسم التهنئة متألقة تألقًا شديدًا: لأن الدولة والمملكة فى أيدى آغا البنات، ولن يَظْهر أحد فى السَّراى من يَبْسط سيطرته سواه، وكل من فى السراى ممتن له، والسلطان محمد الرابع و"تَرْخَان سلُطَانة" مدينان له بحياتيهما وحكميهما.

أظهر آغا البنات نفوذه منذ اليوم الأول، فقد وفق فى استرداد ثمانية وأربعين ألف ريال من القروش مصالحة مع أَبْشير باشا، وهو المَبْلَغ الذى سوف تأخذه "كُوسَم سلْطانة "من التركمان. ووزِنَت الريالات بالقنطار ووضعت فى دولاب الحَرَمين. وكان آغا البنات "جلالى إبراهيم آغا" و"محمد آغا" يتشوقان كثيراً من قبل للاستيلاء على هذه الأموال، وكان وجود صاحب الخاتِم يشكل سبباً لإظهار نُفوذ منصب الوكالة.

وسرعان ما دب الخلاف بين آغا البنات والصَدْر الأعظم، وكانت توجد عداوة بين "سِياوَش باشا "ومُدِير المالية "أمير باشا ". فعُزِل "أمير باشا "مُتَذَرِّعًا بهذا الطلب : ذلك أن "أمير باشا" قد ذكر اسمه فى الورقة التى جاءت من "أبْشِير" حِينَذاك، أما "أَمِير باشا "فلجأ إلى آغا البنات وذكر فى مذكرته التى أرسلها إليه تلك السطور:

"سلطانى، ماذا يُفيد قَتْلى، فإننى صاحب قَدم راسِخة ومُحَنَّك، فإذا صدر العفو عنى، فأنا أتعهد للسلطان بتحصيل أربعة آلاف يوك آقچه فى كل دَوْرَة، من بينها خَمْسمائة آقچه فى ذمة "أحمد باشا". وهو ما يُوجد فى دَفْتَرِه التجارى، وقد عينوا ابن تاجر السجاد فى منصب مُدير المالية، فماذا أفاد بوظيفته ؟ ومَعْلوم ما قام به من سَعْى وخَدَمات للحكومة حينما عين عبدكم".

تَمَسك آغا البنات بمدير المالية "أمير باشا"، وأرسل إلى الصَّدر الأعْظم "كَتْخُدا البَلْطَجِى"، وقال:

– لا تضروا "أمير باشا"، فَهو رجل مستقيم، ولا تتعرضوا لماله.

تضايق الصدر الأعظم (سِياوَش باشا). وكان تدخل آغا البنات سيحد من انْتِقام الباشا، غير أنه غَضَب غضبًا شديدًا وقال فى حدة:

- ما أصل هذه الوزارة التى أصبحت محكومةً من عربى، ومغلوبًا منه؟

بلغت كلمات الوزير هذه على الفور آغا البنات، واعتبارًا من ذلك التاريخ قام خلاف كبير بين آغا البنات والوزير الأعظم. وكان (سِياوَش باشا) قَد نشأ مَمْلوكًا عند "آبَازَه باشا". وكان "آبَازه "مَمْلوكًا كَذلك، وقد كان جَشِعًا مَغْرُورًا، يَبِيع المَناصب بالمال، ويَحْصل على المكافآت أكثر مما يَسْتَحق، ولم يكن خلق السَّراى ممتنًا منه على الإطلاق، وبعد أن كان هدف الباشا هو قَتْل آغوات الأوجاقْلِيَّة، تحرك هو بشكل مستقل ونزع وجود آغا البنات أيضًا واقتنع "سِياوَش باشا "بإرسال العَسْكر وقتل "أبْشِير" كذلك، ولكنه أراد أن يُصادق "أبْشِير" لينل مَقْصده فى السراى، وهكذا أنهى رِسالة كان قد كَتَبها بتلك الجملة، وذلك بعد توجيه وصايا صادقة، وتحدث عن موضوع قضية صَدَارة "أبْشِير" فقال: "فَلْنَدْفَع له أولاً بالاتفاق معك، ثم يكون فى الإمْكان أن تصل أنت إلى الخاتِم كذلك".

أدرك آغا البنات سليمان آغا هذه الرسالة بواسطة الصَدْر الأعظم. فشرح أمره للوالدة (تَرْخَان سلطان) وكذلك للسلطان؛ مما أزْعَج تَرْخَان سلطانة، فاستدعت كَتْخُداها الأرناؤوطى المِعْمار الكَبِير "قاسم آغا"،

وكانت حَزِينة، وقالت إنها سوف تَعْزل الصدر الأعظم. وأوْصَى "قاسِم آغا" أيضًا على مُواطِنه الأرناؤوطى"[٧٧] كوپريلو محمد باشا". لم تستطع "تَرْخان سلطانة" أن تَنْطق، فقد كان هَدَفها تَعْيين "كورجى محمد باشا" فى الصَّدارة، وكانت أمنية آغا البنات أن يكون فى هذا المنصب، ولكنه لم يستطع أن يبوح بها لتَرْخَان سلطانة.

وفى النهاية حصل آغا البنات سليمان آغا من الوَالدة سُلْطَانة ومن السلطان على السماح بتعيين كُورجِى محمد باشا فى الصَّدِارة. وسوف ينتقم من "سِياوش "انتقامًا شديدًا، فخرج للحضور بوقار تام، وتَفَاخر عليهم بِغُرْفَة مُمَوَّهة حوائطها بطلاء الذهب، وأرسل الرجل لينادى على "سِياوُش باشا". فَجَاء الباشا، ولم يعره آغا البنات أدنى اهتمام، وما إن دَخل الباشا من باب الغُرْفَة بقلنسوتِه المُجْزَّعة البَيْضاء، حتى فتح عينيه وصَاح وقد مَدَّ يديه:

- أعطنى الخاتِم الشريف!

فتعجب "سِياوُش باشا"، وقال:

- وما هو سبب عزلى؟ فلنأت أمام السلطان، ونرى ما هو أصْل الموضوع.

لقد طلب التَّفْسِير، فَغَضب آغا البنات غَضبًا شديدًا، وصاح "بألفاظ بذيئة وهو يضرب بقبضته متهورًا" فقال:

- أيها النذل، أعطني الخاتِم وإلا سَوف أَكْسر فمك، وكان يهدد الوزير الأعظم ذى الزِّى المُجَزَّع، ولم يستطع "سياوش باشا" أن ينبس ببنت شفة. لقد وصلت جرأة آغا البنات دَرَجةً كبيرةً، وقد اعتمد فيها على أنه كان مُسْتَقِلاً بنفسه فى كل تصرفاته، وهو لا يستطيع أن يُبْدِى هذه الجسارة إذا ما أجِيز عَزْله، وفى النهاية قام بِشَرْح الأمر، وأخرج الخاتِم وسلَّمه لآغا البنات، ولم يكد سليمان آغا يَتَسلم الخَاتَم، حتى أمر الآغوات قائلاً:

- أرسلوه إلى رئيس الجنود.

ووضع "سياوَش باشا "فى السِّجْن بين الآغوات.

نادى آغا البنات سليمان آغا "على كورجى محمد باشا، وسلم له الخاتَم الشَّريف، وكان الآغا سُيقتل "سياوش"، ولكن الوالدة سلطانة تَشَفَّعت له وقالت:

- هذا الوزير قام بخدمتنا، ومن غير اللائق والمَعْقول أن يُقْتَل بهذا الشكل.

تمت مُصادَرة أموال "سياوش" وأملاكه، ونفى إلى "معلقره"، وقد ظهر دفتر من بين أوراقه كتب فيه أسماء جميع الأثرياء، وأظهر مُدِير الحسابات هذا الدفتر لآغا البنات، ولوحظ فيه ما يلى:

- انظر، فقد كان ينوى إبلاء المسلمين بالتلاعب معهم دائمًا وأخذ أموالهم وإهلاك نسائِهم، وإذا كان قد أضمر فى نفسه خيراً لكانت عاقبته خيراً.

لم يعد للوالدة سلطانة والسلطان أية أهمية فى هذا الوقت على الإطلاق، بل كان تَعْيِين الوزير الأعظم فى يد آغا البنات، وفى تلك الأثناء تم تعيين "بوينى أكرى محمد باشا" على ولاية دِيار بكر من قبل "سِياوُش"، ولم يكن ينوى الذهاب، فقد كان يريد ولاية الشام، والتى عين عليها أخى الوزير الأعظم، فاعترض الوزير، وأصر "بوينى أكرى". وفى النهاية كتب عريضة وقدَّمها لآغا البنات، وقال:

"سلطانى"! لم يتيسر لعبدكم أن يتولى مصر كما وعده حضرة السلطان من قبل، والآن اسبغوا نعمكم على من يَدْعو لكم بالخَير، وذلك بتوليته ولاية الشام أو تنسيق المجالس السلطانية".

غير أن آغا البنات كان يدرك ما فى الأمر. هذا فضلاً عن أن الصدر الأعظم كان عبداً له، وما كان ليقبل أن يَنْزَع ولاية الشام من أخيه، ولهذا السبب قَطَّب حاجبيه للرجل الذى قدَّم له عريضة "بوينى أكرى"، وقال له:

– إن سلطاننا لم يَعده بمصر، وهو يَذيع على الملأ قائلاً: وعدنى السلطان بمصر "غُروراً منه. والأحسن له أن يَقْبل الآن دِيار بكر، فهو يعرف شخصياً أننى لن أتدخل إذا رفض ولم يقبل.

وقذف بالعريضة ملقياً بها على الأرض، وفى ذات الوقت قدَّم الوزير الأعظم ورقة تفيد بأن "بوينى أكرى "قد تطاول عليه، عندئذ أرسل إلى ولاية "قانيزه "بعد أن كان فى ديار بكر.

كان "بوينى أكرى" مُحقًا فى طلبه؛ فقد كان الوزير الأعظم "كورجى محمد باشا "شخصًا لا قيمة له، وكان لا يَسْتَطِيع أن يتلفظ بكلمة "فرضًا" وينطقها غالبًا "برصًا".

أوجد آغا البنات أيضًا بعض التعيينات بداخل السراى : فقد عَيَّن مُهَرِّجه "بيقْلِى محمد الصغير الغلطه لى "مُشْرِفًا على الأصْطَبل، وكان الوزير الأعظم قد امتلك كذلك كتخدا بكتاش آغا "كورجى عمر" "حَسب جِنْسِيَّته". وبعد فترة قصيرة عين آغا البنات مهرجه فى منصب "كَتْخُدا الحُجَّاب"، وأمر بِتَولية "نُعمان أفندى الشامى" بعدما لمس منه معاونته له يوم الواقعة.

كان ألد أعداء آغا البنات هو الأرناؤوطى المِعْمار "قَاسم آغا"، الذى كان يَتَحَيَّن دائمًا الفرص للقضاء عليه، استدعت تَرْخَان سلطانة ذات يوم الكَتْخُدا "قاسم آغا "، وتحدثت معه عن أمور الدولة. فقام "قاسم آغا" بتزكية مواطِنه أيضًا "كوپريلو محمد باشا". فاستدعت الوالدة سلطانة والسلطان (آغا البنات)، وسألته تَرْخان سلطان:

- يقولون عن كوپريلو محمد باشا أنه رجل قادر على خِدْمة الدَّولة العلية، ووأنه ثاقب الرأى وماهر فى أفعاله. فَلْنُولِّيه الإشراف على المَجالِس السُلْطَانية.

لم يظهر على آغا البنات أى تأثر، واتجه نحو الخارج وهو يقول:

هل معقول يا سلطانتى؟ فلنتحر عن هذا القول ولنسأل عنه.

وأرسل الخبر بسرعة إلى "كورجى محمد باشا"، ونفى "كوپريلو" إلى "كُوسْتَنْدِيل"، وبعد أن تَخَلَّص من "كوپريلو" جاء آغا البنات ومعه "كورجى محمد باشا" بالقرب من الوالدة سلطانة، وقال لها هذه الكلمات:

سلطانتنا المُعَظَّمة. لقد أشاع كَتْخُداكم "قاسم آغا "بَيْن الناس أنه أعْطى خَمْسمائة صرة من النقود لسلطاننا، وقدَّم الخاتَم الشريف للبَيْع فى المزاد؛ وذلك بقصد الإسراع فى شــراء الخاتم، وليس من المَعقول أن يتَطاول عليكم بالكلام. ولقد نفينا (قاسم آغا) منذ بضعــة أيام، وتولى منصب الكَتْخُدا أحد الأشخاص الذين ترغبونه، فلتهدأ تلك الترهات من الأصوات.

لقد أهاب أعين الوالدة سلْطَانة، فعَزَل على الفور "قاسم آغا.

كان الصَّدر الأعظم وآغا البنات مُنْسجِمَين مع بعضيهما البعض، فكلاهما لا يتورع عن التزوير والكذب من أجل المُحافظة على مَنْصِبه. ولم يكن آغا البنات هو صاحب النفوذ الوحيد من العرب فى السراى، فقد كان هناك أيضاً معلم السلطان "محمد الرابع" ريحان آغا "وهو من ذوى النفوذ. ولقد تَعَرَّف" رَيْحان آغا "على رَئِيس الكتاب "حمد أفندى"، وأصبح يُقِيم "محمد أفندى" فى منزله، ولا يَتَحدث مع أحد، وكان فى الأصل مَمْلوكًا لأحمد باشا، وذات مَرَّة كتب فقرةً أو فقرتين، وأرسلهما مع ابنه إلى السراى وإلى رَيْحان آغا، مما أطاح بعقل "كَورجى باشا"، فأخبر على الفور آغا البنات، وقال له:

– ها! يردد ابن الرئيس (أى رئيس الكتاب) بأن مملوك أحمد باشا قد تم تعيينه وزيراً.

نفى المسكين محمد أفندى مع ابنه إلى "مدِلِّلى". ولم يَسْتَطع صاحبه "رَيْحان آغا" عمل أى شىء له. فقد سيطر (آغا البنات) و(كورجى باشا) على السَّراى وعلى إدارة الدولة كذلك. وعُيِّن آغا البنات "إبراهيم باشا الثمل" أخى "أحمد باشا" كاتبًا للحسابات فى مقابل مائتين صُرَّة من النقود، ثم مرض إبراهيم باشا بمَرَض الاستِسْقاء، وكان يحب تحرير الحسابات، فجاء إلى "كورجى باشا" وهو مريض، وقد انتفخت عيناه ووجهه، وكتب بيده وثيقة وقدمها، وبينما هو خارج من الباب، نظر الوزير الأعظم من خلفه فى تعجب، وقال:

– لقد تعهد هذا الرجل السَّفِيه بمائتى صُرَّة من المال، فهل يا تُرى سيدفعها؟ لقد انتفخ وجهه وعيناه، ولا أدرى ماذا سيؤول إليه الحال؟

توفى "إبراهيم الثمل" بعد اثنين وعشرين يومًا، وأخذت من ثروته مائة وستون صرة، "وتم الاستيلاء" على أربعمائة صُرَّة أيضًا، وأعطى آغا البنات كتابة الحسابات هذه المرة إلى "أمير باشا".

وفى النهاية لفت عجز "كورجى" أنظار أركان الدولة، بعد جمعه ثروة ضَخْمة مُعْتَمِدًا على آغا البنات، وكان عَمَله الوحيد هو نفى من يستطيع الوصول إلى مَنْصِبه الواحد تلو الآخر. ولم يَسْتطع أركان

السَّراى بعدئذ تحمل استبداد آغا البنات، كما أنهم اتخذوا "كورجى باشا" عَدوًا لهم. وشاع فى السراى ما كان سَيُوَجه إلى آغا البنات من نوايا خَبيثة، وتم طرد اثنا عشر شخصًا من طواشى حراس الغرف الخاصة ومعهم الجنود السپاهية من السراى.

وبينما كان آغا البنات وكورجى باشا مُنْشَغلين بحماية منصبهما، اضطربت الثغور فى البوسنة، ونهض "أبْشير وقاطيرجى اوغلو" للوقوف ضد السراى فى الأناضول، ولم يكن هناك فى استانبول من جنود لإرسالهم فى حرب "كريت"، فكانوا يَزجُون بالأتراك المَساكين الذين جاءوا من الأناضول إلى استانبول فى السِّجون ويلحقونهم فى الحرب غَصبًا وقهرًا، وكانوا يملأون السفن بهم ويَحْكمون عليهم بِنَفْخ الكِير سنين عدة. فى هذه الأثناء عين آغا البنات "الجَاويش ابن محمد باشا" مُشْرفًا على المَجالِس السُلْطانية، وكان يُعَيِّن من يعينه فى أرفع المناصب.

فى تلك السَّنة جاء من مصر طلب استدعاء، فانعقد المجلس بحضور السلطان محمد الرابع، وكان آغا البنات حاضرًا فى المجلس أيضًا. وكانت الوالدة تَرْخَان سلطانة تترأس المَجلس من خلف الستار. ونوقشت المَسألة المَصْرِية باستفاضة تامة، ولم تكن المسألة حول إدارة مصر، وإنما كانت عن الأموال التى سوف تُسْحَب منها، كانت استانبول فى حالة من العوز والاحتياج. فقد بلغ سعر الأوقية من اللحم ثمانية آقچات، ولم يكن هناك من يلتزم بالتَّسْعِيرة الجَبْرِيَّة، وكان المُجْتمعون فى المجلس

يقفون ضد آغا البنات و"كورجي محمد باشا"، وخاصةً "خواجه زاده مَسْعود أفندي" الذى كان من أكثر الحاضرين جُرْأةً.

تفرق المجلس، وانطلقت الشائعات بين الناس، فالبَعض يقول إن الوَزير سيتم عزله، والبعض الآخر يرى أن آغا البنات سَوف يُطْرد من السراى، فاضطرب (كورجي محمد باشا)، ودخل على آغا البنات، وقال له:

– لو أنك سوف تقيلنى، فقد أقلت، وإن كنت ستقوم بنفيي، فقد نفيت، فما فائدة التشهير بى بهذا الشكل ؟ لقد انطلقت الشائعات بين الناس، بعضهم يقول سوف يعزل، والبعض الآخر يقول سوف يُنْفى، وآخرون يقولون سوف يُقْتَل، لقد انعقد لسانى، والموت من الحكومة أهون من هذا الوضع.

كانت كثرة الشائعات هى سمة العَصْر، فاشتكى أيضًا لتَرْخَان سلطانة، وكان آغا البنات والمقربون من السراى يعلمون بعجز "كورجى"، ولكن فى استطاعتهم إيجاد من هو أفضل منه، وإن تولى وَزِير مُدَبِّر، فسوف يلحق بهم الضرر فى المقام الأول، وفى النهاية فكر آغا البنات مليًا فى المسألة، ومن أجل إنهاء الشائعات بين الناس حصل من السلطان محمد الرابع "على خط شريف وخَنْجر وخِلْعة" لكى يُؤَيِّد وضع "كورجى" المسئول عن الصدارة. وأرسل إلى "كورجى باشا "فى اليوم الثانى من المجلس.

ولكن لم يجد كل ما فعله، فقد كانت أحوال كريت مُضْطَربة، وكانت خزينة الدولة تمر بضائقة مالية، والخَلْق تُعانى من الفَقْر والحاجَة. قبض (آغا البنات) على "كورجى، بعد أن صار لا يُمْكن الاعْتِماد عليه بعد، وكان "خَواجه زاده ألد أعْداء كورجى، وفى النهاية قرر خَواجه زاده والمُفْتِى وغَيْرهما، عَزَل "كورجى"، وكان هَدَفَهم إعادة تولية "سِياوُش" فى منصب الصدارة، وجاءوا إلى آغا البنات سليمان آغا، وقالوا له:

- نَحْن ضامِنُون له فى كل الأحْوال قبل سليمان آغا، ولكن من ناحية أخرى كان لسليمان آغا خَصْم آخر: ألا وهو رئيس آغوات الوالدة سلْطانة. فلم يكن رئيس الأغوات يروق له "سسياوش". ولقد ترامى إلى سمعه هذا الأمر، فقام بتحليل وشرح ما ستؤول إليه الأحْوال للسلطانة تَرْخان، وقال لها:

لقد اتفق المُفْتى والنقيب مع سليمان آغا، وإذا تولوا الوزارة، فلن يكون لكم حكمًا فى الدولة، ولن يبقى لكلامكم أية نفوذ. ولسوف يستولى هؤلاء الأشخاص الثلاثة على كل أمور الدولة. وسوف تَرْتبط أمور الشعب وفق رغباتهم وأهوائهم، وعلى كل حال من الضرورى أن تتخيروا وزيرًا بدون مشورتهم.

وقام بمفاتحة خواجه زاده بالأمر، فرضى أيضًا، وفى النهاية انتخبوا الوزير: الطَّرْخُونْجِى أرناؤد أحمد باشا، من سلانيك. وأرسلوا إليه بالخبر، وأحضروه إلى استانبول. واتخذوا كافة الاحتياطات اللازمة

لمنع قيام "كورجى" بأعمال فتنة، وانعقد "الدِّيوان العظيم" فى قصر "يالى"، حيث كان حاضراً هنالك "كورجى". كانت القضية المَطْروحة للمناقشة هى مسألة الأسطول. ولم يكن كورجى يعلم أى شىء، وكان يجلس على كُرْسِيِّه بتعال وكبر، ودار الحديث طويلاً عن الأسطول، وكان كورجى باشا سوف يجهز الأموال اللازمة للأسطول، وقام الخواجه زاده بتوجيه النقد لكورجى باشا بسبب عدم استطاعته إعداد الأموال اللازمة للأسطول، وانتفض مدير المالية لحماية الوزير. وفى تلك الأثناء أحضر رئيس الغرفة الخاص فرمانًا همايونيًا من الداخل، "وعرضه على الوزير". فتناول كورجى باشا "الفرمان الهمايونى "بوقار، وقال:

- أنا لا أعرف القراءة، فلتنادوا الرئيس.

وكان المُفْتى يجلس بجانبه، فقال:

فلنقرأه نحن.

وتناول الخط، وقرأ:

"هل أنت وَزير نفسك، قُمْ بتسليم الخاتم الخاص بى"

تبدلت أحوال كورجى فجأة، وبدأت يداه وقدماه ترتعشان، وكان يجاهد فى إخراج محفظة الخاتم من صدره، ولكنه لم يستطع، وفى النهاية، قال مضطربًا ومنكسراً:

فك هذه، وقدّمه.

فجثا رئيس الغرفة الخاص على ركبتيه أمام الوزير، وقام بفك حَبْل المحفظة وأعطاه إياه فى يديه. فقام كورجى باشا بتقديم الخاتم إلى رئيس الغُرْفة الخاص، الذى هَرَع به إلى الداخل، ووضع كل شخص قلنسوته أمامه، وأطبق على المجلس سكون عميق.

وبعد فترة من الوقت، جاء رئيس الغرفة الخاص مرةً أخرى، ودعا الحاضرين إلى الداخل فنهض الجميع، وقام أيضًا كورجى بدون أن يتبرم على الإطْلاق، وأراد أن يذهب معهم، ولكن رئيس الغرفة الخاص قال له، وقد أسند يده على صدر الباشا:

اجلس أنت، فلقد استصدر السلطان فرمانًا بخَلْعك القلنسوة، من غير حبس.

وتم تعيين الوزير الأعظم (الطَّرْخُوْنِجى أحمد باشا) فى النهاية، بعد مباحثات هزلية مثيرة للضحك، وأرسل كورجى باشا إلى "يَدِى قُلّه"، وظل آغا البنات سليمان آغا ومن معه فى حَيْرَة من أمرهم تجاه هذه الواقعة.

كان أول شىء هم به الطَّرْخُونْجِى، هو إخراج عدد من المساجِين من الزِّنْزَانة، وضرب أعناقهم فى منتصف الليل، من أجل تخويف الشعب، وقام بتعليقهم فى الميادين التى يتجمع فيها الأهالى. فكان أهالى استانبول عندما يَفْتحون أعينهم ويتجهون إلى الشارع يرون عَدَدًا من الأشخاص المُعَلَّقة. كان قُوجه الأرناؤطى يَجْعل المساجِين يرْتدون عند حلول الليل "القمْصان والسراوِيل والزنانِير المطهمة بالخِيوط الفِضِّية".

ومن المنطقى أن الأهالى عندما يرونهم، سوف يرتعدون خوفًا مما قام به الباشا، من إعدام الكثير من الأكابر. ولكن هذا لم يكن ينطلى على ظُرفاء استانبول: فقد كانوا يَنْظرون إلى أخْمص أقدام الأشخاص المعلقة، ويمرون وهم يَضْحكون على تصرفات الوزير الأعظم.

اتخذ الطَّرْخُونْجِى جانب الشدة، وحاول أن يخضع المالية تحت تصرفه، ولكن كان يقف له بالمرصاد خصم مريع: وهو آغا البنات سليمان آغا.

لم يكن آغا البنات راضيًا بتولية الطَّرْخُونْجِى وزيرًا أعظم، لأنه لم يكن يوافقه الرأى. وكان منذ ذلك اليوم حزينًا حزنًا شديدًا. ولقد كانت الوالدة سلطانة أيضًا تشعر بنفس هذا الحزن تجاه السلطان فى أغلب الأحوال. وأحيانًا كانت تدير كلامها نحو هذه المسألة، عندما كانت تتحدث مع الوالدة تَرْخان سلطانة، وتظهر دلالها وترفعها وهى تقول:

- لا يمكن أن يدرك أحد قدر من يخدموننا بصدق وإخلاص مثلنا، لقد انتهى الأمر، ولن يخالف كلامنا

تلك كانت آخر لحظات تولية آغا البنات. فقد كان الخواجه زاده والطرْخُونْجِى يعملان على كسر شوكة الآغا تمامًا. كان حسين أفندى كاتب الإنكشارية مملوكًا لآغا البنات. فعمل الخواجه زاده على عزل حسين أفندى على الفور. مما أثار ضيق آغا البنات، وكان يُخبر الصدر الأعظم باستمرار، ويرسل المذكّرات. وضع الطرْخُونْجِى أحمد باشا من

آغا البنات، وكان آغا البنات يدرك عزله منذ اليوم الذى تولى فيه الطرْخُونْجِى الوزارة. وكانت الوالدة ترخان سلطانة هى التى تُعيينه على ذلك. فلم تكن ترى أمرًا بدون أن يبلغها به. وكان تولية الطرْخُونْجى مع الخواجه زاده علامة كبيرة على استغناء تَرْخان سلطانة عنه فى ذلك الوقت، ومن ثم العمل على عَزْله. وكانت مصر هى المكان الذى سوف يَذْهب إليه الآغا قريبًا. وعلى هذا الحال ينبغى أن يُولِّى على مصر أحد عبيده من الآن.

فكر سليمان آغا، وحاول أن يجعل بيقْلِى محمد المهرج ابن "كَلْ حَسن الغَلَطَّه لى". فى حين أنه تم عزل محمد بيقْلِى من وكالة الحُجَّاب. وأصر إصرارًا كبيرًا على الوالدة والصدر الأعظم. وحزن الصدر الأعظم والخواجه زاده وقال:

- كم هو رذيل هذا الاقتراح ؟ وبأى شكل تكون مساعدتنا ؟

ذهب الاثنان أيضًا إلى السلطانة تَرْخان. ورجواها عزله وقدما شكواهما من آغا البنات، وقامت الوالدة سلطانة بحِماية سليمان آغا هذه المرة.

وفى النهاية برز من بين الأحداث ظُهور حَفْل عرس. فقد كانت عاتِكة سلطانة أرملة كنعان باشا سوف تَتَزوج يوسف باشا، وهو وزير تحت رئاسة الطُوغانْجِى. وكان من المعتاد فى النكاح، تقديم المال ومنح الهبات والخلع للوزراء والعلماء. كانت تَرْخان سلطانة تتردد كثيرًا على

عاتِكة سلطانة، فهى بمثابة إحدى صِغارها اللاتى كبرن على يديها. وبناءً على ذلك طلبت إقامة مَراسم النِّكاح بشكل براق. وأرسلت إلى آغا البنات من أجل تَجْهِيز الفراء والمال. فرد عليها سليمان آغا قائلاً:

- لا يُوجد ذهب ولا فِراء حتى أعْطِيه.

فنادته الوالدة سلطان، وأصرت على تجهيز ما طلبته بأى شكل، وفى الواقع كان آغا البنات مَغْروراً. وتم عزله فى الحال حينما عَصى ترخان سلطانة، وأيضًا "عندما تجاوز حده، فناله الخُسْران فى النهاية بعد أن خرج عن طوره فى رده عليها".

وقد حاز (آغا السراى) القديم هذا المقام قانونًا فى الوقت الذى انحلت فيه آغوية البنات. وكان الكثير من آغوات البنات يتم انْتِخابهم وتَعْيينهم وفق رغباتهم وأهوائهم جميعًا. وقد روعى القانون هذه المرة. وصار بَهْرام آغا "آغا السراى القديم "هو آغا البنات (١٠٦٢هـ).

* * *

لم يعامل آغا البنات القَدِيم معاملة سيئة. فقد سمح له بالذِّهاب إلى مصر. كان سليمان آغا يقضى نهاره فى المنزل الواقع فى (دَمِير قاپى)، وفى الليل كان يقضى أوقاته فى (السَّراى القديم) إلى أن يأخذ اسْتِعداده. ولو أنه أفلح فى أن يُعَيِّن مُهَرِّجه واليًا على مصر، لكان قد استطاع بقاء حكمه فى مصر أيضًا.

لقد انتهى استبداد آغا البنات عندئذ من السراى، وظهر بدلاً منه سَيْطرة الخواجه مَسْعود أفندى، ولم تستطع مجموعة من العلماء أن يتقاسموا معهم مناصبِهم ودرجاتِهم. وفى النهاية حدثت واقعة مبتذلة بين أسعد أفندى المَعْزول – وهو من قضاة استانبول – وأبى سعيد أفندى – شيخ الإسلام – فقد صاح أسعد أفندى فى شيخ الإسلام:

– يا من لا تخش الله، أيها الظالم المُرْتشى، لماذا أسلَمت الأناضول إلى الآخرين، وتجاهلت حقوقى؟

فاحتد عليه شيخ الإسلام احتداداً شديداً، وصاح قائلاً:

– أيها الجاهل عديم الأدب والحياء. لقد أصْبحت الشخص الهارب الذى بلغت به الوقاحة إلى هذا الحد؟ أما لك من حدود لطول هذا اللسان؟ ألم تكن أنت من مُتَولى قهوة سنبل على؟ ألم تصل إلى هذه الرتب جميعها بالرشوة والحِماية ؟ ماذا تظن نفسك؟

لقد تضخمت الأمور. وحدثت مشاجرة تبادلا فيها اللكمات والشتائم والضرب بالفلقة والعصى والشتائم. وتدَحْرجت العمائم، وانشقت الرؤوس. لقد تناول أسعد أفندى وجبةً من العصى الفاخر من شيخ الإسلام. وفى النهاية انتهى عصيان العلماء بعزل أبى سعيد أفندى. وتولى بهاء أفندى منصب الإفتاء.

لم يتغير فى الأمور أى شىء. فالشعب جائع أيضًا، والأناضول كذلك مشتتًا، وأحوال استانبول "مؤلمة واضطربت أحوال أهلها أكثر".

وكـان من أكـثـر الأشـخـاص الذين حـازوا علـى نفـوذ أكـبـر بالأنـاضـول: القاطِيرجى اوغلو وأخوه الخادِم حسن آغا . وكانت استانبول عاجزة عن الحصول على الأمْوال ؛ لذلك أجريت المباحثات والمشاورات من أجل إصلاح حال الخَزِينة، وانعقدت الاجتماعات ، غير أنها لم تستطع أن تحصل على أية نتيجة على الإطلاق. فلقد كان الهدف من تولية الطرْخُونْجِى الوزارة هو إصلاح المالية. غير أن الطرخونجى الذى ارتقى المناصب من آغوية الصارى أحمد حتى توليته منصب الوزارة، لم يستطع أن يفعل شيئًا . وفى نهاية الأمر تم عزله وقتله. وتولى درويش باشا الصدارة بدلاً منه. وفى الحقيقة لم يكن بيده أن يفعل أىّ شىء أساسًا . فقد كانت السراى فى أيدى تَرْخان سُلْطَانة والسيدة مَلْكِى وشعبان آغا . ولا يزال السلطان صغيراً ، وحتى جوارى السراى كن يستطعن الحصول على الرتب والمناصب التى يرغبنها . فقد توسطت الجارية عنتر وهى من جَوارى كُوسم الوالدة مقبولة، لكى تجعل زوجها يتولى ولاية بغداد . ولم تكن الأناضول هى الوحيدة التى تواجه مثل هذه الغنائم: فقد كان أبْشِير يتبارز ضد استانبول، ولم يكن هنالك من شىء سوى الاستيلاء على المَنْصب. ثم توفى شيخ الإسلام بهائى، وحل مكانه مرةً أخرى أبو سَعِيد أفندى. وجاء الصدر الأعظم "قره مراد باشا من (بودين)، وتولى الرئاسة.

لم يكن آغا البنات بهرام آغا يتوانى عن إظهار نُفوذه خلال هذه الأوضاع المُضْطَرِبة لأركان الدولة والسراى. وكان منْصبه يسمح له بذلك إلى أقصى درجة. فقد كان هو الذى عيَّن الملقب مصلح الدين فى قضاء الشام.

وكان الوزير الأعظم دَرْويش باشا وشيخ الإسلام هما اللذان يقومان بتعيينه معًا. وكانت كل هذه الأمور تحت تصرف آغا البنات. ونظرًا لعدم وجود من يهتم بمصالح الرجال سوى "مَلْكِى قالفَهَ"، فقد كان لترخان سلطانة ذراعان: ذراع ملكى قالفه، وذراع آخر هو بَهْرام آغا آغا البنات أيضًا. وكان أكبر عيوب بهرام آغا يتمثل فى ولعه بالأموال والنقود، فهو يلتزم دائمًا لِمَنْ يقدم له الهدايا والأموال. ولم يكن الآغوات البيض وآغوات البلاط يرضون بهذا فى عهده على الإطلاق. وضجوا جميعًا من نفوذ آغا البنات. كان جهل (بَهْرام آغا) بالخصومة التى كانت تتأجج تدريجيًا ضده، قد جعله يزيد من ظلمه دائمًا لآغوات البلاط.

قدم العيد. ولا يزال محمد الرابع صغيرًا. وحل يوم عرفة وهو فى قصر سنان باشا على شاطئ البحر. حيث كان يشاهد هنالك المُهَرِّجين والمُحْتالِين والمُشَعْوِذين والحيوانات الوَحْشِية.

اتجه إلى الحُجْرة الخاصة، وكان قد أمضى وقته فى مشاهدة بَراعة حركات آغوات البلاط. وكان من الأصول المتعارف عليها فى ذلك الوقت اللَّهو مع آغوات الغُرَف الخاصة حتى الصباح فى ليلة العيد. فيشاهد السلاطين كل ما فى جعبتهم من مهارات وفنون فى فَنْ التَسْلِيَّة والاستِمْتاع، وكانوا يغدقون عليهم برعايتهم وإحسانهم. ومنهم من كان يرتدى فى تلك الليلة الدِّيباج، ومنهم من يرتدى الأطالِس، وهم يلفتون

الأنظار بخلعهم الحَرِيرية وثيابِهم الرَّقِيقة والجَمِيلة، وعماماتهم المطهمة، المزدانة المُزَخْرَفة. وكان يوجد أيضًا منهم "المخاديم أصحاب العِصْمة والأبْطال ذوو الطّلْعة البَهِيَّة". وكان كثير منهم "مثل حُور الجنة لا مثيل لهم ولا نظير".

يقول "ريقو"، الذى عاش فى استانبول فى ذلك العصر، وهو يتحدث عن ابتلاء بعْضهم البعض بداء غلمان البلاط: "قبل الأتراك هذا الابتلاء كفَضِيلة تستحق الافتخار للوصول إلى العِشْق الروحى، فقد كانوا يُبَجِّلون تمثال الجمال الإلهى ويكرمونه بشكل تخيلوا معه أن الإنسان سوف يستطيع أن يصل إليه. وكان هذا بِمثابة وَسِيلة يُكَيِّفونها لكى لا تبدو رغباتهم المغايرة للأخلاق. إذ إن عشقهم فى حقيقة الأمر لم يكن شيئًا سوى رغبات وله قذرة تلتهب بأرواحهم. فما لبثت أن أمسكت بتلابيبهم نِيران رغباتهم هذه، واضطرمت فيهم بشدة إلى درجة لم يكن من المستطاع إطفاؤها أو إزالة هذا الفساد الذى اعتادوا عليه، والذى تمكن من دِينهم ومن دُنْياهم. وحتى لا يلفتوا إليهم انتباه الآغوات المكلفين بخدمتهم، أوجدوا قواعد لغة حديث فيما بينهم عن طريق الإشارة ؛ وفهم أفكار بعضهم البعض فى مَهْجَعهم، وكانوا يَشْرحون ما يعتلج فى قلوبهم بأصابعهم وبعض الحركات الجَسدِية، وبإشارات الأعْيُن. وأحيانًا تبلغ شدة رغَباتِهم فى درجة غليانها إلى حَدٍّ أنهم يقلبون المَهْجع رأسًا على عقب بدون أن يُسْمِعوا الحراس ؛ نتيجة غِيرَتهم من بعضهم البعض.

والتى قد تصل أيضًا إلى درجة الاضْطرار إلى طرد بعضهم من السراى بالملابس المُمَزَّقة مثل السفلاء، وسوق بعضهم إلى الغُرَف، وضرب بعضهم بالعصى حتى الموت لكى يقيموا الضبط والربط ويدفعوا بالفوضى جانبًا. غير أن هذه الرغبات لم تكن منتشرة بين الشَّباب فحسب، بل كانت أيضًا تجد صدى لدى أكبر الأشخاص فى السَّراى. فهم يَتَحيَّنون الفرص فى معظم الأحيان لكى يرون الأطفال الذين يحِبُّونهم من خلال نوافذ مهاجِعهم أوعندما يذهبون إلى الجامع، أو يغْتَسلون أو يتوضأوون. ففى مثل هذه الأماكن يلتقون بهم ويقومون بتكليفهم بالخدمة لديهم، ويجذبونهم إليهم قدر ما يستطيعون، بتقديم الهدايا، وبتَدْليلهم وجزيل عطاياهم. وهم ينجحون فى مسعاهم فى معظم الأحيان، وبعد أن ينْجحوا فى ذلك يشرك هؤلاء الأطفال جميع مَنْ جَلَبَهم من الأفندية فى ثرائهم وسعادتهم. بل إن السلاطين لم يكونوا منزهين عن هذه الرغبات القذرة" (ص٦٢).

وبناءً على ذلك كان آغا البنات يدرك تمامًا هذه الأحوال. بل كانوا يقضون أساسًا الأعياد ولياليها بين غلمان البلاط فى معظم الأحوال من أجل إشباع أحاسيسهم على هذا النحو، ويقتحمون بين العبيد الخواص. جاء محمد الرابع فى تلك الليلة إلى الغُرْفة الخاصة. وجلس على العرش المُخَصص له. ذكر هذا الحال آغا البنات بهرام آغا. فقد كان هو المُسيطر تمامًا على السَّراى، بل كانت تَرْخان سلطانة خاضِعة لنفوذه أيضًا.

وقد ناقش هذه المسألة مع الخواجه ريحان آغا. فأطلعه ريحان آغا برأيه قائلاً:

- إن سلطاننا لا يزال بطلاً غضنفراً، ولا نَزال نَجْهل كيفية إمْتاعه وانْبِساطه، بشكل يتماشى مع نظامنا وسيطرتنا. هناك بين آغوات الغرف الخاصة وغيرهم من الآغوات من يتمتعون بجمال الأداء وملاحة اللقاء، وبجمال الوجه، فطلعتهم بمثابة مرآة للخلق الربَّانى وأشكالهم وهيئتهم نموذج لسر التناسب الرَّوْحانى. ولا ريب فى أن الانجذاب إلى هؤلاء العبِيد الأطهار، والمَحَبَّة الصادقة لصحبتهم والميل لألفتهم ومودتهم، لهو من دواعى الطبيعة ومن شِيَم النفوس الزكية. ولا جرم فى أن السلطان الطاهر لو بقى هذه الليلة فى الخارج، وانجْذب إلى حركاتهم وسكناتهم المُثِيرة، وسمع الكلمات المؤثرة المثيرة من بعض عقلائهم، وخص إليه أحد المقربين من أرباب الرشد والسداد، فلا شك فى أنه سَيَسْقط فى هذا الجانب، وسوف يَفْسد سوق سعادتنا، ويكسد متاع رغباتنا. فالصُّحْبة مؤثرة والطبيعة سارقة. وسلطاننا فى عُنْفوان شبابه ويحفظ كل ما يقع على مسامِعه؛ فهو فى عنفوان شبابه وتترقى مَداركه وتَفِيض معرفته باستمرار، ومما لا شك فيه أن مَعْسول الكلام فيما يخص الاستقلال، وما يُؤدى إلى إشباع اللذات وجلب الحظ والمتع، كل ذلك يفتن القلب الإنسانى ويَجْذبه وكأنه مسحور. أما نحن، فلا ريب فى أننا نبدو لهم فى هيئة مُفْزِعة وثقيلة؛ بسبب أننا نَتَحدث بكلام يدور حول النُصْح والإرشاد،

وفى هيئة تلتزم دائمًا بحفظ الانْضباط وتَوجيه التَحْذير، وهو ما تستصعبه الطبيعة المُلوكِية ولا يكون مستمرئًا لهم، وبسبب ما نظهره من نوع المشاركة فى إمساك زمام الأمور وتوجيه مسلكهم نحو أعمال الخَير.

والمعقول هو عدم إطالة السلطان هذه الليلة فى الغُرْفة الخاصَّة، وأخذه إلى الحرم كالمعتاد.

كان آغا البنات يصغى محدقًا بانتباه شديد، إلى "مَنْطِقِيَّة وحكم كلام "ريحان أغا. وكان يوافقه تمامًا. ويحق لآغا البنات أن يفكر فى هذا: فالسلطان محمد الرابع قد بلغ السادسة عشرة من عمره. وهو ما يعنى أنه قد بلغ السن الذى يَنْجذب معه إلى الجَمال. واستطاعت الكلمات "ما يؤدى إلى إشباع اللذات وجلب الحظ والمتع" أن تَفْتِنه. خاصةً وأنه يوجد كثير من غلمان البلاط الذين يتمتعون بـ"طلعتهم التى هى بمثابة مرآة للخلق الربانى، وأشكالهم وهيئتهم نموذج لسر التناسب الروحانى"!

قرر آغا البنات على الفور. وكانت صلاة العشاء قد أقيمت. وبدأ غلمان الغرف الخاصة فى اللعب. واستغرق محمد الرابع فى مشاهدة الآغوات وهم حول العرش، بملابسهم الحريرية، ويرتدون الطواقى المذهبة، "ويتمتعون بملاحة اللقاء ". دخل آغا البنات (بهرام آغا) مع الآغوات،

وكان على رأسه قلنسوة طويلة. ووقف بجانب العرش، وأراد أن يقول بلسان حاله لمحمد الرابع:

– ألا تتفضل فى الداخل ؟

ولم يخف ذلك على محمد الرابع، ولكنه كان خائفًا فى نفس الوقت من والدته. إن ما يقوله بهرام آغا تقوله السلْطانة تَرْخان. وكان لا يستطيع أن يحس على الإطلاق بمشاهدة اللعب أيضًا. فحاول أن يصرف آغا البنات بطريقة لطيفة عن فكره، فقال له:

– أيها الآغا. لعل سبب استمتاع أجدادنا العظام أيام العيد فى الغرفة الخاصة، يكمن فى أنهم أظهروا سُرورهم وفَرَحهم مع فضلهم ولعبهم مع الآغوات. وكان لهم حظ. فالطبيعة تستمتع، وتجافى النوم أعينها.

والأصدق أنه رغب أن يقول: دعنى استمتع هنا فى هذه الليلة. ولا تُمانع.

كان بهرام آغا يعلم أن السلطان لن يخرج، فمن الطبيعى بعدما بلغ السادسة عشرة من عمره، ألا يبقى فى المكان الذى يقول له آغا البنات "ابق"، وألا ينهض من المكان الذى يقول له "انهض". ولكن آغا البنات لم يستطع أن يتحمل. فشعر بالحسد من غلمان البلاط بشكل أسوأ من السلطان، فقَطب جَبِينه فجأةً، وخَرَج مندفعًا "وصدره يبدو مثل

الطَّبْل المُـلوكى"، وهرع إلى السلطانـة تَرْخَانة، ولكنه لم يَسْتطع أن يشبع رَغْبتـه على الإطلاق. فـقبل الأعتـاب فى الحـال. وقـال بصـوت يبـدو كـأنه يصيح، وغير متمالك لنفسه:

صاحِبة السـعادة. مـا معنى بقـاء سلطاننا هذه الليلة فى الغُرْفَـة الخـاصَّـة؟ ألا تدرون غلمـانكم بالداخل؟، فلسـوف تدخل أذنه كلمـاتـهم، ويَسْـمع أحـاديِثـهم. ثم يخـرج ابنكم عن طَوْعكم. أنتم أعلم لم تَفْـقـد السلطانة تَرْخان هدوءها، وقالت له بصوت رقيق للغاية:

– بهى آغـا، هذه الليلة ليلة عِيد. وابنى الجسـور طاهِر أيضًـا. إن مُشاهدة لعب الآغوات وفُضْلياتهم هـذه الليلة لهو قـانون قديم. فليستمتع من منتصف الليل وما بعده. ثم أدعه للمجىء إلى مَقام سكنه. غضب آغا البنات من رأى السلطانـة ترخان، كيف يمكن أن يصير هذا مُمْكنًا؟ وهو الحـاكم الوحِـيـد فى السـراى، فلم يعط أهمـيـةً لكلام السلْطَانة على الإطلاق. وقَفَزَ من أمامها فَجاةً، ودخل إلى الغُرفة الخاصَّة بحِدة، وبعد أن قبل الأعتاب وفقًا للأصول، قال بِلَهْجة حادَّة لمحمد الرابع:

– تفضل بالدخول!

أثارت هذه اللَّهجة ضِيق السلطان. فقطب هو أيضًا جبينه، ولم ينظر حتى إلى وجه الآغا وقال له:

– نحن نستمتع هذه الليلة فيها.

فغضب الآغا لِعدم انْصِياع السلطان لكَلامِه. ففتح عينيه فى هيئة لم يستطع معها أن يتمالك فيها نفسه من انفعاله، وقال "بِحِدَّة وغضب":

- تُريد حَضْرة الوالدة منكم أن تتفضلوا.

ولم يعتبر حينذاك بمقام وحرمة السلطان ولا لشىء أخر. لقد كانت سَيْطرة العربى مخيفة ومروعة، فلم يكن يخشى لا الوالدة سلطانة ولا السلطان، وتحدث كذبًا عَلَنِيًّا، لقد أدهشت جرأته هذه السلطان محمد الرابع. غير أنه على كل حال، إذا كان قد أخذته الجرأة من والدته فلن يستطيع أن يبديها، فقال لنفسه:

- هذا تأكيد قوى، ففى الغالب هو ينحاز لها.

فقد كان ينقاد لأمه انحيازًا شديدًا. فضاقت رَوْحه، ولكنه لم ينهض من مكانه فجأة. ونظر فيما حوله فى حَيْرة ودَهْشة. ثم نهض، ولم ينبس ببنت شفه، وذهب مُبْتَعداً تجاه الحرم.

تركت سَيْطرة العربى هذا، حاجب الباب والآغوات البِيض وآغا غِلْمان الغُرْفة الخاصة فى حَيْرة من أمرهم. فقد أخذت الجميع الدهشة.

لم يكد محمد الرابع يَذهب إلى الحرم، حتى ظل آغا البنات مع آغوات الغُرْفة الخَاصَّة، ولم يذهب مع السلطان من أجل أن يَشْرح لهم المَسألة. تركز رأيه حول: ما دام الهدف من لعب آغوات الغُرَف الخاصة

هو الحُصول على الذهب، بناءً على ذلك فسوف يحصلون عليه إذا أعْطاه هو لهم. وفى الحال أخرج لهم كِيسًا من الذهب، وفى اللحظة التى كان سينثره على الآغوات، إذا بعدد من الآغَوات ورئيس الغرفة الخَاصة يلْتَفون حوله:

- أيها الظالِم المُتَجَبِّر! ما فعلته بانعدام تأدبك؟ أليس الخدام الذين تبوأوا مكانة منذ نشأة الدولة العثمانية فى البداية هم عَبِيد الخواص للسلطان؟ ألا تدرى أن الاستمتاع فى الغرفة الخاصة خلال أيام العيد خاصةً، وفى كل وقت برغبة الملوك السابقين، هو بمثابة قانون، وأنت ظللت تعمل على عَدَم استمرار سلطاننا فى جعله يَسْتَمتع ساعَتِين. إن تسلطك وسيطرتك جعلتك تنطق هَذا القول، وما سمحت لنا بالقرب من السلاطين. وبغض النظر عن هذا، أليس قلة أدبك فى مخاطبتك السلطان وقد فَرَضت عليه أوامرك بقولك "تعال، فإن والدتك تُريدك!" وكأنك تتحدث مع شخص وَضِيع، أليس هذا يعد هتكًا لحُرْمة السلطنة؟

لم يتمالك الآغوات أنفسهم. كانوا يعلمون أساسًا أنه يُمثل خَصْمًا كبيرًا لهم. وكل من فى السراى يُعد عدواً لآغا البنات. حتى أنه لفقت ضده، فى وقت من الأوقات، الافتراءات بأنه يفكر فى حُكم الدولة مع طفْل صَغِير، ويدبر لقتل أخَوات محمد الرابع. والآن حان عليه الدور: فمن الضرورى أن يُصْفَع بهذه الافتراءات على وجهه. وصَرَخوا فى وجهه بحدة وانفعال:

- هل تَزِن ما سمعناه بما تُفكر فيه من إهانة الأسرة الحاكمة؛ حتى إنك لم تقنع بهذا القدر من سيطرتك وتسلطك، بل تفكر فى الاسْتِحْواذ على العالم؟

كان آغا البنات فى وضع مُخِيف. فبينما كان آغوات الغُرْفَة الخاصة يقومون بتهديده ويسْتَحْقِرونه، فمن جهة أخرى كان غلمان البلاط الذين يفورون فتيةً وقوةً بشبابهم، يُكَفِّرونَه بـ"بكلمات عِتاب واسْتَهْجان يعف اللسان عنها"، ويصرخون فيه، حتى إنهم لم يستطيعوا أن يتمالكوا أنفسهم، وعلى الفور"أظهر خَنْجره"، وصاح قائلاً:

- نحن وضعناه فوق رؤوسنا بهذا الشكل، لنَنْتَقِم أو نُقتل.

مشى تجاه الآغا، كان آغا البنات شخصًا ضخم الجثة قوى الشَّكِيمة، وفهم أنه لن تفيد أية وسيلة سوى الهرب من هذا الهُجوم، وفر واثبًا من مكانه عند هجوم الغلام الممسك بالخَنْجر. وهَرع عليه فى الحال عائلة البالْطَجِى وأحاطوا به، وتمكن بهرام آغا من أن يتخلص من الأزمة بسرعة. ولو لم يكن قد استدار قليلاً لكان قد غُمِد الخنجر فى صدره تمامًا.

كان اليوم التالى هو العِيد. لم يتغير غلمان البلاط على الإطلاق، وقد ارتدوا ملابسهم المُطَلْسَمة والحَرِيرِيَّة، وأرديتهم الرقيقة والجميلة، وقاموا بإطلاق "أنواع جميلة من البخور والعَنْبر". أقِيمت صلاة العيد، ووضع العرش أمام الغُرْفة الخاصة، وجلس محمد الرابع على عرش

"نَريمان وار". وفى البداية قبل الأعتاب ذوو الجدائل المُضَفَّرة والقلنسوات المُذَهَّبة، والطاقيات الذَّهَبِية، ثم فعل ذلك المسئولون عن حفظ الطعام والقائمون بأعمال الموائد.

وفى الليل كأنه لم يكن قد حدث شيء فى السراى على الإطلاق. ولم يكن آغا البنات ليترك مسألة هذا الخَنْجر تفوت من جانبهم. فلا يُوجد مَنْ هو أعلى من موقع آغا البنات ليس فى السراى فَحْسب، بل كذلك فى مؤسسات الدولة. ومن الناحية القانونِية، كان الوزير الأعظم وشيخ الإسلام هما فقط اللذان يستطيعان أن يتقدما عليه. غير أن مَنْ بيدهم إدارة الدولة كانوا من الجَهل وانعدام الأهلية بالدرجة التى سيطر فيها آغا البنات عليهم جميعًا معنويًا وموضوعيًا وبناءً على ذلك لم يكن هناك وسيلة سوى إبعاد الآغا عن السراى، وكان ذلك نتيجة افتراءاتهم ضده، وعلى أحسن الفروض فقد كانوا يستطيعون استنهاض الإنْكِشارِيين والجنود السِّپاهِيين ضده. وكان مركز الإنْكِشارِيين فى ذلك الوقت هو جامع "اورْتا جامِع "، ومركز السپاهيين هو "خان السپاهيين"، فأحاط غلمان الغرفة الخاصة بالأمر، وكتبوا مذكرتين، أرسلوا أحداها إلى "أورْته جامع"، والأخرى إلى "خان السپاهيين". وكان فَحْوى المذكرة يتناول:

"قام آغا در السعادة بِتَدْبِير مَكِيدة للأمراء من أجل السيطرة على الدَّولة. ولا يُوجد أحد فى الحرم الهمايونى يستطيع دفع هذا الأمر.

والمنوط بدفع هذا الأمر هم ضُبَّاط الجنود خاصةً، فضلاً عن خدمة أعْيان السَلْطَنة، فلا تكونوا فى غَفْلَة من هذا".

حل يوم العيد الثالث. ولم تكد تصل المذكرتان "حتى" اجتمع الأوجاقْلِية الشهباء فى منزل الآغوات السود، وعند آغا الباب "حاجب الباب". لم يُصَدِّقوا ما جاء فى المذكرتين. وأخبروا خِفْيةً آغوات الغُرْفَة الخاصة. ووجهوا إليهم الأسئلة حول "حقيقة ما ورد فى المذكرتين".

فأجابوهم: نعم، فكل ما جاء فيهما حَقِيقى وواقع.

ما حدث كان كافيًا آنذاك لإشاعة الهمسات على الفور. وتم إعدام كثير من الأكابر، وبدأت جميع الأفواه تتفوه بما قام به آغا البنات. حتى لقد كاد أن يكون مثار حديث المجتمع بأسره.

علم آغا البنات بمسألة المذكرتين، وذهب عقله من رأسه. وكان يعرف تماماً حادثة أغوات الأوجاقْلِية. وكان يعرف أنها قد تَنْتهى بلا شك بقَتْلِه فى نفس الحادثة. فهرع لتوه إلى المُفْتى، وكانت العلاقة وطيدة فيما بينهما، وتناقشا نقاشاً طويلاً، فقال له: ذهب الرجل إلى منازل كثير من الأكابر.

- إننى أتوسل إلى جَناب السلطان والوالدة سلْطَانة، حتى ينقذنى، ويرسلنى إلى خدمته بخير الدعاء له فى مصر.

كان المُفْتى أبو سعيد أفندى قد لمس شدَّة رقة آغا البنات، غير أن خروجه من السراى لم يكن يَجد من الأمر شيئًا.

وفى ذلك اليوم نادت تَرْخان السُلْطَانة المفتى أيضًا وكانت تعلم تمامًا بحقيقة ما جرى بالأمْس، أن (آغا البنات) هو الذى تسبب فى حدِوث الواقِعة. ولم يكن قد بت فى هذه المسألة أى شخص، ومع ذلك فقد استقبل أمْرَه بالصمت. فقَدِم المفتى إلى إدارة السلطانة تَرْخان، وكان السلطان أيضًا إلى جانب آغا البنات. ولم تكد السلطانة تَرْخان تفتح الموضوع، حتى أبدى المُفْتى أفندى برأيه هذا:

– هذا هو حال الدولة. لا ينقطع فيها النِّزاع والجدال. ولن يكون هناك ضَرر ما دام الأمر يُمكن دَفْعه بسهِولَة وبحسن تدبير.

ثم التفت إلى ولى نعمته آغا البنات، وقال:

– ليس من المناسب الآن أن ترغبوا فى الذِّهاب إلى مصر. فحينذاك سوف تُعَيَّن على تصديق افتراء الأعداء. فمقامكم ذا مكانة مهمة. ونحن سَوف نُرْضِى أغوات الغُرْفَة الخاصة. وليَعْمل كلا الطرفين على التعامل بأدب وذوق. ولن يكون من اللائق التطاول وتَحْقير الغير. وسوف يتبدل الشقاق إلى وفاق، والعداوة إلى مُرُوة.

ثم قام بتهدئة السلطان والوالدة سلطان أيضًا. وبعد ذلك قدم إلى الغرفة الخاصة. وألقى نَصيحته إلى السلاحْدار آغا الباب وغيره من الآغوات، وقال إنه يثق فى آغا البنات. وبهذا الشكل نَجَح فى إبقاء آغا البنات فى مَنْصبِه.

وأرسل أيضاً إلى الإنْكشاريِين والسپاهيين ليخبرهم: "إنه لا صحة لهذه المذكرات "، فقد شرعوا فى توجيه افتراءاتهم غير اللائقة بهذا الشكل رغم أن التعامل بالداخل يكون باللطف فيما يخص التفاصيل الدقيقة التى تخص العلاقة بين المقربين. لماذا يَرِد على الذهن هذا الكلام والأقاويِل ؟ فالتزموا بضَبْط الأشخاص وقَطْع ألسنتهم.

ساد الصمت المطبق المكان تماماً. وبعد فترة من الزمان سِيق إلى مصر شخص أو شخصان مع الغُلام الذى رَفَع الخنجر على آغا البنات. ولقد ظهرت لهذه المسألة تأثير كبير أيضًا على ملكى قالفه وزوجها شَعْبان آغا، ولم يكن فى الإمكان إزالة الخصومة من السراى.

لم يكن أخلاق رجال الدولة فى السَّراى وأحوالهم تجاه هذا الوضع المؤلم، فوق المستوى اللائق بهم، فقد كان (مسك زاده إمام زاده) – وهو قاضيعسكر – لا مثيل له فى أخذ الرشوة والاختلاس. فكان يَبِيع كثير من مناصب القضاء ويقول عن أصحابها أنهم متوفون. وكان المشترون لهذا المنصب حينما يذهبون لوظيفتهم، كانوا يجدون الشخص الذى اشتروا درجة مَنْصبه بِوفاتِه، سلَيمًا معافىً. فيأتى الشخص متأثرًا ومضطربًا إلى استانبول، ويشرع فى التَّظَلُّم قائلاً:

– أنا حى ولم أمت.

حينذاك لم يكن الـ(قاضى عسكر) يَشْعر بالخجل على الإطلاق، وهو يقول:

– سبحان الله، يخبرون بوفاة أرْبَعة أو خَمْسة من المسلمين الثقة، وهم لا يزالون أحياء، لن يسبب هذا الأمر مُشْكلةً أو أذية.

وكان يبقيه فى مَنْصب القضاء بعد أن يَسْحب مرةً أخرى منه أموالاً، ويُرسله إلى مكانه ويُسارع فى القول لمن يشترى المنصب هذه المرة على غِرار الشكل السابق:

– لا تتوقف عن الاتصال بى، سوف نُوجد لك مكانًا.

صار قضاة العسكر وكاتبِيهم الذين يتَصرفون بهذا الشكل، قارُون زمانهم فى ظل الرشوة التى كانوا يَحْصلون عليها. وكان المُفْتِى يَشْرع فى تَكْفِيرهم واستحقارهم إذا تقاعسوا فى أداء عملهم. كتب بعضهم مذكرة للمُفْتِى، واستحضر فيها حصوله على الرشاوى منهم، ولم يقنع بذلك، بل عمل على إبعاده، وكان يضربه على وجهه باستحقار تام. وقد استحوذ الولع بتولية منصب المَشْيَخة بين العلماء وشَغِفوا به أكثر من حبهم للعلم والفَضِيلة. كان الصدر الأعظم شخصًا عجوزًا بلغ السبعين من عمره. وكان يبيع المناصب أيضًا بالمال، بل ويُجْبر الدَفْتَردار على أخذ الرشاوى علنًا. جعل منصبه شُغْلَه الشاغل، وفى النهاية كان السبب فى سقوطه، وحرمانه هو والباشا من منصبيهما ومن أموالهما أيضًا. وأرسل رئيس الأطباء من أجل الكشف على الوزير الأعظم، وقدم آغا البنات بهرام آغا رئيس الحكماء للمثول أمام السلطان. فسأله السلطان، ورد عليه رئيس الحكماء:

- سلطانى، إن مرض الفالج مرض عضال لا علاج له. بل علاجه بالتدابير الصِّحية يطول كثيرًا إذا كان المَرِيض شابًا، ولكن وقت الشَّيْخُوخة لن يقبل العلاج بأى شكل، خاصةً وأنه يصيب الشاب والشيخ العجوز على حد سواء.

وكان مقتنعًا بعدم جدوى درويش باشا فى تولى الأمر، فبدأ البحث عن شخص يحمل "الخاتم الشريف"، وقد اشترك فى المذكرة التى أعدت فى السراى: شعبان آغا، وزوجته ملكى قالفه، ومرجان آغا رئيس آغوات عايشه سلطانة، وغيرهم. وتعدد المرشحون. وكان كل شخص يرغب فى تولية الصدارة شخص يعود عليه هذا الأمر بالنفع. وفى النهاية أصدر القرار بتولية أبْشِير باشا، وكان آغا البنات بَهْرام آغا أحد المؤيدين لأبشير باشا.

وبعد أن تولى الوزير الأعظم، كان يلزم أيضًا تَعْيين قائِمقام بالأستانة أيضًا. وكان ملك أحمد باشا الأباظى زَوْج السلطانة قايا يَطْمع فى هذا المنصب، وكان قد مَلَّك مَنْزِله لـ"ملكى قالفه" لكى يستفيد من نفوذها، بل أنه أرسل حُجَّة البيع والشراء كذلك. وبالطبع تم تعيين ملك أحمد باشا فى منصب القائِمقامية فى الأستانة.

غير أن مجىء زوربا أبشير إلى استانبول كانت مسألة مهمة. فلم يكد أبْشير باشا يمسك خاتم الوزارة حتى بدأ يُحكم قَبْضته على الأناضول، ويَشْوِيها بالنيران، حتى أنه أيد عصيان أبْشير فى استانبول.

واستولى اضطراب عظيم على آغا البنات. وأراد أن يحيل مسألة اختيار أبْشير على المُفْتى، ولكن المفتى حاول أن يهدأ آغا البنات، وقال:

– يا بنى. لا تتضايق. غير محتمل أن يَخْرج الوزير العالى الشأن المُعَمَّر، عن الحرم الخاص السلطانى بهذا الشكل، خاصةً وأنه قد أنعم عليه بالخاتم، فهذا يعد حدثًا غير مسبوق وهو لم يسارع فى المجئ، فتعامل بوقار وحكمة، ولا تَسمح بظهور أراجِيف الناس، إن الدولة العلية هى بمثابة إعْصار جاذِب، يجذب الصدر الأعظم إلى هذا الجانب رَغبةً وقهرًا، ولن يَستحسن هذا الوضع البابُ العالى وخارج البلاد.

اقتنع آغا البنات، وكان مرجان آغا رئيس آغوات عائِشة سلطانة، أحد المؤيدين لأبشير. وكان يتمتع بنفس نفوذ آغا البنات فى السراى، وبناءً عليه كان اختيار الوزير الأعظم وطلباته، وهو الذى يحكم تركيا، خاضعًا لرأى عربيَّين.

فى تلك الأثناء، كان يوجد فى استانبول قره مراد باشا وهو بطل سلْطَنة الآغوات. وطلب أيضًا "المُهْر الشريف"، ولكن بعد أن نال أبشير الخاتم، فقد قنع على كل حال بأن يفوتها على أن ينال الخاتم من بعده.

وفى النهاية اقترب أبشير باشا من أذميد. بعد أن سادت الأحْزان الأوساط، وداخلتها الاضطرابات الطويلة. وكان لا يزال يوجد باستانبول

من يتوسل بآغا البنات لتولى الوزارة. وكانوا قد وفقوا أيضًا فى وساطتهم، وحاولوا أن يستقدموا الدَفْتَرْدار إلى منصب الصدارة.

انعقد المجلس مرةً أخرى فى السراى، لأنه سوف يؤخذ المهر من أبشير، وكان موافقًا على تقديم مهر آغا البنات إلى الدفتردار. وكان مراد باشا حاضراً فى المجلس أيضًا أما السلطان فقد كان يريد إعطاء المهر إلى مراد باشا. فاضطرب آغا البنات اضطرابا شديداً، وأحدق بعينيه إلى مراد باشا بانفعال تام، وتفوه بتلك الكلمات لمحمد الرابع:

– سلطانى. إنكم تصغون لكلمات مراد باشا. أليس هذا الظالم هو السبب فى قتل والدكم السلطان إبراهيم؟

وفى النهاية تفرق المجلس. وخَرج الجميع نحو الخارج. وهاجم المُؤيدون لآغا مراد باشا هَجْمةً واحدة بخناجِرهم المسلولة على مراد باشا، حتى أنهم أجبروا الباشا على أن يلمس الخنجر "الخنجر المسلول".

كان قد تقرر وجود المهر الشريف عند أبْشير. فلم يكن هنالك مَفَر من توليته الصدارة. وأرسل المعلم ريحان آغا لكى يستدعى أبْشير. ودخل أبشير استانبول بموكب فخم. وتزوج من عائِشة سلطانة.

باشر أبشير باشا مهامه بأعمال القتل والمُصادرات. وقنع بملأ الخزينة بالأموال التى صُودِرت. وعلى الرغم من أن آغا البنات كان أهم أسباب تَقْلِيده الصدارة، إلاَّ أنه تجاهله بمجرد توليتها. بل إنه قام

بإعطاء السلطان والوالدة سلطانة تَرْخان الهدايا والتحف فى عيد النَوْروز، ولم يقدم إليه "أية هدية "على الإطلاق.

بدت الأناضول عند تولية أبشير الصدارة، فى مشهد مؤلم، فقد استمر الظلم بكل شدة. وانهمرت الأهالى على استانبول أفواجًا، وتسمع فى كل مكان أيام انعقاد الديوان، صرخاتهم وشكاواهم التى يمسكونها بأيديهم. وألقوا بالمسؤولية على السپاهيين الذين استقدموا أبشير إلى استانبول بوعود كبيرة.

وكانوا يدخلون البيوت فى جنح الظلام، ويقبضون على كل أفرادها. ويستولون على كل ما تطوله أيديهم باسم التصدق على الفقراء. كان المشهد الحقيقى للإمبراطورية العثمانية عبارة عن استشراء الظلم فى الأناضول، والطمع فى استانبول، والاضطرابات الدموية والنارية فى كريد وبينما كانت ملكى قالفة وشعبان آغا يملآن الذهب بأيديهما فى الأكياس وهما يتصدران لإسْقاط أبشير وتولية مراد باشا فى الصدارة، قامت الفتيات الشابات اللاتى قد انتهكت أعراضهن وسلبت بيوتهن بأيدى جنود الباشوات البنادق فى الأناضول، بشنق أنفسهن فى الأشجار وإنهاء حياتهن. كم كانت هذه الإدارة فاسدة غادرة! لقد جردت الأجيال الأخيرة من الأسرة العثمانية بلدًا عامرًا فياضًا بالخير وشعبًا سَخيًا، وقامت بتسليمها إلى أيدى المجرمين من الديوشيرمه لينهبوها. لم يستطع السپاهيون الذين انزلقوا نحو الفقر والعوز، أن يحتملوا هذا الوضع،

وكانوا أكثر المتأثرين بالاضطرابات التى قامت فى الأناضول. وكانت أكبادهم تتحرق قائلين "لقد مات الساحلِ البعيد"، وكانت الأناضول هى "الساحل البعيد". أما مراد باشا الأرناؤطى، فقد حاول الاستفادة بشتى الطرق والحيل، وجاهد للحصول على "المهر الشريف". ويعد الأرناؤطى الكبير "أبى الفتن" كما قال عنه "نعيما".

وفى النهاية تماوجت استانبول بضعة أيام بأمواج مُتلاطمة من الشكاوى والتظلمات. وبرز مرةً أخرى "عَلَم رسول الله صلى الله عليه وسلم.

كانت شكاوى الأهالى، وعصيان الأوجاْقلِّية، وتذمر وتهيًّج السپاهيين لفقرهم، قد أفاد مراد باشا الأرناؤطى. فلقد أتت الفتنة التى بذرها ضد أبشير ثمارها. ولقد أظهر تمنعه الزائف فى بداية الأمر حينما قدَّم له محمد الرابع المهر، وقال له:

- أيها اللالا، خذ المهر، لقد استوزرتك.

ثم قال "باكيا" وقد ذرف دموع الرياء من عينيه، والسرور يملأ قلبه، عندما اتفق معه محمد الرابع وأبرم معه بجهالة:

- أمرك أيها السلطان.

ودخل المهر الشريف جيب مراد باشا الأرناؤطى. فى تلك الأثناء كانت قلنسوة أبشير آبازه تهتز متأرجحة إثر الرياح التى كانت تهب شديدةً، وكانت مُعلَّقة فوق عصا ببيت الخلاء!

لم يستمر مراد باشا فى الصدارة طويلاً، وكان هو من أشد المحرضين على العصيان ولكن كان من الضرورى أيضًا الترفيه على السپاهيين الذين خدعوه. فقرر مراد باشا الانْسحاب من الصدارة عندما أدرك أنه لن يستطيع أن يفلح معهم. وتولى مكانه سليمان باشا المَلاطْيَه لِى. وسلك مراد باشا طريق الشام، وكان محمد باشا الأرناؤطى وهو من مواطنى بلدته، مقيمًا فى "حماة". فحل ضيفًا على سراى محمد باشا، حيث توفى هناك وقد عشق حماة.

خمد العصيان فى استانبول. غير أنه لم يكن قد فعل شيئًا مطلقًا لتخليص الأناضول من الظلم وسلط على الأناضول أكثر الولاة ظُلمًا. وتشجع الخلق على أن يبحثوا عن علاج إزاء هذا الوضع. فلم يقبلوا الولاة الذين لم يرغبوا فيهم، ودافعوا عن أنفسهم بالسلاح ضد الظلم الذى أرسلته السراى.

ولم تكن الأناضول وحدها التى عانت من ظلم الأشخاص الذين سلَّطَتهِم السراى على الولايات من أجل رفاهيتها، فقد شرع آغوات البنات المَطْرودون من السراى فى التسلط والتحكم فى مصر أيضًا. ومكثوا ما بقى من عمرهم يتمتعون فيها بثراء وغنى فاحش. وإذا ما ظهر عِصْيان فى بلاد الحبش نتيجة الظلم وانْعدام الإدارة، تصدر الأوامر لـ"عَبِيد مصر" بالذهاب إليها فى الحال. وفى نفس الوقت صار لآغوات البنات المنفيين الكثير من العبيد والأتباع أيضًا، وهم الذين لم يكن يصدر إليهم أى أمر، وفى النهاية قام عَبِيد مصر بالعصيان وقالوا:

- نحن دائماً مكلفون بصد المجرمين العُرْبان، وبإرسال الأموال من الخزائن، وبخدمة أمير الحاج، ولم نتوان عن أداء الخدمة فى كل مرة. فلتكلفوا بهذه الخدمات هذه المرة عبيد الآغوات الطواشيين وأتباعهم. فهم أصحاب مال ويَسر كِبير فى دولة السلطان، وليقوموا بأداء عمل واحد من الأعمال.

فى تلك الأثناء كان يُوجد فى مصر من آغوات الحرم وآغوات البنات ما يقدر عددهم بثلاثين من المطرودين من السراى، والمأمورين بالإقامة فى مصر. وكان أوزون سليمان آغا منقذ السلطانة تَرْخان يمثل العصر الحالى، وكان يتمتع فى مصر بنفس نفوذ وثراء آغوات البنات، وقد أحضر أمواله كلها إلى مصر عندما قَدِم من استانبول. وكان يمتلك فى يده معظم قرى مصر وأخصب أراضيها. فكان يدخل فى أكياسه تلالاً من الأموال. كانت هذه الثروات تنصب فى أعين الأعيان وعَبِيد مصر. كان الأعيان يوافقون على اقتراح عبيد مصر، فعرضوا الأمر على الآغوات العرب. وكان الآغوات وهم المبعدون من السراى، يعتمدون الآن على نفوذ السراى، وهو شغلهم الشاغل. وكانوا يردون على عبيد مصر بقولهم:

كم نتحمل؟ وما شأن عبيد مصر؟ وهل يوجد من يقوم بتكليف هؤلاء الأشخاص عنوةً للخواص والمقربين المكلفين المقربين فى الحرم الهمايونى ودار السعادة المَيْمُونة منذ ضم مصر؟

كان هذا الجواب سبباً فى نشوب مصادمات عنيفة بين عبيد مصر وعبيد آغوات البنات، حتى حدث قتال فيما بينهم. كان والى مصر فى الواقع ضد آغا البنات. فأغمض الطرف عن هذا القتال. وتم نفى عدد من الآغوات "إلى (إبريم) بتهمة عدم الانصياع والامتثال للأمر "وقتل واحد أو اثنان منهم أيضاً. وفى تلك الأثناء هرب إلى الشام النديم مسعود آغا وطاش ياتر على آغا آغا البنات المعروف لدى السلطان إبراهيم، وقدموا من هناك إلى استانبول. وقدموا شكواهم إلى السراى. وألحق الآغوات الهاربون إلى استانبول، بجماعة الندماء، وأغلقت القضية بهذا الوضع. ولكن لم تكن الخصومة فى قلوب آغوات العرب قد أزيلت على الإطلاق.

لم يستطع الصدر الأعظم الجَديد أن يوفق فى القيام بعمل شىء، وفى الحقيقة، فإن وظيفة الصدر الأعظم تعد من المهام البَسِيطة: التكفل بتقديم رواتب العبيد، وتحمل إسراف السراى وإدارة الدولة، والأشياء التى لا تَخْطر على العقل والخيال، وتوفير رفاهية الشعب وسعادته لم يستطع سليمان باشا أن يدرك هذه المهام البسيطة جداً. بل على العكس أثار عِصيان الأوجاقْلِيَّة بتقديم الرواتب بأموال الحانات والملوثة بالخسة. هرب سليمان باشا من الصدارة بسبب العصيان، وتولى من بعده أولاً: دلى حسين باشا قائد كريد، ثم سورْنازَن مصطفى باشا، وفى النهاية تولى من بعدهما سياوش باشا آبازه.

استمر العصيان. وأغلقت جميع المحلات فى استانبول. واشترك فى العصيان الإنكشاريون والسپاهيون. وكانوا قد أرسلوهم إلى حرب كريد، وصرفوا رواتبهم بمال مُزَيَّف. كان التجار قد رفضوا التعامل بهذه الأموال. وكان الآغوات السپاهيون هم أكثر من أداروا العصيان.

استمر العصيان بضعة أيام. كان الآغوات يَعْلَمون من يُثِير الاضطراب فى المملكة: "وهم الآغوات والندماء المقربون للسلطان". وكانوا يقومون بتغذية السرايات العالية، والخدم والفرس التى لا حصر لها " ويتدخلون فى كل أمور الدولة.

بناءً على ذلك كان يجب إقالتهم فى بادئ الأمر. ونظمت أسماء الأشخاص التى يرغب الآغوات السپاهيون فى قطع رؤوسهم. وعلى رأسهم آغا البنات بهرام آغا. وكانت سيطرته قد تجاوزت الحدود طيلة سنوات تحكمه فى السراى. وكذلك آغا الباب إبراهيم آغا البُوسْنَوى وراجو إبراهيم آغا والخواجه بلال آغا. وفى النهاية لجأوا إلى أبواب السراى فى قافِلة عظيمة، واستدعوا السلطان إلى قصر المراسم، وشرحوا بالتفصيل آلامهم وأوجاعهم. وعرضوا أحوال المملكة قائلين:

- لقد خربت نواحى المَمالك بالكامل، وفر كثير من الرعايا إلى دار الحرب.

وهذا حقيقة: فقد كان يهرب كثير من البشر بسبب الظلم الذى رأوه منهم فى أوطانهم، وبسبب ظلم السراى، ونفوذ الأجانب.

استمع محمد الرابع لشكاوى الآغوات. ووعد بنفى آغا البنات وغيره من الآغوات. فلم يستمعوا له، وقالوا:

- لا. لن نستريح حتى يتم قَتْلِهم.

وفى النهاية استجيب لرغبات الآغوات. ففى بضع دقائق كانت تندفع من أسوار السراى نحو الشارع ثلاثة نعوش، وكان آغا البنات بهرام آغا من بينهم (١٠٦٦هـ).

دام العصيان بضعة أيام. وولى (دلاور آغا) فى مَنْصب آغوية البنات. وتم القَبْض على الأسماء المكتوبة الواحد تلو الآخر، وتم تعليقهم على شجر الدُّلْبْ الموجودة فى ميدان "السلطان أحمد". وتم القبض أيضًا على أكثر السيدات نفوذًا فى السراى: وهى "ملكى قالفْه"، وتم إعدامها أيضًا، وأحضروا جثمانها مَسْحولةً إلى السلطان أحمد، حيث علقت على شجر الدلب غير أن هذا العصيان على أية حال كان يجب ألاَّ يَمر سُدى. إذ إن كل عصيان وكل تغير وانقلاب حدث فى استانبول كانت نتيجته أن تَولى مَناصب السعادة بضع أشخاص من الطمَّاعين الذين يتحينون الفرص دائمًا. وفى النهاية كان"الخواجه زاده مسعود أفندى"من أكثر المستفيدين من هذه الفرص. ونال لقب "مُفْتِى الفِتْنَة"، وتولى مقام المَشْيَخة بمشقة بالغة. لأنه كان واحدًا ممن حرضوا على العصيان. كان الخواجه زاده جاهلاً، ولكنه كان يعلم جيدًا كيف يتحدث، وبصورة يبدو فيها صادقًا. وكان يجاهد منذ سنوات للحصول على

مَنْصب المشيخة. وفى اليوم الذى نال فيه مراده أرسل مذكرة إلى السراى. ورجا أن يُقَبِّل الأيادى فى غرفة العرض وفقًا للقانون القديم. قُبِل رجاؤه. وعندما جاء "مُفْتِى الأنام" إلى غُرْفَة العرض، استلفت ثيابه الذى كان يرتديه انتباه الجميع وأثار حيرتهم، فقد ارتدى الخواجه زاده ثيابًا ذا فراء فخم من الجوخ الأبيض، به ياقة أسفل الزنار، وهو ثياب خاص بولاة الروم إيلى، وعلى ظهره عباءة ذات فراء طويلة يجرها على الأرض. هل هذا هو شَيْخ الإسلام، أم هو جُنْدى، لقد بقى الجميع فى حيرة من أمرهم. كان الخواجه زاده قد عَيَّن (ممك زاده) و (أبى سعيد أفندى)، وهما من العلماء الذين يمكن أن يكونوا خُصومًا ضده.

فى هذه الأثناء كان الآغوات يُخْبِرون قَره چلبى زاده شيخ الإسلام فى السلطنة، بكل الأحداث التى حدثت فى منفاهم، وبلا تفكير قاموا بكتابة ملحق لـ"روضة الأبرار" ضد الخواجه زاده الذى يعتبر خصمًا لهم.

لم تطل كثيرًا صدارة (سياوش باشا). فقد أنقذه الموت بسرعة كبيرة. وتولى مكانه (بوينى اكرى محمد باشا). ظلت إدارة الدولة فى يد الآغوات الذين قاموا بالعصيان مدةً من الزمان وفى النهاية طلبت السراى المساعدة من الأنْكِشارِيين الديوْشيرْمه من أجل قتل السپاهيين الأتراك. وقد وصل إلى إمداداتهم معاونة الأوجاقْلى قره حسن أوغلو حسين آغا. استمرت حرب كريد. جمع قره حسن أوغلو الآغوات السپاهيين من أجل التشاور فى حرب كريد. وفى تلك الأثناء أحكم سيدى أحمد باشا قَبْضَته

على الأناضول وألهبها اضْطراماً. طال النقاش في المجلس واستمر فترة طويلة. وتدخل "كتخدا بك من الأوجاقْلِيَة في الكلام، واندفع السباهى محمد قائلاً:

- أيها الكَتْخُدا بك. لماذا تتحدث بهذا الشكل ؟ لقد انضوت الأناضول. أنت قدمت بالأمس، وصرت كتخدا بك، وتحاول اليوم إفساد المصالح النافعة.

كان عقل السپاهيين وفكرهم في الأناضول. وكان حسن آغا سيدى قد زعم أن أحمد باشا قد خَرَّب الأناضول وظلم الرعايا، واقترح ذهاب السلطان بنفسه إلى الأناضول. أما أوجاق الديوْشِيرْمه، فقد كانت تُعارض كلام حسن آغا: فليس لهم علاقة بالأناضول. وكان المُفْتى حاضراً في المجلس أيضًا. بل ونَهض قره حسن أوغلو من مكانه الذى كان يجلس عليه، معارضًا آراء السپاهى حسن آغا ومحمد آغا، ووجه إلى الخواجه زاده سؤالاً:

- يا سلطانى، ما الواجب شَرْعًا تجاه من يَخْرج عن السلطان، والمسؤلين عن إفساد مصالح أمور العباد؟

وماذا تعنى كلمة "مَصالح أمُور العباد"؟ إنها تعنى استمرار حكم السلطانة تَرْخَان ومحمد الرابع، وأخذ الرشوة وبَيْع المناصب، مستفيدين من نفوذ السراى. كانت "مصالح العِباد" في الواقع بالأناضول والإيالات أيضًا.

وكانت السراى تسحق أهالى الأناضول بالباشاوات الظالمين من ناحية، ومن ناحية أخرى كانت تريد إماتتهم والتخلص منهم وهى تدعو بحيلتها إلى السراى من يُدافعون عن مصالح الأناضول فى استانبول، وتتعهد بتخليصهم وإنقاذهم. لم يتــأثر الخواجه زاده عنــد مواجهته بسؤال قره حسن أوغلو، بل لم يشعر بذرة إحســاس من الألم وأطلق فتواه بوقار تام:

- ينْبَغى إزالتهم بسَيْف السياسة.

لم تكد الفتوى تخرج من شفتى الخواجه زاده، حتى تعارك الحاضرون مع بعضهم البعض. وتدحرجت رؤوس المساكين أهالى الأناضول على الأرض بأيدى قتلة أوجاق الديوْشيرْمه.

وفى النهاية بدأ الصدر الأعظم مهام عمله. ولم تكن القضية تكمن فى إزالة المطالبين بحقوقهم فحسب، بل فى العمل على إنهاء حرب كريد التى اشتعلت بسبب آغا البنات فى عهد السلطان إبراهيم، والتى أبادت أجيال من الأتراك مدةً تتجاوز العشرين عامًا. وكان الظلم الذى عانت منه الأناضول وجَمِيع الإيالات، لم يكن قد شهدته تاريخ أى أمة من الأمم. لقد تربص للشعوب التى عاشت فى الإمبراطورية العثمانية عُدْوَان: أحَدهما هو السراى، والآخر هم الكَفَرة البنادقة...

كانت السراى بسفاهتها وبمدافعها وأسلحتها، تعمل على تَحْطِيم شجاعة الأتراك المغتصبين والمحرومين من المال والإعاشة، بل ومن أن

يكون لها مَخْزن للأسلحة. ولم يكن الديوشيرمه الذين جاءوا من نسل أعجمى، قد تم إرسالهم إلى هذه الحرب المريعة. وكان الأتراك يرسلون جميعهم إلى المدافع والنار والموت.

احتل العدو جزيرة (بوزجه). لقى قاتل الخواجه زاده جزاءه بقتله. عمل "بُويُنِى يارالى على تَبْيِيض وجه مَنْصبه، فقام بتَبْيِيض أسوار استانبول بماء الكلس، ولعله يقول "فلنكن مهابين تجاه العدو". استولى العدو على (لِمْنِى). بدأ الجميع يهربون من استانبول، وقاموا ببيع منازلهم بأسعار زهيدة. ثم توالت المذكرات والمشاورات فى السراى. كان المعمار آرناؤود قاسم آغا هو كَتْخدا الوالدة. وقد انتهز قاسم آغا الفرصة، وقدم كوپريلو محمد باشا وهو من أهل بلدته، ووافق فى نهاية الأمر.

طلب كوبريلو فى بداية الأمر أن يملى شروطه كلها، فانتصب واقفًا فى حجرة آغا البنات. فخضع أمامه آغا البنات، وكان قد امتثل أمام الوالدة ترخان سلطانة. وقبلت السلطانة تَرْخان جميع شروط كوپرولى. وفى النهاية عُزل بوينى ياره لى محمد باشا "التركمانى صافى القلب" وتولى مكانه الأرناؤطى كوپرولو محمد باشا فى منصب الصدارة (١٠٦٦ هـ). بدأ كوپرولو مهام عمله بالقتل والشدة. حتى أنه قَضَى على الأستاذ أوفوروكچى الذى ينتسب إلى آغا البنات والوالدة سلطانة. أوقع هزيمة ساحقة فى البوغاز على البنادقة. واستولى على "جزيرة بوزجه"

وبسبب هذا الانتصار أرسلت إليه من السراى الخِلَع والخَط الهُمايونى مع مُتَولى الخزينة صُولاق محمد آغا. استطاع محمد آغا أن يستميل كوپرولو إليه. ووعده كوپرولو بمنصب الآغوية، وأوفى بوعده عند عودته من الحرب. فعرض الأمر مرة أو مرتين على محمد الرابع، وقال له:

– إننى لست مطمئنًا من آغا دار السعادة. برجاء التفضل بتعيين متولى الخزينة "صولاق محمد آغا فى منصب الآغوية. تم قبول اقتراح كوپرولو. وصار محمد آغا آغا البنات، وأرسل دلاور آغا إلى مصر (١٠٦٨ هـ). ظل محمد آغا فى منصب الآغوية حتى وفاة كوپرولو. كان كوپرولو قد اتخذه ابنًا له. وكان الوحيد الذى يستطيع أن يؤثر بكلامه عليه فحسب، ففى الوقت الذى كان سيقتل فيه دلى حسين باشا، قائد كريد، شاور آغا البنات الذى قدر شجاعة حسين باشا. ورحب آغا البنات بهذه المشاورة، وشرح المسألة على الوالدة سلطانة تَرْخان، واستطاع أن ينقذ حسين باشا من قبضة كوبرولو. بينما كان المُفْتى مستعدًا منذ فترة لإصدار فتوى بقتله.

كانت الأناضول فى نفس الحالة؛ ففى هذه الحرب كان آبازه حسن آغا يتبارز ضد الأسرة العُثْمانية ومؤيديها قائلاً:

– لتكن الروم إيلى فيما بعد لهم، ولنا الأناضول، فليتمسكوا برأيهم.

كان كوپرولو فى موقف صعب. ولم يكن يحبه أحد من الشعب. فكان من الضرورى استعمال الشدة من أجل إصلاح الدولة. ولكن كوپرولو كان يفكر أيضًا فى الحفاظ على مَنْصبه، فكان يأمر بقتل الرجال الجيدين ظلمًا وبغير حق. "استثقل معظم الشعب الوزير الأعظم، وكان يتمنى أن ينتصر عليه آبازه حسن "لقد ضج الجميع من ظلمه. ولقد أزهق الشعبَ منذ قرون الجوع والدماء والحماقات والخوف على الأرواح والأموال، ولم يكن هنالك من شيء سوى استمرار القتل والاختلاس والظلم، وفى المقابل انعدم التَّعْمِير والإصلاح والرفاهية. بل كان الوعاظ فى الجوامع يُؤيدون آبازه حسن. كان هذا التأييد بلا شك ضد السلطنة، وضد الذين كانوا يعملون من أجل الاستفادة منها ومن تقويتها. وكان الذين يتمنون سقوط كوپرولو، قد "طلبوا من الله انتصار آبازه حسن باشا ". واستطاع محمد الرابع أن يدرك هذا. وكان الشعب يشعر بالكَراهِية الشديدة تجاه كوپرولو.

ثار كوپرولو لهذه الكراهية، فأمر بقتل سبعة آلاف سپاهى فى استانبول. وطلب إرسال الباقى منهم لمواجهة سپاهية الأناضول، فقام السپاهيون بالعصيان، وقالوا:

– نحن قمنا بأداء مُهمة الحرب. ونقوم بمشقة الحرب مرة أخرى هذه السنة خلال هذا الشتاء، ما هذا البلاء؟ لن نذهب.

كان أغلبهم يقول: لماذا نَسْحب سيوفنا على أشقائنا فى الدين، وإخواننا الأوجاقْلِية، ونحاربهم، لقد استعدى رجلان بعضهما البعض،

فهل يجوز إراقة دماء عباد الله بسببهما ؟ لقد استعدى الوزير الأعظم جنودنا الأوجاقْلِية. وسقط منهم حتى الآن ما يقرب من ألف شخص، وأمر بقتل مثلهم أيضًا. لن نخوض حربًا نفعل فيها ما فعلناه فى الحروب التى ذهبنا إليها، وإنما سوف نقبض على الوزير ونقبل حسن باشا، وننعم بالمصلحة.

كان هذان الشخصان فى الحقيقة هما: آبازه، والأرناؤطى. وكانت الدماء التركية هى التى تنسكب بينهما أيضًا. كانت تراق بلا شك فى سبيل الأناضول على الأقل.

سمع كوپرولو هذه المناوشات. فاستشعر الخوف، وأعرض عن الذهاب إلى الأناضول، ولم يذهب هو نفسه خوفًا، وأرسل مُرْتَضى باشا. وفى النهاية أمر بإخماد عصيان الأناضول بعزيمة قوية، وأُهلك الآلاف من البشر. ولم يَتْرك السلاح فى أيدى أهالى الأناضول. وأرسل إسماعيل باشا لتفتيش الأناضول. غير أن هذا الوَضع قد ضَايق أهالى الأناضول. صادَف أحد القرويين حَجلاً واقفًا على رأس الجبل. كان الحجل يغرد بأصوات جميلة. وفجأة توقف، وأحْدق عينيه على الحجل، وتفوه رغمًا عنه بهذه الكلمات:

- نعم، حجل القطا، نعم. يوجد خلفك مَنْ هو مثل إسماعيل باشا. فهو لم يترك لدينا السلاح.

كانت عقوبة من وجد عنده السلاح مروعة عند كوپرولو: القتل. وهكذا مرت سنوات الصدارة بأكملها والتى استمرت ست سنوات فى القتل وإصدار العقوبات، كان كوپرولو يحرص على منصبه حرصًا شديداً، حتى أنه كان يبخل أن يتركه لغيره بعد مماته. فقد أوصى بِتَوْلِية ابنه فاضل أحمد باشا الصَّدارة، ومات (١٠٧٢هـ).

كان السلاحْدار "فِنْدِقلى محمد آغا "قد أدلى برأيه هذا فى حق كوپرولو:

"كان الباشا المذكور ثريًا، ظالمًا وجبارًا، متكبرًا مستبداً برأيه، كان عديم الرحمة، مُريقًا للدماء بلا حق، وكان رجلاً مسنًا بلغ من العمر السادسة والثمانين. قبض على جميع أموال وأملاك الوزراء وأمير الأمراء والأمراء وأهالى الولاية وأغنيائها، ووفقًا لما زعمه فقد قام بتعمير الممالك الإسلامية، وشدد من أمر طوائِف العسكر، حتى أنه أزال كل شوكة لهم. "ولم يستطع (صولاق محمد آغا) آغا البنات الذى تبناه كوپرولو، أن يبقى فى مَنْصبه حتى بعد وفاة كوپرولو بسنة واحدة فقط. وتم عزله وإرساله إلى مصر مثل أسلافه وأمثاله. وتولى مكانه رئيس الآغوات البيض، "مُصْلى آغا" (١٠٧٣هـ).

كان "مصلى آغا" مريضًا للغاية، وقد أحبه الوكلاء والوزراء. وأمضى كل فترة توليه الآغوية مَريضًا. وفى النهاية لم يستطع أن يتخلص من مرضه، فقد توفى عام (١٠٧٨هـ). وحضر جنازته كل الوزراء والعلماء.

وانتظر كل الذين تقدموا إلى البلاط السلطانى مَنْ سيقع عليه مَنْصب الآغوية. فكان الجَميع يتلهف قائلاً "يا تُرَى أيُّنا يليق بالآغَوِيةَّ؟، ونال المنصب فى النهاية عباس آغا.

حظى منصب الآغوية فى زمان عباس آغا، بأهمية كبيرة. بلغ محمد الرابع سن الثالثة والعشرين. وكان قد بدأ يعرف قيمة الخاصكَية والجوارى فى السراى. وكان يمضى حياته إما فى الصَّيد، أو فى أحضان النساء. فكانوا يستحضرون لسراى محمد الرابع أجْمل الجَوارى. وكانت الأسيرات القادِمات من كل أمة إلى استانبول، هن فتيات حسناوات فاتنات.

وكانت القالْفه تُشْرِف على ضبط الفتيات فى السراى. كانت الفتيات يَعْزفن الموسيقى ويَلْعَبن باللعب وكن يحاولن استمالة السلطان إليهن وكسب وده. وفى معظم الأحوال تختار الوالدة سلْطانة من بين هؤلاء الحسناوات من تستحسنها لتستقطبها فى دائرتها. ومن ثم كانت الجوارى تجتهدن فى التجول وهن فى أبهى زينة ومرصعات بالماس واللؤلؤ. وكانت (كتْخُدا قادين) تقوم بتعليمهن تقاليد السراى وعاداته بشكْل دائم. عند عودة السلطان من الصيد كان ينادى: "الخُلْوَة "عندما كان يرغب فى الاستمتاع بالفتيات. عندئذ كان يحل الصمت والهدوء، ويظل السلطان وَحيداً فى خُلْوَتِه مع قافلة من الحسناوات. وتبدأ حركات الغُنْج والدلال، وتزول الحرمة والاحترام.

وفى بعض الأحيان إذا رغب محمد الرابع فى اختيار فتاةً له، كان يَذْهب إلى غرفة الفتيات. فتنظم (كتّخدا قادين) الفتيات فى صفوف. ومن تعجبه، يلقى عليها منديله. فتقبل الفتاة المَنْدِيل بشوق وسرور، وهى مرتبكة لا تعرف ماذا تفعل وسط تَهانى زمِيلاتها. ثم يقومون بتنظيفها نظافة تامة، ويعطرونها فى كل أنحاء جسدها، ويقلدون رأسها بالماس والجواهر، ويرسلونها إلى غرفة نوم السلطان وسط نَغَمات الفتيات جميعهن وغنائهن. كان آغا الحرم يخبر السلطان بقدوم الحَبِيبة. فإذا سمح، سارعت الفتاة فى الدخول إلى الغرفة، فتجثو على ركبتيها، ووفقًا للعادات القديمة، كانت تدخل الغرفة على أطراف أقدامها، وتُودع كتخدا قادين مرةً أخرى. واعتبارًا من ذلك اليوم، يُخَصص لها طاقم وإدارة خاصة بها. وإذا أنجبت من السلطان، أطلق عليها اسم (خاصكَى).

وفى سراى السلطان محمد الرابع بلغ عدد (الخاصه كية) بهذا الشكل ثلاث أو أربع سيدات. وكان آغا البنات عباس آغا هو المسئول عن هؤلاء النساء وكل محبوبات السراى.

أحب (عباس آغا) أعمال الخير، فأمر ببناء جامع فوق رَبْوة عالية فى بشكطاش من قبل أن يتولى منصب آغا البنات. كان تاريخ بنائه: (البيت المعمور الجامع الأقصى ١٠٧٦هـ). وبالإضافة إلى الجامع، كان يوجد له مدرسة وعين ماء، واثنتا عشرة عَينًا فى استانبول وعينان فى اسكدار، وحمامان فى لاله لى، ومدرسة بالقرب منه فضلاً عن إقامته لسبيل أيضًا.

استمر عباس آغا فى منصبه أربع سنوات. وفى النهاية تم عزله وإرساله إلى مصر بعد وصوله سن المعاش. وتولى الخزنجى "النديم يوسف آغا" منصب الآغوية (١٠٨٢هـ).

وتعد الوالدة تَرْخان سلطانة ورئيسة الخاصه كية كُلنوش سلطانة من أكثر سيدات السراى نفوذاً فى السراى فى زمان آغوية البنات يوسف آغا.

كانت الأيام التى استراح فيها يوسف آغا فى السَّراى، هى أيام العرس البراقة. فقد ألبس آغا البنات يوسف آغا أركان الدولة ألبسة ذات فراء سمورى، عندما تزوجت خديجة ابنة السلطان محمد الرابع نَديم السلطان مصطفى باشا. وجاء أركان الدولة لأخذ العروس، وكانوا ينتظرون أمام غرفة آغا البنات. فأخذوها وأحضروها إلى سراى الداماد باشا. استمر عرس السلطانة خَدِيجة بضعة أيام، وظلت معها موائد الضيافة وأنواع اللعب والمسليات. قضى يوسف آغا عمره محظوظاً، ينال عطف الوزراء والوكلاء وعطاياهم من السلاطين، وأحياناً فى سراى أدرنه، وفى سواحل (طونجه) المظللة، وأحياناً فى استانبول فى جزر دائرة يالديزلى المزينة، ثم توفى كوپرولو زاده فاضل أحمد باشا، وتولى مكانه قَرَه مصطفى باشا. ولكن لم يهتز منصب يوسف آغا على الإطلاق.

كانت تولية قره مصطفى باشا، والشروع فى حَرْب النمسا، وموت الوالدة سلطانة تَرْخان، وهَزيمة الجيش الساحقة على الحدود وهم مشتتون، قد أفقد مذاق طعم أى شىء فى السَّراى. فلم يكن الخطأ الذى ارتكبه المرزيفونلى باسم الحمية والشهرة، يقبل الإصلاح.

كان يوسف آغا يقوم بمباشرة أعماله فى السراى، وكان يستقبل ملك القريم وباقى أمرائه. كان يوسف آغا آغا البنات هو الذى استقبل الخان، وقدم إليه الهدايا وأقامه فى "قصر العيد"، وذلك عندما اسْتُدْعى سليم كراى إلى أدرنه لإجلاسه فى مقام الملك، بل وألبسه ثيابًا ذات فراء سمورى مغطاة بالقَطيفة الحمراء على ظهره.

بلغ عدد الجوارى بالسراى فى زمان يوسف آغا سبعمائة جارية. شغلت عَفِيفة خاتون منصب رئيسة نديمات السلطان محمد الرابع. انهمك محمد الرابع بالصَّيد والتمتع بالجاريات، فى حين كانت حدود الدولة تستعر فيها النيران وتُهرق فيها الدماء. فلم تكن الأمة والدين فى نظره سوى عبثوهراء.

وإذا استمع إلى موعظة باسم الأمة والمملكة فى أى جامع يذهب إليه، يأمر فى الحال بمنع الوعظ فى الجوامع. وكانت استانبول تغط فى قحط وفَقْر شديدين، وإذا ما نفدت الخزينة، يتم إذابة مَجْموعة من الفضة وقُدور النحاس. لم يكن محمد الرابع يتنبه لهذا. وكان يغضب غضبًا شديدًا إذا وجهت له نَصِيحة أو توصية بالابتعاد عن الصيد والتفكير فى الشعب.

فلم يكن هناك من شيء يشغل بال محمد الرابع سوى الاستمتا ع بالصيد والتلذذ بالمتع وأوقات الصفاء. لقد امتلأت سواحل الطونه بجثث البشر، كما قامت الأهالى فى بعض الأماكن من الأناضول بطحن عَفَص البلوط وعُروق النخيل وأصداف الجوز، وكان يموت من يأكلها. وفى النهاية لم يستطعوا تحمل لا مبالاة السلطان محمد الرابع. فقاموا بصرف تفكيره عن الصيد. وشردوا من يقوم بخِدْمته من العرب، وأوقفوا مخصصاته. وسَرَّبوا ما يقدر بمائة حصان من الأسطبل الخاص، وطردوا من الحرم خمسمائة جارِية، وقاموا بعزل يوسف آغا آغا البنات وفق الاستدعاء الذى جاء من الجيش. وأرْسل يوسف آغا إلى مصر، وتولى مكانه المسئول عن الخزينة على آغا(١٠٩٨هـ)

وعلموا أن آغا البنات المعزول قد ذهب إلى مصر فى حالة من الأبْهة والعَظَمة، حتى أنه كان يعطى بقشيشًا لجنود الألوية الأربعة من الإنكشاريين والباشيبوزوق الذين يقومون بخدمته، ما يقدر بألفين من القروش. فقالوا:

– لن ندع لهذا العربى أية أموال، ولن يذهب بمثل هذه الفخامة والعظمة.

فشاوروا الصدر الأعظم من أجل إعادة آغا البنات. وقام الصدر الأعظم بعرض المسألة على السلطان. وأصدر "السلطان الخط الهمايونى. وكلَّف رئيس الآغوية البيض كور مصطفى آغا بإحضار آغا البنات.

ووصل إلى آغا البنات فى (چينيزنيق). لم يطع الآغا، واختفى فى إحدى الخانات. جمع كور مصطفى أعيان المدينة، وقال:

- إنه مطلوب القبض عليه من السلطان، قوموا بضبطه.

حوصر الخان من الجهات الأربع. وكانوا قد قدموا لقاضى ذلك الحى الحجة والبيان الدال على عصيان آغا البنات لفرمان السلطان. وأرسل إلى الوزير الأعظم. وفى الحال تم تعيين ثلاثين سَرية مكونة من ثلاثمائة جندى من السپاهيين والسلاحداريين، واتجهوا ناحية اسكدار. ووصلوا چينيزنيق، وحاصروا الخان، وأخرجوا آغا البنات إلى الخارج. وكان الآغا مضطرباً وقال لهم:

- أيها الرفقاء، ما فعلته كثير. ها أنا ذا قد سقطت بين أياديكم، وإننى اعترف بجرائمى، فلا تمزقونى، وأحسنوا إلى بالعفو. أنا آغا البنات السابق، صرت غريباً الآن لا أملك سوى عشرة قروش.

وتوسل إليهم وزاد من استعطافه وتذلله، وشرع يَبْكى. وفى النهاية قال له الآغوات:

- لا تتألم. نحن نضمن لك ألا تتذلل الى رفقائنا الآخرين.

فرح آغا البنات. وأعطى لهم القروش العشرة. وبمجرد أن قدم الآغوات بالقرب من الخان، حتى استولوا على فرسه التابعة لمن يقوم بخدمة آغا البنات، وكانوا يتركون له الفرس المتعبة، وعبروا من هناك

بالمركب إلى (يَدى قوله)، وقاموا بحَبْسه، وطلبوا منه ألف وخمسمائة كيسه. ولم يكن لديه مال. فتضرع إلى الآغوات، قائلاً:

لقد أخذ السلطان كل متاعى وعقاراتى الموجودة هنا والموجودة فى مصر. ليست لى المَقْدرة على العطاء. أعيدوا إلى كل أملاكى المأخوذة هنا، لأبيعها حتى أعطيكم قدر ما تبلغ قيمتها، وما تبقى لدى هو ثيابى التى أرتديها وروحى بين جنبى. أنا مسجون فى مَحْبسكم. لقد ارتكبت المعاصى فى حق الله، والتى حلت جميعها فوق رأسى، ليكن لديكم المروة، وخلصونى. فأنا سپاهى متقاعد فى الأوجاقْلِية.

وفى النهاية أخـذوا أمواله المائة كيسه التى كانت معه، وأرسلوه إلى مصر بدون القروش العشرة.

ذات يوم رأى محمد الرابع آغا البنات، على آغا فى مواجهته. وكان على آغا قد أمسك خطًا همايونيًا فى يد السلطان. وكان هذا الخط من أخيه سليمان الثالث. وتفوه آغا البنات بهذه الكلمات لمحمد الرابع:

- تفضل إلى المحبس، هذا هو قضاء الله ومراده.

لم يكن محمد الرابع قد رأى المَحْبس طيلة عمره. فقد كان يبلغ السابعة من عمره حينما قتل أبيه السلطان إبراهيم. غير أنه بعد محمد الثالث، كان جميع أجداده يخرجون دائمًا من المَحْبس إلى العرش. هكذا عاش الأخان حياةً أليمةً فى المحبس "وفقًا للعادة العثمانية القديمة".

وكان يظن أنهما لا ينتسبان لبعضهما البعض كأخوين من أب واحد، فكلاهما حكم عليه، وكانا مجرمين أيضًا. كان هو ذاته يَقْضى حياته فى الصيد وبين أحضان النساء، وحينما يذهب إلى أدرنه "بهدف التَّمتع بالصيد، كانوا يحيطونه بحراسة شديدة. وعندما جلس "سليمان الثالث" على العرش وشاهد وجوه البشر، تفوه بتلك الكلمات:

– لقد مَضَى أربعون عامًا، كنتُ مسجونًا فى مكان مظلم، وبينما أنا فى حالة من اليأس من حياتى إذ بى وقد فتحت عيناى وكأننى جئت إلى الدنيا من جديد.

كانت هذه التقاليد الظالمة تخص الأسرة العثمانية التى جاءت بعد القرن العاشر فحسب. وكان إماتة البشر على الحدود وإعاشتهم أسرى للظلم، والحكم على إخوانهم بالحبس فى غياهب المحبس، وجعلهم ينزوون فى حالة من اختلال التوازن والضعف والعجز، والحكم عليهم بالجنون العقلى.

كان الصدر الأعظم هو كوپرولو زاده فاضل مصطفى باشا. ولم يكن الشعب راضيًا عنه، فكانوا يقولون:

– من الواضح أن أى جندى وضيع عندما يتولى منصب الوزير الأعظم يصير بهذا الوضع مفتيًا وقاضى عسكرًا كذلك. فكيف لا تتهدم الدنيا؟

بدأ تغيير السلاطين وآغوات البنات فى السراى. لم يعش سليمان الثالث كثيراً. وجلس مكانه أخوه السلطان أحمد الثانى. وفى خلال هذه الفترة تولى منصب الآغوية على التوالى مصطفى أغا، واللالا أحمد آغا، وإسماعيل آغا. لم يكن انفصال آغا البنات عن الوالدة سلطانة من الأصول المتعارف عليها. ولم يكن سليمان الثالث يستطيع أن يستغنى عن آغا البنات. حتى أنه لو ذهب غَصْبًا إلى الحرب، كان يَسْتَحْضِره معه. ولهذا السبب ازداد نفوذ آغا البنات مصطفى آغا، فقد صار المَرْجع الخاص والعام. كان آغا البنات عدوًا دائمًا لكوپرولو زاده.

كتب كوپرولو زاده تقريراً عن الخواجه سلطانى عربزاده، ولم يقبل. فلم يكن يرغب فى إعطائه القانون الخاص بخلاف كتخدا قادين، لم يتمكن من أن ينفذ كلامه. وكان آغا البنات مصطفى آغا هو الذى نفذ جميع الكلام. وفى النهاية أرسل أحد آغوات الحرم مذكرةً إلى كوپرولو زاده فاضل مصطفى باشا. وقد كُتب فى المذكرة تلك السطور:

"لو انحرف إلى طرفكم الطبع الهمايونى بإلغاء آغا در السعادة وآغوات السلاحدار والجُوقَه دار والرِّكابْدار وغيرهم من بعض المقربين. ولو لم يتم السيطرة عليهم على وجه السرعة، لسوف يدعون إلى المثول الهمايونى ويكون لهم الرأى بعد أن ينزع منكم الخاتم والوزارة".

نادى كوپرولو زاده فى الحال محمد آغا كاتم أدق أسراره. وسأله عن الحل فى هذه المسألة. فأجابه بذلك الرد:

– ادع للمثول أمامكم فى الحال أعيان الدولة، حتى ينعقد مجلس الشورى. وسوف تزول هذه العائلة بطرد مسببها وإبعاده. أرسل الوزير الأعظم الرسائل. وانعقد المجلس. ونهض قول كتخدا واقفًا، وتحدث بهذه الكلمات:

– لقد اختلت أمور الدين والدولة وصارت ألعوبة فى يد الفساد، وقد شارف نظام الحكم على التعرض للزوال، ولكن الحمد لله فقد شرف صدارة صاحب دولة أفندينا، وقام بترسيخ النظام. غير أنهم الآن يمهدون بالقيام ببعض الأفعال التى تهدف إلى طرده وإبعاده عن الصدارة، فلو كنتم راضين عن سعادته، فلتلتزموا بالدفاع عنه.

مدح الصدر الأعظم، ولقد مَس عروق الحِمْية لدى كل شخص. وأحق الجميع محمد آغا. وفى النهاية امتثلوا للحضور، وتم انتخاب هيئة لعرض المسألة. ودخلت الهيئة للمثول أمام السلطان، وشرحت له ضرورة عزل آغا البنات. تردد السلطان. وجذب أحدهم آغا البنات فى زاوية وقال له:

– من اللائق فى هذا الموقف أن تطلب عزلكم وترغبون فيه. ولسوف تستريح بوصولكم إلى مصر معززًا ومكرمًا، وإلا سوف تنقلب الأحوال والأمور، وأنتم تستطيعون أن تلمسوا طلبى للخير لعائلتكم.

قبل الآغا. وجاء بالقرب من السلطان وقال له:

– سيدى صاحب السعادة، أقيلونى واعزلونى.

قبل السلطان، وأرسل مصطفى آغا إلى مصر، وتولى اللالا أحمد آغا منصب آغوية البنات (١١٠١هـ) استطاع أحمد آغا أن يبقى في منصبه قدر سنتين. توفى عام ١١٠٣هـ. تولى مكانه إسماعيل آغا.

استشهد كوپرولو زاده فاضل أحمد باشا في معركة (صالانقامين) في زمان أحمد آغا الذى حظى بمنصب آغوية البنات في الأيام الأولى للسلطان أحمد الثاني. وصار "آراباجى على باشا صدراً أعظم"، وإسماعيل آغا آغا البنات.

كان أحمد الثاني يحب آغا البنات إسماعيل آغا. أما الوزراء فقد كان يستفيدون من نفوذه من أجل إسقاط بعضهم البعض. وكانت لا تزال الفواجع التي سببتها حروب ڤيينا، والتي بدأت في عام ١٠٩٤، مستمرة حتى الآن. أما من تولوا منصب الصدارة، فقد كانوا عجزة، كانوا يَخْلُدون إلى الراحة والثراء. كان شيخ الإسلام فيض الله أفندي يتخاصم دائمًا مع الصدر الأعظم على باشا. فشرح سقوط على باشا، وهرع نحو آغا البنات إسماعيل آغا. وفسر عداوته لشيخ الإسلام قائلاً:

– من المحال أن أختلط معه بعد اليوم. فإذا لم يتم عزله ونفيه، فابعدوا عنى الصدارة.

ركع أمام الآغا راجيًا، وعرض عليه الأموال. لم يستطع آغا البنات أن يصغ لرجائه ولا لأمواله وفي اليوم التالي امتثل أمام السلطان متضرعًا، وقال له:

– أحسن إلى الأفندى الداعية شيخ الإسلام بالتقاعد، فهو شيخ عليل، وعين آخر من عبيدك مكانه فأجابه أحمد الثانى:

– أيها الآغا. إن رجلاً عماده الدين، كنت قد استفسرت عن أحوال دولتى. أقسم بالله أن أقول الصدق. لقد ذكر الوزير الأعظم بالسوء، فكيف يمكن عزله؟

– بلى، غير صحيح. لقد حصل على فَرَمان همايونى بعزل فيض الله أفندى. لكن أحمد الثانى كان يُريد عزل الصدر الأعظم أيضاً. سأل آغا البنات:

– لقد انكسر قلبى من ذلك الشيخ. فهو خائِن وكاذِب أيضاً، وهو غير قادر على تصريف الأمور، فمَنْ استَوْزَرَه؟

أبان آغا البنات رأيه بالتفصيل. وقد مدح فى كلامه كله الصدر الأعظم، وفى نهاية الأمر قال:

– يقول خدامك بدر السعادة هل أدركنا، هل الآن هو زمان العزل؟ فلتتلطف بى وقم بعزلى، ثم عزله.

استفسر أحمد الثانى من الأغوات الآخرين، فقالوا أيضاً:

– تفضل بالسؤال عن أحوال عبدك فى الخارج.

وطارت الأخبار فى نفس الوقت إلى الصدر الأعظم:

- ما الذى تريد الوقوف عليه سلطانى؟ لقد اتفق آغا در السعادة ومتولى الخزينة ووكيله فى الداخل، على أن يقولوا للسلطان بتولية أمير أمراء طرابزون قلايلى قوز أحمد باشا صدراً أعظم، ونالوا رضاه.

غضب الصدر الأعظم، واتحد مع الأوجاق. وحرضهم على العصيان، وحاصروا أطراف منزله الخاص. وأرسلوا تقريراً إلى السراى. وقاموا بتنبيه الشخص الذى أرسلوا معه التقرير:

- احذر، لا تقدمه لآغا در السعادة. أعطه للبوسْتانْجِى باشا، وليسلمه مباشرةً إلى السلطان لم يقبل بوستانجى باشا التقرير. وتصدر آغا البنات مرةً أخرى. وحضر الصدر الأعظم للمثول أمام السلطان فى عظمةٍ تامة. وكان حاضراً إذ ذاك آغا البنات. وبمجرد أن رأى آغا البنات فى الداخل حتى أصابته الحيرة فيما يفعل إزاء طمعه فى "الخاتم الشريف"، وقام بسحب آغا البنات من ياقته، و صرخ فيه قائلاً:

- اخرج!

بل ودفعه من خلفه وقَذَفه نحو الخارج. فاندهش السلطان وسأل فى حَيْرةٍ قائلاً:

- ما أمره ؟

قام الصدر الأعظم بالدعاء للسلطان طويلاً فى بداية كلامه، ثم شرع فى الحديث. فذكر أن آغا البنات قام بتحريض الأوجاق،

ورغب فى عزل متول الخزينة ووكيله. بينما كان كل هذا محض افتراء. وعندما صدق شيخ الإسلام هذا الكلام، قبل أحمد الثانى:

- إننى قبلت ذهاب الآغا ومتول الخزينة ووكيله إلى مصر. ولكن متول الخزينة نذير آغا قد قمنا بتربيته لدينا. وهو عبد صادق لم يبدر منه الخيانة فيما يبدو لى، أو لغيرى. وما دمت أنا جالس على العرش، فمن المحال أن أقوم بعزله ونفيه، فقد أجزلت العطاء إلى آغوية دار السعادة مهما يكن ما حدث.

نال آراباجى باشا غرضه. دخل آغا البنات المعزول إسماعيل آغا هذه المرة للمثول أمام السلطان، وقال له:

- ما الجرم الذى اقترفته حتى تقوم بعزلى بهذه الحقارة؟ أو أننى جعلتك تسلك طريقًا غير شرعى؟

حاول أحمد الثانى التسرية عنه:

- لا تبتئس، وطيب خاطرك.

- فليكن ألف إسماعيل فداءً فى سبيل أفندينا. هم لا يقدرون على إلحاق الضرر بعبدكم. ولن يوقف دموع عينى بعد الآن سوى تشريفنا بالمثول أمامكم ومخاطبتكم فحسب. فما المقصود ؟ فلتأمر بإحضار من هم بالخارج، ولتستقدم للمثول أمامكم خدام رؤساء الحرم الشريف، عندئذ تدرك أنت من هم الخارجون وتتعرف عليهم. كيف تكون الغيرة

والولاء للسلطنة؟ وما هو سلوك عبدكم، وما أصل مجالسه، وماذا كتبت فى رسالتى لقلايْلِى قوز، وما معرفتى بهذه الأشياء. لقد أوغروا صدرك بكل الافتراءات حتى أتخمت. افتح أنت عينيك أيضًا. فهم قد فعلوا هذا بى اليوم، ومن المؤكد أن يقوموا ضدك غداً.

كان آغا البنات يبكى، وكانت دموع عينيه تنهمر بغزارة على وجهه الأسود. وفى الحقيقة لم يكن الذنب هو ذنبه. فقد كان هو الذى يحمى "آراباجى". تضايق أحمد الثانى:

– كنت قد فعلت، وعرفت، ولم تنفذ كلامى. وواصلت طريقك، ورأيتُ قيدك للشيخ الكبير اليوم التالى، فقصدت عزله، ولم تقل أنت ما هدفت أنا إليه.

كان الصدر الأعظم ينتظر. وكان من الضرورى عدم بقاء آغا البنات إسماعيل آغا بعد الآن فى السراى. أرسل إلى بوستانجى باشا عربة بأمر قاس. فأثار حنق أحمد الثانى. وأثار آغا البنات الجديد غضب نذير آغا أيضًا. واتحد الآغوات جميعًا، ومثلوا أمام السلطان، وشرحوا له ظلم آراباجى على باشا. فأقر أحمد الثانى:

– أيها الآغوات، والله لقد كنت قد عزلته منذ فترة طويلة، فليبتليه الحق، لقد أثر علىَّ فى موقفى من إسماعيل آغا. وواصل مسيرته من أجل أن يعان عليه. أننى أدرك خيانة الشيخ المكار.

وفى النهاية طالت المشاورات. ونادى السلطان (آراباجى) للمثول أمامه، ووجه إليه الكثير من الإهانات الواحدة تلو الأخرى، وفى الحال عزله، بل ورغب فى قتله أيضاً، ولكن تَشَفَّع له آغا البنات وباقى الآغَوات، وقالوا:

- إنه عَبدكم العجوز، أصفحوا عنه حتى لو كان يستحق هذا العقاب، انقذ روحه، وقم بنفيه إلى أى مكان.

لم يستطع الوزير أن ينبس ببنت شفه، و"حاول الوقوف غير أنه سُرعان ما سَقط، فتأبطوا ذِراعيه وأخْرجوه إلى الخارج".

لم يستقر النظام ولم تُضْبط الأحوال فى السراى. فحتى الآغوات الخدام الزنوج أصبحوا رجالاً فى السراى منذ زمان سليمان الثالث. وفى كل ليلة تسود الأفراح والمتع، وقد انغمس الجميع مع الجاريات (العاشقات والمعشوقات) على قدم وساق فى الملذات والطرب. حتى إن آغا البنات لم يعد يستطيع أن يفعل معهم شيئًا. بل قام "أحمد الثانى" بِمَنْع بقاء الحُرَّاس الزنوج فى نوباتهم. عندئذ كانت الجاريات قد شرعن فى إثارة البلبلة فى السراى، وإطلاق الصُراخ فى منتصف اللَّيل قائلات:

- لقد رأينا شيخاً.

لهذا السبب، تسببن فى قَتْل بُستانى كان يَجْمع البرقوق من الأشجار خارج السَّراى.

لم يكن هناك من كان يهتم بِمَسِيرة الحروب. كانت النِّيران على الحدود تزداد اشتعالاً، ويستمر التمتع فى السراى بكل قوة أيضًا. خلال هذه الفترة مات محمد الرابع فى "أدرنه" وأجرى غسل جثته أمام غُرْفة آغا البنات، وأرسلت إلى استانبول.

تأثر أحمد الثانى من كوارث الحرب. لم يكن فى الخزينة أية أموال، والولايات تعانى من الجوع، والعساكر فى ثورة، ولم يكن يستطيع فعل أى شىء، ولم تبق أية أموال فى الأناضول تكفى لإشْباعها، ومع ذلك استمر المفسدون أيضًا فى نَهب الدولة، وقد أقفرت هذه الحرب الأهالى الذين أجبروا على دفع المداد بالقهر والقوة.

كان آغا البنات نذير آغا مُنْهمكًا خلال هذه الفترة فى أمور الدولة أكثر من اهْتمامه بشئون الحرم. وكان الوزير الأعظم "بُوزْاوقْلى مصطفى باشا من أكثر الأشخاص الذين استعدوا نذير آغا. وبُوزْاوقْلو هذا كان تركيًا. وبالطبع كان لا يميل إلى وجود الأجانب الذين سيطروا على سراى الأتراك. ومن ثم توسل بالحيل لإبعاد نذير آغا الزنجى من السَّراى. وكان الاثنان يُحَوِّران الكلام ضد بعضهما البعض لأحمد الثانى، كلما تحين الفرصة لكليهما. ولكن تمكن آغا البنات من أن يُحَسِّن صورته فى ذهن أحمد الثانى لتواجده دائمًا بجانب السلطان ليلاً ونهارًا. وقد انحاز إليه جميع من فى البلاط سواء المؤيدين له أو المعارضين، وفى النهاية نجح فى عزل الباشا. وصُودَرت جميع أموال مصطفى باشا

التعيس الحظ. ومع ذلك فإن هذه الإهانة لم تفد أيضًا نذير آغا. فلم يمر وقت طويل حتى تم عزله هو نفسه بدون أى سبب على الإطلاق، وتولى مكانه رئيس آغوات الخاصه كى سلطان (١١٠٥هـ).

كانت هذه السنوات هى الأعوام الأخيرة فى حياة أحمد الثانى. وقد ساد الاستبداد تماماً مع تفشى الفقر فى استانبول. ومن يقول الحق والحقيقة من العلماء عَلنًا يتم نفيه. وحدث عِصْيان الأهالى فى هذه السنة وكان سببه مسألة الجزية. فقد نفدت الأموال والأرواح كذلك ولم تكن تكفى لإشباع الحروب التى توالت جراء جشع أركان السَّراى وجهلهم.

انهمك الصدر الأعظم على باشا فى إبعاد خُصومه باستمرار وقتل مُنافِسيه بدلاً من مواجهة هذه الكوارث وهذا الاضطراب. وكان الباشا يعمل على تأمين منصبه بالتخلص من منافسة أرباب الدِّراية والمزايا، أكثر من إبراز المزايا والخبرات. وواجهت هذه السنة مشكلة إخماد الثورات التى قامت فى أنحاء ولايات الأرناؤط. وكان من الضرورى وجود الأرناؤط فى الجيش لكى يتم إرسالهم، ولكن "كان معظم عساكر الأرناؤط من الكفار، ولم يكن من المتوقع منهم أن يَعِينوا المسلمين على تَدْمير بنى جنسهم".

كان أهالى العاصمة قد ضجوا. ووقف أهالى "ادرنه "بالكامل ضد السلطان. وكان يظهر أحيانًا من يصعد على المنبر بجامع السلطان

سليم علنًا، ويحاول استثارة المسلمين ضد أحمد الثانى. ولكن كان المناهضون لأحمد الثانى يخشون من تحمل المسئولية. فلم يكن للأهالى شىء يمكن أن يعتمدوا عليه.

ذات يوم وقعت حادثة ضد السلطان فى جامع السلطان سليم. فقد صعد على المنبر موسى آغا وكيل أمين النُّزْل، وتحدث مع جماعة المسلمين بكلمات ضد السلطان، ورغب أن يفهم الأهالى أسباب المصائب التى يتكبدونها، فخاف الجميع من المسئولية. فلم يستجب له أحد منهم، وهرعوا من الجامع وهم يتسابقون فارين نحو الخارج ". ويَكْمن سبب كل الكوارث التى وقعت فوق رؤوس أهالى تركيا، فى عدم مُناهَضَتِهم للظلم، ولامبالاتهم نحو من يسعون لمصالحهم الشخصية، وتجاه اضطرابات مواطنيهم، وعدم إحساسهم بأحزانهم وفقرهم وعَوَزهم، بل ومواقفهم السَلْبية نحو تعرض المملكة للاضمحلال.

توفى فى النهاية أحمد الثانى، وتولى مكانه السلطان مصطفى الثانى ابن محمد الرابع. ولم يحدث تغيير السلاطين أى تأثير يُذْكر على الإطلاق فى الكوارث المُحِيطة بالمملكة ولا فى الفَقْر المُحدق بالأهالى. وتوالت الهزائم على الحدود، واستمر تذمر الأهالى.

أراد مصطفى الثانى أن يُنْهى حالات الفساد فى السَّراى. فقد اعترف فى خَط همايونى كَتَبه عقب جلوسه بأن "من المَعلوم للعالم أجْمع أنه بسبب إهْمال السلاطين وتهاوْنهم وانْغماسهم فى التنعم بالملذات

وحتى الوقت الحاضر، أن أغار الكُفار الأذلاء على كثير من المَمالك الإسْلامية واستولوا على أرْكان الثغور الإسلامية الأربعة، وكم نَهَبوا من أموال أمة محمد وأرزاقهم وأغاروا عليها، وقاموا بأسر أهاليهم وأزواجهم".

في الحَقِيقة، لم يكن التَّنَعم بالملذات موجوداً في السراي كما كان من قبل. وصارت الوالدة سلطانة سيدةً حكيمة ومدبرة.

رغب مصطفى الثاني في إصلاح السراي. وكان أكثر المُطَلعين على أحوال السراي هو قاضيعسكر الأناضول (أبَه زَاده عبد الله أفندي). كان السلطان يكره آغا البنات اسحاق آغا كرهًا شديداً، فنادى عبد الله أفندي، وسأله، قام عبد الله أفندي بتزكية (يابْرَ اقْسِز على آغا) لآغوية البنات. كان على آغا في مصر. فقد أرسل إليها منذ أن تولى المَدْفَعِية تلبيةً لدعوته إياه. ووكله متولي خزينة على آغا حتى يرجع (١١٠٦هـ).

فقدت (السَّراي الجَدِيدة العامرة) رَوْنقها القديم. كانت أكثر السرايات بهاءً هي سراي "أدرِنْه ". شَغف السلطان بالصيد. ولهذا السبب كان يُفَضل سراي (أدرنه) عن الأخريات.

خلال هذه الفَتْرة أشِيع أن إسماعيل ونذير آغا المَعْزولين من آغوية البنات أنهما جمعا في مصر كل متعلقاتهما من الماس والجواهر ومتاعهما، وصارا من ملاك السرايات العالية والقرى الخِصْبَة ويتقاضون مرتبات وجِرايات". فلم يتركهما مصطفى الثاني يتنعمان بهذه الأموال،

وأرْسِلت الأوامر المكتوبة إلى والى مصر، وصودرت جميع أموالهم وأملاكهما. بل لقد حُبِس كاتبهما أيضًا. أثناء هذه الفترة، كان الخواجه فيض الله أفندى فى منفاه. ولقد ارتكب مصطفى الثانى أكبر أخطائه عندما استقدمه من منفاه، وكان فى السابق قد كلَّفه بمهمة التَّدْرِيس، وولاه مقام المَشْيَخة. وفى النهاية جاء من مصر آغا البنات يابْراقِسز على آغا، ولكنه لم يستطع أن يستمر فى الآغوية مدة طويلة. بل استمرت مدة آغويته بضعة أشهر. ولم يكن قد حاز على رضى السلطان خلال هذه الفترة. ولهذا السبب أرْسل مرةً أخرى إلى مصر، ولكنه لم ينس أيضًا "أن يأخذ معه أمواله ومتاعه"، وعُيِّن مُتَولى الخزينة فى منصب آغوية البنات (١١٠٦هـ).

وفى زمن آغوية مُتولى خَزِينة نَذير آغا، وصلت مُرتبات الأموال التى صودرت من إسماعيل آغا ونذير آغا . وقد بلغ مجموعها ألف كِيسه آقچه، بالإضافة إلى (الجواهر النفيسة). ودخلت جميعها (إلى خَزِينة السلطان).

أدرك آغا البنات الجديد (نذير آغا) القليل من الزمن الجميل. ذهب مُصْطفى الثانى إلى الحرب بنفسه.

كان الانْتصار مضمونًا إلى حد ما على الحدود. وقد اصطحب معه فى الحرب أيضًا جميع دوائر الحَرَم السلطانى. وكانوا يُقيمون فى مخيمات مُزَيَّنة خَلْف الجيش، ويعيشون حياة السَّراى نفسها.

وكان الانشغال بالحروب قد أغفل الاهتمام بالأناضول تمامًا. فاضطربت أحوال أهالى الأناضول على أيدى الجنود الإنكشاريين

والباشيبوزوق، وانقطعت المرتبات، وسلبت أقْوَات الشعب وزاده عنوة. كانت طرق القوافل محفوفة بالمخاطر. فقد كانت تَغْتصب جميع أموال التجار المتجهين إلى الأناضول.

حاول مصطفى الثانى أن يقوم بالإصْلاحات الخاصة بقضية الأناضول، غير أنه عند عودته من معظم حروبه، كان يصل استانبول، ويَقْضى أوقاته متنعماً فى ملذاته.

يعد (كوچوك مؤذن چلبى) أستاذ الموسيقى فى عصره، وقد اعتبره (كُتَّاب الوقائع) (الأستاذ الثانى فى فن الموسيقى). ونظراً للتقدير الذى يلقاه فى السَّراى فقد تولى مالية الأناضول، وانشغل الخواجه فيض الله أفندى فى نفس الوقت بمَنْح أولاده مناصب القَضَاة والإنعام عليهم بالمُخَصَّصات. وكانت هذه المخصصات سبباً فى إلحاق الأضرار لأرباب العلم والمعرفة الذين أفْسدوا بدورهم الزوايا لعدة سنوات فى المدارس. وكان الخواجه أفندى قد أتم "لابنه عاماً واحداً من الدورات المدرسية، ولم تمر سوى بضعة أيام حتى عمل على ترقيته من رتبة القضاة إلى توْليته حكم استانبول.

كان مصطفى الثانى غير مبال لكل سوء التصرفات التى كان يفعلها الخواجه أفندى. وكان قد شرع فى الانغماس فى "التمتع بالملذات" التى كان قد اشتكى منها حين جلوسه على العرش. حدثت على فترات متقاربة وقوع مواليد فى السراى.

في خلال هذه الفترة وقعت كارثة "زنتا". وكان السبب في الهَزِيمة مؤلمًا للغاية. كان الوزراء الموجودون في الجيش يحسدون الصدر الأعظم ألماس محمد باشا، وكانوا سببًا في هزيمة الجيش من أجل سقوط الباشا.

لم يكن في الإمكان إصلاح الكارثة. فكر مصطفى الثاني في تولية شخص قدير لإدارة الدولة. فاستقدم عموجه زاده حسين باشا وهو من عائلة كوپرولو. وكان عموجه زاده رجلاً مصلحًا ذا عزيمة. وكان أول شيء قام به طرد كوچوك مؤذن چلبي من السراي.

كان مؤذن چلبي "من عشاق استانبول الولهين المَعْروفين منذ القدم". وحينما كان عموجه زاده قائمقام استانبول، قام باستحضاره للمثول أمامه، بعد أن ضَيَّق الخناق على أحد عوالم كوچوك مؤذن چلبي في المتع والسرور. وأظهر امتعاضه من حسين باشا، غير أن كوچوك مؤذن چلبي كان من أحباء السَّراي. فكان يتحدث مع السلطان بحرية ويشرح له كل شيء. استدل عموجه زاده من بعض مواقفه غير النظيفة على أنه سوف يتجرأ على إيراد بعض الكلمات، فنحن لم نحتاج إلى كوچوك مؤذن چلبي، وقال لمصطفى الثاني:

- إن مثل هذا الشخص المَعِيب في أحواله مدعاة لإثارة القيل والقال وهو محرم أسرار فائض النور السلطاني.

غير أنه لم يتم استبعاد كوچوك مؤذن چلبي من السراي فحسب، فقد عُزِل أيضًا من مَهامه في المالِية، وحددت إقامته في مَنْزلته. خلال

هذه الفترة انشغل الخواجه فيض أفندى فى تولية ابنه قاضيعسكر على الأناضول.

لم يتمكن عموجه زاده من أن يُحقق ما وعده لخَواجه أفندى. وعلى الرغم من ذلك فقد أقيمت أيضاً محاولات فى سبيل إصلاح الدولة. ففى بداية الأمر أنهيت الحرب التى استمرت منذ عام ١٠٩٤هـ، وراح فيها من الأرْواح والدماء الكثير. ثم بعد ذلك شرع فى الإصلاحات الداخلية. وكانت هذه الخطوة هى أهم مشكلة. عانت الأناضول أشد المعاناة من حال الخراب الذى حل بها. وكانت بلاد العرب خاضعة للحكم التركى اسمًا. وانهمك قطاع الطرق من البدو العرب منذ سنوات فى تَقْتِيل الأتراك القادمين إلى الحج وتَجْرِيدهم. وكان الأتراك يؤدون مهمةً فرضها عليهم نبينا (ﷺ)، وهم يُقَدِّمون الرشاوى لقطاع الطرق من البدو العرب تحت مسمى "الصُّرة".

حاول (عموجه زاده) بكل ما أوتى من قوة إصلاح المملكة. وكان قَتْل أحد أقربائه وهو (قبله لى زاده على بك)، قد زاد من صعوبة الأمور. وكان السبب فى هذا أيضاً هو نذير آغا،آغا البنات.

لم تنفلت أية حركة تقوم بها سيدات السراى من تحت رقابة نذير آغا. وقد لاحظ ذات يوم:

"وعرف أن قبله لى زاده على بك (مُرْتَبط فى الخفاء) بإحدى السيدات المبجلات والمَقْصورات فى دفائِن العِصْمَة. ولم يترك الأمر يمر من بين يديه،

وتتبعه فى النهاية وقف على حقيقته تمامًا. وعلى الفور أبلغ مُصْطَفى الثانى. فاحتد مصطفى الثانى واشتط غضبًا. وكان قبله لى زاده قد حظى برتبة "الأمير الأول فى إصطبل السراى". تم عرض المسألة على الصدر الأعظم. أراد عموجه زاده أن يَنْقذ قريبه، ولكنه لم يستطع. وفى النهاية راح قبله لى زاده ضَحِيَّة فى سبيل امرأة. حزن عموجه زاده حزنًا شديدًا. واعتبر هذا القتل فى ذات الوقت مسألة كرامة بالنسبة إليه، حتى لقد تسبب الحزن فى إصابته بالمرض، وفى النهاية استقال من الصدارة بثبات قوى، ولم يكن فى الحقيقة يرغب فى الصَّدارة. وكان يراجع فى قبول استقالته عدة مرات.

كان مصطفى الثانى فى وضع صعب. وقد أحدث ما قام به الخواجه فيض الله أفندى من أعمال السلب والنهب سخطًا عارمًا لدى الأهالى. ولم يكن مصطفى الثانى يتنبه لهذا، وكان الصدر الأعظم يداوم على إقامة حَفَلات الضِّيافة فى أدِرْنه وفى السراى أيضًا. كان آغا البنات نذير آغا يُشارك فى هذه العوالم من المُتَع والسرور. وكان يستفيد أيضًا من الهدايا المُقَدَّمة فى معظم هذه الحفلات للسلطان والأمراء. فقد كان يرد الخلع المقدمة من قبل مصطفى الثانى فى مقابل الهدايا التى يقدمها الصدر الأعظم فى حفلات الضيافة. كان الوزير الأعظم هو "دال طابان مصطفى باشا. كان الباشا يعرف طريق تأمين مَنْصبه، فهو يقدم الهدايا لمصطفى الثانى والوالدة سلْطانة والأمراء. ومع ذلك، لم يدم

سعده كثيراً، فقد تولى مكانه الصدر الأعظم رئيس الكتاب رَامى محمد باشا. كان رامى محمد باشا من أرباب العلم والمعرفة. وإن قدر له أن يبقى مدة طويلة فى منصبه، لتمكن من أن يَخْدم الدولة. ولكن كان جَشع الخواجه فيض الله أفندى سببًا فى ابتلاء مصطفى الثانى وكذلك رامى باشا.

ازداد السخط يومًا بعد يوم. ولم يكن فى الإمكان أن يستمر طويلاً غلبة الجهل على العلم والباطل على الحق. وقَلِب عصيان أدرنه، أحوال استانبول وأدرنه رأسًا على عقب. وفى الحقيقة كان مصطفى الثانى قد فقد سلطته بسبب الخواجه، غير أن الخواجه أفندى قد لقى جزاءه بين أمْواج الطونجه، وقد رفع جنازته باباوات الكنيسة.

* * *

تولى السلطان الجديد أحمد الثالث العرش وهو ابن محمد الرابع أيضًا. وكان أضعف من أخيه، وأقل مَقْدرةً منه على إدارة الدولة. فقد قَضَى عمره كله مَحْبوسًا فى غرفة مغلقة. وكان أحب شيئين له هما: المال والمتعة، ومن ثم كان من الضرورى تَوْفير هذين الأمرين فى بداية الأمر حتى يُمْكن تَمَلقه.

وما إن جلس أحمد الثالث على العرش فى أدرنه، حتى قَدِم استانبول. وبدأت حركات العزل والتعيين على الفور. وكان آغا البنات نذير آغا

مَكْروهًا فـى حـقـيـقـة الأمـر. فـقـد تسـبـب تدخله فى أمـور الدولة فى نفـرة الكثـيـرين منه. وفى هذه المرة لم يـتم طرد نذير آغا من الآغويـة فـحسب، بل حُبِس خلف الأبواب من "كَثْرة تعرضه لمواقف تخلف الدولة والقوانين القديمة بها". كان الآغوات الذين أعانوا أحمد الثالث على تولى السلطنة، قد نَصَّبوا عبد الرحمن آغا آغا السراى القديم، فى منصب آغَوِيَّة البنات خـلال فـتـرة العـصـيـان. ولم يكن لأحـمـد الثـالث أى دخل فى هـذا على الإطلاق. بل إن عبد الرحـمن آغا كان قد قَبِل هذا المنصب، ووصل إلى أدرنه من أجل تولى مهامه، فى حين لم يكن السلطان قد قام باستدعائه، فقد أجْبِر أحمد الثالث على قبوله. ووكل إليه بآغوية البنات فى عـهدته، وأرسله إلى سراى أدرنه فى معية السلطانة الوالدة كلْنُوش (١١١٥هـ). ولا يزال آغا البنات السابق مَحْبوسًا خلف الأبواب فى أدرنه. وفى النهاية استقدم إلى استانبول وهو مُقَيَّد اليدين بالسلاسل، ومعه أولاد الخواجه فيض الله أفندى، وحُبِس فى سجن (يدى قوله). وبعد مصادرة جَمِيع ما يملك نفى إلى جزيرة (لِمْنى). وتم إبعاد أولاد الخواجه فيض الله أفندى الذين تولوا المناصب حتى وصلوا منصب قاضيعسكر، إلى قلعة (ماغُوسَه) بقبرص. وقد عفى عن العلماء وأرباب العلم والمعرفة الذين طردوا زمان مشيخة فيض الله أفندى. هرب الصدر الأعظم رامى محمد باشا أثناء الحادثة، واختفى فى مزرعة يملكها "الأوطاقجى" فى حى أيوب. ثم عَفَا أحمد الثالث عن الباشا، ولكنه عين فى إيالة (قبريس) ولم يتول وظيفته فى استانبول.

باشر أحمد الثالث الدخول فى عالم المتع والملذات. وكان قد أمر بتشييد قصر فخيم خاص به فى السراى الجديد، وفى إدارة الوالدة. غير أنه لم يستطع أن يقبل آغا البنات عبد الرحمن آغا على الإطلاق، وقرر فى نهاية الأمر أن يعزله. لم يكن واضحاً من سيتولى آغا البنات الجديد. وكان من المرجح على كل حال أن يتولاها رئيس الآغوية (أوزون سليمان آغا). لم يكن الصدر الأعظم الداماد حسن باشا يرغب فى ذلك. فقد كان سليمان آغا أكثر سَيْطرةً من آغا البنات وهو آغا الوالدة، ففكر الصدر الأعظم الداماد حسن باشا، وناقش الأمر مع رجال ذوى نفوذ فى السراى، قائلاً لهم:

– فى الوقت الراهن وهو لا يزال فى وضعه الحالى، يعاملنا أسوأ من معاملة آغا البنات لنا، ولا ريب فى أنه إذا تولى الآغوية سيكون من المحال التفاهم معه على الإطلاق، فضلاً عن تمتعه بنوع من الاستقلالية التى كانت فى أيدينا. أما إذا سعيتم لتعيين المسئول عن المالية محمد آغا فى هذا المنصب والذى يتمتع بالاعتدال والوَسَطيَّة، لكنا قد تخلصنا من سيطرة إمزون سليمان آغا، وكذلك وضع من قُمْنا بتعيينه وفق هوانا ورضانا.

عرض القضية مع جُوجَه حَمْزَة آغا على محمد آغا. غير أن الأخير خشى من أوزون سليمان آغا، فعرض الأمر على سليمان آغا خوفاً من الوقوع فى المسئولية. انكشفت الحيلة التى دَبَّرها الصدر الأعظم

لسليمان آغا بسبب معاداته له. فقام بإبعاد آغا البنات عبد الرحمن آغا ومحمد آغا من السَّراى فى الحال، وعين أوزون سليمان آغا فى منصب آغوية البنات (١١١٦هـ).

كانت آغوية البنات لأوزون سليمان آغا مهمة. فقد كان الآغا من أرباب العلم والمعرفة، وما إن تولى آغوية البنات حتى تصدى للصدر الأعظم، وحاول عزله باستمرار. وفى معظم الأحوال كان يتناقش مع أحمد الثالث فى قضية الصدارة. غير أن السلطان كان متردداً فيمن سيوليه الوزارة، فقال له آغا البنات:

- لن يكون أحد قدير بالوزارة مثل قَلايْلِى باشا.

كان قَلايْلِى قوز أحمد باشا قد كَسب مَحَبَّة أهالى استانبول خلال توليه منصب القائممقامية نال آغا البنات سليمان آغا مراده، وتولى قَالايْلِى قوز منصب الصدارة.

حظى آغا البنات بنفوذ كبير رغم زمانه القليل، فقد كان يأمر الخاصْكِى آغا بفعل ما يريد، وكان يُدير السراى مستقلاً بنفسه، خلال هذه الفترة ولدت فاطمة سلطانة، وهى أول مواليد أحمد الثالث. وتوالت الأفراح والاحتفالات واستغرقت ليالى المُتَع بضعة أيام.

كان آغا البنات هو أكثر الشخصيات ذات النفوذ فى السَّراى. وكان يمثل أهم عامل فى إدارة شئون الدولة. وكان الصدر الأعظم بمثابة عَبْد له.

فهو شخص جاهِل وضعيف فى حقيقة الأمر. كان قد اصطاد سمكة "المورينا" الضخمة أمام قصر (يالى)، وفى اليوم الذى جاء فيه الباشا من (قَنْديَّه) إلى استانبول من أجل أن يتولى منصب الصدارة. وقد مثل الباشا للحضور فى ذلك اليوم، وبعد أن تناقش طويلاً مع السلطان صَعِد إلى قصر (يالى). وكانت الغُرْفة مزدحمة. فَجلس. وشرح مفتخرًا ما كان يناقشه مع السلطان. ثم انتقل بحديثه إلى السمكة التى اصطادها فى ذلك اليوم، فقال:

– لقد برزت به سمكةً كبيرةً. وقد اندهش السلطان لحجمها. فبينما كنت قبطانًا برزت فى البحر الأبيض سمكةً يصل حَجْمها من هنا حتى أيوب.

"لم يستطع أحد الرد".

وكان قد أحضر فى اليوم الذى قدم فيه إلى استانبول أولاده وزوجته، وخُدَّامه وشحن متاعه فى سفينتين من السفن الحربية.

استمر الوزير الأعظم فى حديثه:

– لقد لقى العدد الغفير من خُدَّامى الذين قدموا فى السفن الحربية، رعاية أفندينا صاحب العظمة، وحينما أبدى دهشته من كثرة أعدادهم، رددت عليه بأنه كان لى من الأتباع والخدام ما هو أكثر من هذا فيما مضى من الزمان. وعندما لمس عَدَم قُدْرَة أى شخص على الاعتراض

على ما يقوله سواءً بنعم أو لا، أفاض حضرة الباشا فى حديثه، وشرع فى تقديم أمثلة تؤيد ما قاله من آراء، حيث قال:

- كان لى أعمام يَعِيشون فى ولايتى. وكان كل واحد منهم يعطى ألف كِيسة للزكاة.

لم يتمالك السلحدار عثمان آغا نفسه حينَذاك، وقال:

- هل كان يعطى ألف كيسة للزكاة ؟ فمن المعلوم أن أعمامك يمتلكون أربعين ألف كيسة. وهذا كثير للغاية.

صار الجميع فى حيرة من أمر مُبَالغة الوزير الأعظم.

وبناءً على ذلك استطاع آغا البنات سليمان آغا أن يسيطر دائمًا بذكائه وحنكته بصفة خاصة على أى شخص يفكر بمثل هذه العقلية. كان قَالاَيْلِى قُوز من البلهاء. وكان شعراء العصر يسخرون منه دائمًا:

ذات يوم جاء قَالايْلى فجأةً، وصار وزيراً

يقول كل من يراه : لقد انْتَهك عِرْض الوزارة

وأنا أقول إنه قد تأدب، إذ أن الفَلَك يقوم بالتهذيب

والتَرْبية، شيء ضَرورِى، ولطالما رُوِى عنه الكَثير جداً مِنْ المَغامَرات

قال خَبير بالأُمور وبَصير ذو تَجارب

إن تربية ممن لا كفاءة له كقُبَة الجوز المُفرَغة

كان قَالايْلِي قوز أحمد باشا ينتسب إلى قَيْصَرية. وكان مُولعًا للغاية بالأبهة والفخامة. فكان يزين القلنسوة التى كان يرتديها عند ذهابه إلى الديوان بكثير من الخُيوط أكثر من المُعتاد، وكان يرتدى من الثياب المطَرَّزة أقمشتها المطرزة بالديباج المذهب، ويقوم بتغيير قيافته يوميًا. وعندما كان أحمد الثالث يشير إليه بتركه لهذا الحال، كان يقول:

– لا يليق أن يَشْبه الوزير الأعظم سائرِ الوزراء فى حِشْمَتِه وثيابه، فمن الدواعى الضرورية لحال من يتولى الصدارة أن يتميز عنهم فى تَبْجِيله، وكذلك يمتاز عنهم أيضًا فى أخذه بأسباب الزينة والفخامة.

لقد طغى الاهتمام بأمور الزينة والفخامة طيلة زمان الباشا، أكثر من الانشغال بأمور الدولة. وفضلاً عن ذلك فقد كان مَغْروراً أكثر من اللازم. حتى إنه كان يقول فى كل مكان إنه كان السبب فى جلوس أحمد الثالث على العرش، وكان يَفْتَرى عليه الكذب فى كل أمر لم يكن هو قد فعله.

كان أعز صديق لقِالايْلى قُوز هو بالطه چى محمد آغا، وقد حظى آنذاك بمنصب القبطان رغم أنه كان يرغب فى منصب الصدارة. ولكن عندما تولاها (قَالايْلِى قُوز) لم يكن يستطيع أن يبوح على الإطلاق بما يجعله فى موضع تنزلق فيه قدماه. وفى النهاية ناقش الأمر مع أمير الاصطبل عثمان آغا. وبعد أن تعهد له عثمان آغا، ووعده بتوليته منصب (كَتْخُدا الصدارة)، قال إن الوسيلة الوحيدة لنيل المراد تكون بإفساد

العلاقة بين آغا البنات سليمان آغا وقالايلى قوز وبين شيخ الإسلام، وفى الحال بدأت تحاك المؤامرات والمكائد. وأشيع فى كل مكان أن قالايلى قوز أحمد باشا سوف يستقدم لآغوية البنات مرةً أخرى يوسف آغا المَوْجود فى مصر حاليًا، ويوليه آغا البنات فى زمن محمد الرابع. وبلغت هذه الشائعات فى نهاية الأمر آذان سليمان آغا آغا البنات. فى البداية لم يَرْغب فى تصديقها، ثم سمعها من فم البالطه چى ذاته. وقرر أن يؤلب السلطان ضد الوزير الأعظم، ولكنه فكر، وقال:

– ماذا أفعل؟ إننى المُرَجح والمفضل لدى السلطان، وأحظى بمَدْحه وثنائه. وإذا ذكرت ما هو مغايرًا للحقيقة، فسوف يحملونه على غرض ما فى نفسى ولن يصدقونه.

تردد مدة طويلة. وهرع القبطان البالطه چى محمد باشا نحو قَالاَيْلِى قُوز عندما أدرك أنه لم يفعل آغا البنات أى شىء. لم يكن شيخ الإسلام فى ذلك الوقت يقوم بتصحيح صدارة قاللايلى قوز. فقرر إفساد العلاقة بين شيخ الإسلام وقالايلى قوز. وقال للوزير الأعظم ذلك الكلام:

– ماذا تنتظرون ؟ لقد علمتُ بوقوع خلاف بينكم وبين شيخ الإسلام، وهو يسعى الآن لإقالتكم. فإن لم تسرعوا بتدارك الأمر على وجه السرعة، فلا ريب أنكم سوف تقالون من مَنْصِبكم قريبًا. إنكم بذلك تؤلموننا.

لم يتضايق القبطان باشا على الإطلاق. وشَرَع يَبْكى رياءً. وفى الحال صدق (قالايلى قوز) كلام البالطه چى هذا. وقال ببراءة تامة:

- أخى الباشا. لك الرأى والتدبير فى هذا الشأن. فإننى سوف أتصرف وفق ما تراه مناسبًا فأوصى البالطه چى محمد باشا بتلك الوصية:

- تصلون أنتم خلال هذه الفترة للمثول أمام السلطان، وتُفْسدون المؤيدين لشيخ الإسلام أفندى، وتعقدون العزم على عزل وتبديل وإعلام وإنهاء كل مَنْ يريد إثارة أى فتنة.

لقد صدق قالايْلى قوز. وكان آغا البنات مؤيداً له. وكان الشخص الأمين عثمان آغا أمير الأصطبل الذى عمل على سقوطه هو والبالطه چى. وبناءً على ذلك لم يكن فى إمكانه ذلك، وفى الحال جاء للمثول أمام السلطان، وكرر كلام البالطه چى.

كشف أحمد الثالث المسألة. وسأل الوزير الأعظم قالايلى قوز:

- ممَنْ سمعت هذا الخبر؟

فبُهت قالايلى قوز، واضطرب قليلاً، فلم يكن يتوقع أن يسأله السلطان مثل هذا السؤال. فلم يجب عليه بأكثر من قوله متلعثماً:

- هذا مَشْهور ومُتَواتر بين الناس.

وبناءً عليه قال أحمد الثالث:

- إذن، قم واقف متحريًا هذا الأمر.

وفى هذه المرة توجه آغا البنات سليمان آغا إلى الداخل، وسأله أحمد الثالث على الفور:

– لقد ذكر الباشا لى كلاماً لا معنى له. فهل عندك أخبار حول هذا الموضوع؟

كان آغا البنات فى الحقيقة يتوقع سقوط قالايلى قوز. فأجاب فى الحال بذلك الرد على السلطان:

حاشا لله سلطاننا. هذا الكلام هو محض افتراء. إن المفتى السيد على أفندى فوق مستوى الشبهات وهو محب للخير للدين ولدولتكم، من الضرورى أن يكون غرض الوزير الأعظم من إدعاءاته بمثل هذه الافتراءات كامناً فى التغاضى عن بعض خياناته عند أعتاب بابكم العالى. وأننى أنا عبدكم سوف أتحرى حقيقة هذه الأحوال، وأوضح لجلالتكم حقيقة الأمر.

كان بالسراى مع آغا البنات أشخاص يتمتعون بالذكاء الخارق، وكان يازِيجِى موشْقَرَه لى إبراهيم أفندى، وأوچ انبارلى محمد أفندى، ونعيما جميعهم ممن نشؤوا فى كنف أوجاْقلِية البالطه چى والتابعين لآغا البنات. كان كاتب آغا البنات هو (إبراهيم أفندى اليازيجى)، وقد تولى فى نفس الوقت منصب كاتب أوقاف الحَرَمَيْن، وقام بتعيين (نعيما) فى مالية الأناضول. وبعد أن تحدث آغا البنات (سليمان آغا) مع السلطان، نادى (إبراهيم أفندى يازيجى) وأخبره قائلاً:

– لقد ادعى الوزير الأعظم بعض الافتراءات ضده خلال حديثه مع جلالة السلطان. لكن بالطبع لن يكون لها أى تأثير. فلن تصغى السلطنة إلى مثل هذا الكلام.

وبهذه الطريقة قام بتحَريض شيخ الإسلام أيضًا ضد الوزير الأعظم (قالايلى قوز).

ومن ناحية أخرى تحاشى (قالايلى قوز) سؤال السلطان، وعلى الفور استدعى القبطان (بالطه چى محمد باشا)، وعرض المسألة، وتظاهر (البالطه چى) بالضيق قائلاً:

– عِنْدما تفضل بالقول جناب السلطان واستفسر عن هذا الخبر الذى وصل إلى مسامعك، فلم لا توجهون كلامكم بما يفيد المعنى الآتى "أننى سمعت من أوجاق الإنْكِشارِيَّة ؟ فلتصلوا غداً، وتجيبوا على كل ما يصل مسامعكم من قبل الأوجاق. إن أصدقائى من رجال الأوجاق كثيرون. ولسوف يصدقون القول إذا ما وجه إليهم السلطان من أسئلة. ولقد صدقه (قالايلى قوز)، ثم خرج اليوم التالى للمثول أمام السلطان، وقال:

– لماذا لم تصدقوا الكلام الذى أوردته فى حق شيخ الإسلام؟ فحينما جاء يوم أمس رجال أوجاقلية الإنكشارية من أجل القيام بالزيارة المعتادة، أورد المفتى أفندى بوجود نفاق خفى واتحاد مُحَرِّض على الفتنة

والفساد مع بعض الطوائف الباغية، وعلى هذا النحو قال السلطان أننا لا نريد الإنسان الخائن.

كان أحمد الثالث يعلم أن الوزير قد افترى فى كلامه ضدِ المُفْتى. وبناءً على ذلك لم يبطل كلامه مطلقًا. ولكنه لم يرد أن يفسح المجال لحدوث فتنة جديدة. وكان يدرك أن القبطان بالطه چى محمد باشا هو أوثق من يرتبط بعلاقات مع الأوجاقْلِيَّة. وقال لهذا السبب:

- إن للقبطان محمد باشا ارتباط وعلاقة بالجانب الهمايونى، وله ود واختلاط مع رجال معسكر الإنكشارية.

وقال أنه سوف يستفسر من القبطان بالطه چى محمد باشا عن المسألة. ولم يستطع قالايلى قوز فى هذه المرة أن يجعل السلطان يصدقه. وعلى الفور أوضح المسألة للبالطه چى. وكانت بالنسبة للبالطه چى فرصة تامة. وعلى الفور قبض الزغارجى باشى طور طوملى على إبراهيم آغا. وقام بتَوْضِيح المسألة، وأثير الموضوع ضد الوزير. ووعد الصدر الأعظم أنه إذا عُيِّن صدرًا أعظم بأن يعطيه آغوية الإنكشارية. وقال إنه إذا ما قام بتوضيح المسألة للسلطان فسوف يجلب له "الهلاك، وبناءً عليه ذكر أنه سوف يستقدم نفسه للمثول أمام السلطان، ثم أضاف:

- إذن سوف أعمل على مقابلتك بالسلطان. ولا تخش على الإطلاق، واذكر ما سمعته وعلمته أن الوزير يهوى إثارة الفتنة ويقوم بتسخير

معظم رجال معسكراتنا، ولمح له عن صداقتك ولكنه لم يستطع إقناعى، وعندما أتشرف بمقام الصدارة، سوف اختصك بآغوية الإنكشارية .

وضع البالطه چى الخطة وأحكم تنظيمها. وتم إرسال شخص إليه من السراى فى اليوم التالى. وسئل عن مسألة الفتنة. وأجاب البالطه چى قائلاً:

– لو أننى سألت عن ذلك الموضوع من أى رجل من رجال المعسكر، لكان قد أصر على كتم الأسرار وعدم إقرار أحدهم بحرف من أجوبتهم الحاضرة، لكى يتم استبعاد الوزير. وخاصةً وقد استمال زَغَرْجِى باشا، إبراهيم آغا للجانب السلطانى من خلال مقابلات كثيرة، حتى يكون ذليلاً، وأوقفه على المضمون كله والمَقْصود هو رعاية موالاته للسلطان. غير أنه أجاب قائلاً إننى أقول لحضرة صاحب العظمة السلطان شخصياً إذا اضطر الأمر لأن أقول، ولن أحرم الفقير أيضاً من تَفْصِيل حقيقة الحال.

وفى نهاية الأمر تقرر إحضار (زَغَرْجِى باشا) للمثول أمام السلطان. فخرج إبراهيم آغا للمثول أمام السلطان. وعرض المسألة كما عَلَّمه (البالطه چى). وتم عزل (قالايلى قوز) فى الحال، وأعطيت الصدارة للبالطه چى محمد باشا. وصار عثمان آغا وهو شريك البالطه چى فى التزوير، كَتْخُدا الصدارة، وصار إبراهيم آغا أيضاً آغا الإنْكِشارِيَة. لم يستطع آغا البنات أن يفهم أيضاً كيف وصلت المسألة إلى هذه النتيجة، ولكنه كان ممنوناً من هذه النتيجة أيضاً (١١١٦هـ).

كان قالايلى قوز قد جاء من (قَنْدِيَّه) حينما تولى الصدارة، وقد أرسل إليها أيضاً مرةً أخرى. وسقط أحمد باشا عن الصدارة، ولكنه لم يستطع أن يتنحى مطلقًا عن الزينة والفخامة. اهتم بجمع المصابيح الفضية من الكنائس فى (قَنْدِيه) وبتصنيع أطقم الفرس وركابه.

ومن أجل أن يَزِيد البالطه چى محمد باشا من نفوذه، دفعه إلى أن يُقْحم رجاله فى أرفع المناصب بالسراى. وكان من بينهم "اليازيجى إبراهيم أفندى (نَوْشَهِرْلِى إبراهيم باشا) والآخر السلحدار على آغا (شهيد على باشا). فى حين أنه كانت هنالك علاقات حميمة تربط بين الاثنين وآغا البنات سليمان آغا. كان البالطه چى يتجنب إبراهيم أفندى، حتى إنه كان يقول:

– نظراً لأن اليازيجى سوف يبقى فى مكانه، فلن يكون هناك أدنى درجات القبول للراحة السلطانية وفقًا للقاعدة الجفرية.

وكان السبب فى ذلك واضحًا: أن إبراهيم أفندى كان "يخبر الجانب الهُمايونى عن بعض أحوال الوزير المذكور التى ألحق بها الفساد فى أمور الدين والدولة".

لم يستطع البالطه چى أن يفلح فى مسعاه رغم كل ما دَبَّره من دسائس وما قام به من حيل وتزوير. وكانت النتيجة أن اسْتُبْعد عن الصدارة. وأخذ "المُهْر الشريف "من يديه بواسطة آغا البنات (سليمان آغا). وعيِّن (چُورْليلى على باشا) فى مقام الصدارة (١١١٨هـ).

سيطر آغا البنات سليمان آغا على السراى سيطرة تامة فى زمان جورليلى على باشا. وكان الصدر الأعظم يجلس عادةً فى حجرة آغا البنات، وكان يدخل بواسطته للمثول أمام السلطان.

فى تلك السنة (١١٢٠ هـ) تزوجت (أمينة سلطان) - وهى إحدى بنات المرحوم مصطفى الثانى - من چورليلى باشا، وتزوجت عائشة سلطان أيضًا من الوزير كوپريلى زاده نعمان باشا. وكان وكيل السلْطَانَتين آغا البنات سلَيْمان آغا. مرض أحمد الثالث فى هذا العام أيضًا. تجمع كل الأطباء فى حُجْرَة آغا البنات. وكانوا يتناقشون حول مسألة علاجه فى تلك الغرفة. بل وأمر جميع الأطباء "بالراحة ومُلازَمة الفراش "فى غرفة كاتب آغا البنات "موشقره لى إبراهيم أفندى. ويعد آغا البنات ومعه إبراهيم أفندى من أكثر رجال السراى نفوذًا. غير أن كثيرًا منهم لم يستطع أن يُطيل نفوذه أكثر من ست سنوات. فقد تم إبعاد إبراهيم أفندى عن السَّراى، واستبعد من منصبه فى المالية، وانضم إلى زمرة الأساتذة الكتاب.

فى تلك الأثناء تزوجت (فاطمة سلطان) ابنة أحمد الثالث من السلحدار على باشا. وفى حفل العرس أهدى السلطان وأغا البنات الفَرَس الممتازة والمطهمة. وقد أقيم العرس فى غرفة آغا البنات. وكان يقدم فيها القهوة والشَّراب والبخور للمدعوين. وكان آغا البنات يرتدى السليمية كالمعتاد، وفرجية[٧٨] من الصُّوف فوق ظهره، وتولى إدارة حفل العرس،

وتسليم مَكْرَمَة العرس. فى حين جلس الصدر الأعظم بالقرب من آغا البنات الذى قام بتنظيم مشاهدة مَوْكِب جِهاز العرس، فضلاً عن أنه كان وكيل السلطانة فاطمة فى زواجها. بلغت تكاليف زواج السلطانة فاطمة أربعون ألف ذهبية. كذلك كان آغا البنات سليمان آغا وكيل السلطانة صفية - وهى إحدى بنات مصطفى الثانى - عند زواجها من مقتول زاده على باشا. انعقد الزواج بمهر مُؤَجل بلغ عشرة آلاف ذهبية. ولم تستمر سعادة چورليلى على باشا مُدَّة طويلة. فلم تكن العلاقة بينه وبين آغا البنات سليمان آغا جيدة، خاصةً وأنه كان السبب فى عدائه مع السلحدار على باشا. وخلف (على باشا) مباشرة "كوپريلى زاده نعمان باشا"، وخلفه (البالطه چى محمد باشا) للمرة الثانية. ظل (البالطه چى) فى بداية صدارته يقوم بتدبير الدسائس. وخاصةً أنه لم يستطع أن يطيل نفوذه فى سراى آغا البنات سليمان آغا. أصله من (قسطمونى)، وله ولع بالموسيقى لم يستطع أن يتقبل نفوذ رجل زنجى فرض سيطرته على السراى بهذه الدرجة. فثار ضد (آغا البنات) وكذلك فعل السلحدار على باشا.

على سبيل المثال كان يقول لآغوات الأوجاق عقب حادثة (بروت):

- هيا، اعدُّوا رؤوسكم. فلقد علَمت مِنْ مصادر موثوقة فيهم، أنهم فى سبيلهم إلى التخلص منا جميعًا، فلم ننل إعجاب الغزاة الكبار المفتى أفندى والسلحدار باشا وآغا در السعادة، وهم لم يسبق لهم مثيل ولم

يظهر لهم مثيل فى أى تاريخ، أؤلئك الغزاة الأغر الذين استقدمتموهم وضحيتم بأرواحكم ورؤوسكم فى سبيل ملك الملوك.

وفى نهاية الأمر كانت الحيلة التى دبرها البالطه چى باقتدار سبباً فى سقوطه. ولقد تعاقب عليه على التوالى يوسف باشا وسليمان باشا وإبراهيم باشا والسلحدار على باشا. كان على باشا صديقًا لآغا البنات سليمان آغا. وكانا يُدِيران السراى لبضع سنوات فى مواجهة مع جميع منافسيهم. ولكن تسببت صدارة على باشا فى إلحاق كارثة كبيرة على آغا البنات سليمان آغا. فقد أنهى على باشا حكم آغا البنات سليمان آغا؛ وسلب من يديه كل نفوذ له فى السراى (١١٢٥هـ). بل تم استبعاد مُتَوَلِّى الخزينة بشير آغا مع آغا البنات سليمان آغا من السراى. وأرسل إلى مصر. وانتهت بذلك سيطرة سليمان ونفوذه الذى استمر بضع سنوات فى لحظة واحدة. ولقد كتب ذلك الحكم فى ديوان سليمان آغا: الحكم على سليمان آغا آغا دار السعادة سابقًا، حيث إنه من الأمور التى لا ريب فيها أنك أيها المومى إليه قد قمت بادخار الأموال الوفيرة قبل بضع سنوات، ولقد صدر الأمر الهمايونى بدفع مَبْلغ ألف كيسة رومية تخصص للإمدادات الحربية، ولن تذهب إلى مصر إن لم تُسلم ذلك المبلغ كله إلى وكيل الدفتر دار إسماعيل دام علو شأنه فى استانبول، وبمباشرة... دام مجده، وهو من رؤساء غلمان بابنا العالى.

وعند وصول ذلك الأمر الشريف الواجب الامتثال الآن، وبلوغ أمرنا الشريف أيضًا إلى وزيرنا الحاج أحمد باشا أدام الله تعالى إجلاله وهو

صاحب الصدارة العظمى والوكالة الكبرى قائممقام أستانه دار السعادة، وهو بمثابة الوزير المبجل والمشير المفخم الذى يحكم نظام العالم حتى الآن، فلتنفذوا ذلك الأمر الذى صدر بأمرنا العالى الشأن بخصوص إبراء الذمة ودفع مبلغ ألف كيسة رومية، وهو المبلغ المطلوب للإمدادات الحربية على الوجه المشروح، ولن يذهب إلى مصر إن لم يسلم المبلغ المطلوب، ويقوم بدفعه كله قبل سفره، ويسلمه إلى المومى إليه وكيل الدفتردار فى استانبول وتحت مباشرة رئيس غلمان الباب العالى (القبوجى باشى)، وبمعرفة المشار إليه الوزير، أوائل ربيع الأول ١١٢٥هـ".

بقى آغا البنات فى موقف صعب. لقد انقضى الزمان الجميل الآن، ولم يتم تسليم الأموال. فصدر الحكم المنفصل على قائممقام استانبول بالتَوْبِيخ. وفى نهاية الأمر قدَّم آغا البنات سليمان آغا جزءًا كبيرًا من المبلغ وبقى مائتان وخمسون كيسه.

كان سليمان آغا سيذهب إلى (بوغاز حصار) مع بشير آغا، ومن هناك يتوجه إلى "قِبْرص" "مع كل أملاكه وجواريه ومماليكه"، على أن يقيم هناك. خرج سليمان آغا من استانبول، واتجه إلى (بوغاز حصار). وصدر بسببه الحكم على قائمقام استانبول. وعندما قام بتسليم مائتين وخمسين كيسة، أصدرت الأوامر بوقف سليمان آغا وبشير آغا عند (بوغاز حصار)، فى حين عُين القبطان الوزير (سليمان باشا) (على سفينة حربية كبيرة) من أجل إرسالهما إلى قبرص.

بيعت أملاك سليمان آغا التى تركها فى استانبول. وأخذت المئات من الأكياس من خلفائه (عثمان) و (يدكچى على). أرجأ سليمان آغا دفع مائة وخمسين كيسة. فأصدرت الأوامر بمراسلة محافظ (بوغاز حصار) وقاضيها، وبضرورة التحفظ عليه كما يجب، على الدوام ليلاً ونهاراً. وفى النهاية ذهب آغا البنات سليمان آغا إلى مصر بعد أن رد الأموال (١١٢٦هـ). وتم تسليم بشير آغا أيضًا إلى شيخ حرم المدينة المنورة عام ١١٢٦هـ.

ثم تولى محمد آغا، محل سليمان آغا، آغا البنات وقد أنعم عليه بامتياز "آضنه".

لم يترك السلحدار (على باشا) آغا البنات (سليمان آغا) يستريح فى مصر أيضًا. فقد استصدر أمراً بقتله وكلف بذلك الأمر(حكيم أوغلو على باشا = حكيم بن على باشا) - وهو من رؤساء غلمان الباب العالى [ويسمى باللغة التركية قابى جى باشى](٧٥) - حكيم باشى زاده على بك. فجاء حكيم أوغلو على بك إلى مصر، وأمر بقتل آغا البنات سليمان آغا الذى قدَّم إلى الأعتاب السلطانية كل ما يملك من أموال وغيرها ومعها رأسه ودفاتره جميعها.

لم يشعر أحمد الثالث بهذا كله، بل لقد طالب بتجريد كل ما يملك آغا البنات سليمان آغا، وحتى الجَوارى التى كانت فى معيته، وأصدر ذلك الأمر إلى حكيم أوغلو على بك:

(أمر مُوجه إلى حكيم باشِي زاده رئيس حُجَّاب بلاطنا المعظم، دام مجده، أنت يا رئيس حجاب الباب العالى المشار إليه، قم بتَوْقِيع العقاب الذى كُلِّفت به تجاه سليمان آغا دار السعادة سابقًا وفقًا لأمرنا الشريف الذى أصدرناه من قبل، وأرسل إلى أعتاب بلاطنا أمواله ومتاعه مع دفاتره ورأسه المقطوعة).

يعد عزل أغا البنات سليمان آغا وقتله من الحوادث المهمة. فقد لمس فضله الكثيرون. ويعتبر (إبراهيم أفندى يازيجى) من أحب الشخصيات التى قام بتربيتها، ولا يوجد من لا يعرفه من الأدباء والشعراء ومن لا يعرف خيره. وكان السلحدار الشهيد على باشا هو سبب كل المصائب التى وقعت لسليمان آغا.

كانت فاجعة آغا البنات قد أدمت قلوب من يَعْرف خير هذا الرجل. ولم يكتب كاتب الوقائع (راشد) كلمة واحدة لا عَنْ عَزْله ولا عن العاقبة التى تعرض لها، حينما كتب عن زمن صدارة إبراهيم أفندى يازيجى. غير أن الشهيد على باشا كان واقفًا على كل أفعال آغا البنات حينما كان مسئولاً عن فرقة السلاح. وكان الوزراء المقتدرون من أمثال (چورلولو) وغيره ممن تولوا مسؤولية إدارة الدولة، يقدمون أنفسهم فداءً وهم يعادون جميع الآغوات.

لم يكن كل من تولى الصدارة فى هذا العهد من الديوْشِيرْمه، فجميعهم من الأتراك الذين خدموا السراى. وعلى سبيل المثال كان هو

(على باشا) من إيزنيق، فى حين كان (زنجى) هو المسيطر على كل السراى. ولقد أنهى على هذا الحكم وهذه السيطرة الشهيد (على باشا). ففى زمنه لم يتدخل آغا البنات (محمد آغا) فى أى أمر من الأمور سوى مهام عمله المكلَّف بها. استشهد على باشا فى موقعة (واردين) ولم يسيطر آغا البنات فى زمان أسلافه، ولم يفرضوا نفوذهم فى الشئون السياسية. وكلما تولى الصدارة وزراء عظام قادرون على فرض نفوذهم وإدارة الدولة، اهتم آغا البنات بأمور السيدات والبنات فحَسب.

ويعد (موشقره لى إبراهيم أفندى) كاتب آغا البنات الأسبق (سليمان آغا)، من بين الوزراء العظام الذين خلفوا الشهيد على باشا، فقد تولى نفس المنصب، بل وتزوج من فاطمة سلطانة التى لم يتيسر لها أن تزف على الشهيد على باشا وتتزوجه. قام إبراهيم باشا بعزل محمد آغا آغا البنات وأرسله إلى (مصر). وعين مكانه بشير آغا آغا للبنات (١١٢٩هـ). لم يكن لبشير آغا أى نفوذ أو سيطرة على أمور الدولة طيلة الفترة التى ظل فيها (إبراهيم باشا) فى الصَّدارة. كانت السراى وجميع أركانها من الأتراك. وكان معظمهم من أصهار إبراهيم باشا وأقربائه. ولم يكد إبراهيم باشا يعقد معاهدة (پساروفچه)، حتى عمل على النهوض بالدولة ثقافيًا وإقتصاديًا. ولم تقم فى الأناضول أية حركة عِصْيان. فقد كان جميع من يُدِير الدولة من الأناضول. وكانت استانبول حتى مجىء هذا التاريخ تَسْتطيع أن تحمى أهالى الأناضول ولم تكن تمص دماءهم.

ولم تكن مشاعر الغيرة تظهر على الإطلاق تجاه ازْدياد حُسْنها، ولا يمكن أن يستشعرها إخوان أهالى الأناضول. لم يهمل إبراهيم باشا الأناضول، كما أنه أقام فى استانبول أعمالاً نافعة لثقافة الشعب وتربيته، مثل المَكْتبات والمَدَارس ومصانع الخزف وفرق المطافئ، وبناء مَطْبَعة. واستحدث (مُوشْقَره) وجعلها (نَوْشَهر)، أى مدينة جديدة كبيرة. وزينها بالجوامع والمدارس والخانات والعيون والعمارات والحمامات والمكتبات. واعتباراً من ذلك التاريخ سُمِيِّت بـ"نَوْشَهْرِلى".

ارتبط الوزير الأعظم بالأناضول وبثراها. وهذا الإحساس الذى لا يمكن أن يشعر به أى شخص أجنبى تجاه الأناضول، قد انعكس فى أعماق زوايا أرواحهم، وأظهر تأثيراً جارفًا من الحب والانجذاب دائمًا نحو هذا الوطن الجميل. وكان آغوات البنات حتى ذلك الزمان يسيطرون على السلاطين الذين استغرقوا كثيراً فى الانْهِماك فى الملذات والمتع، وكانوا يَسْتَطِيعون من خلال تأثير هذا النفوذ أن يوفقوا فى العزل والتعيين. ولقد ضمن (إبراهيم باشا) فى بداية الأمر أن تكون الإدارة وفقًا لذوق السلطان ومزاجه. ولم يكن لآغا البنات حينذاك أى نفوذ كبير بجانب السلطان. كان آغا البنات بشير آغا يهتم بوظيفته فحسب، وفى نفس الوقت كان يحظى باحْترام الكثيرين أيضًا. وعادةً ما كان يحصل فى حفلات العرس على ثياب ذات فِراء فراجى، ويستفيد من مشاركته فى التمتع والتلذذ الذى استشرى فى السراى، وبمشاهداته لـ(حلقات اللاله).

وكانت غرفة آغا البنات بشير آغا تعج برجال أركان الدولة جَميعهم، حينما كانت تقام المحافل الهُمايْونِيَّة[٨٠]. فكان (بالطه جى آغا البنات) يقوم بتقديم القهوة للحضور. فى ذلك اليوم يرتدى آغا البنات (السليمِيَّة)، وكان يشارك الوزير الأعظم فى جميع المراسم. واستمر آغا البنات الحاج بشير آغا فى عمله أكثر من ربع قرن فى السراى. وكان شاهداً على ما ساد من الملذات والمتع والرفاهية والسعادة فى عهد صدارة إبراهيم باشا. وفى نفس الوقت لم يفته الاستفادة من أعمال الخير والبر. ولن يوجد بعد الآن من وزراء يتخرجون من الديوْشِيرْمه، ولن يوجد منهم من يقوم بتشتيت الأناضول، أو من تنقطع صلته بالمملكة، فى سبيل متعته وملذاته. فقد ساد الأتراك تماماً وسيطروا على السراى والسلطان. وانقطعت سيطرة الزنجى على السراى. ومع ذلك لم يتوان الشعراء من إظهار تَبْجِيلهم لآغا البنات الذى كان يؤدى مهمته ويظهر صداقته للترك. فها هو (نديم) لم يستطع أن يمنع نفسه من تبجيل آغا البنات الحاج بشير آغا وذكر فضائله، حيث يقول:

"هو المُحَنَّك، فصِدْقَه وإخْلاصه

قد أحياهما بقربه فى كل مكان الخاقان فخر الملك

فأنعمت عليه در السعادة بمَنْصبه العالى الشأن

كم يَشرف به ذلك المَنْصب العالى

هو الملك صاحب الخصال السامية المنزلة، وهو الآغا عالى الشأن
والمتصف بكمال حُسن الأخلاق والطباع الطاهرة
وهو الرشيد والعالم والحكيم صاحب المقدرة
مُربى الفضائل فائق التقدير العاقل البصير"

كان الديوشيرمه أيضًا يُسيطرون على تركيا بأسرها وعلى الأناضول، كما كان آغوات البنات الزنوج يحكمون السراى اعتبارًا من الفَتْرة التى أسندت فيها إدارة الدولة الى الدَّيْوشِيرْمه. وكانت هذه السيطرة مؤلمة بالنسبة للأناضول. فقد كانت الأناضول بالنسبة للدَّيْوشِيرْمه - الذين انعدم إحساسهم بثرى الوطن من قلوبهم، فلم يشعروا بأى ألم مطلقًا - بمثابة مَزارِع خِصْبة فيَّاضة لا تنفذ، واعتبروا أهلها مجرد أسْرى محكوم عليهم بالظلم دائمًا، ومفروض على أولادهم الجنود البواسل أن يضحوا بأرواحهم. وكانت الأناضول تَعْجز حتى عن تَوْفِير نَفَقات أهلها. وقد جعل الظلم الواقع من جنود (الباشيبوزوق) وجنود (الصَّارِيجه)[٨١]، أهالى الأناضول يعيشون فى عَوْز وفَقْر. فهذا الشعب المَسْكين هو الذى يُضَحى بروحه فى سبيل جَهْل السراى وآغواتها، ولكنهم فى المقابل لم يَلْمَسوا أى تحضر ولم يروا أية رَفَاهيَّة ولا عدالة فى وطنهم. ونَتَج عن هذا أن ثارَت الأناضول ضد بنى عثمان منذ قرون.

بدأت تركيا ترتكن نسبيًا إلى الراحة والهدوء اعتباراً من التَّاريخ الذى أمْسك فيه الأتراك بزمام إدارة الدولة. ولم تنل صدارة "نَوْشهرلى "من مظاهر الثَّقافة والمَعْرفة التى حرمت منهما استانبول منذ عصور فحسب، بل وأظهر الوزير العظيم على الساحة دستوراً أبديًا لا يموت لحكم تركيا، وهو:

يحكمُ تركيا الأتراك

هوامش

بقلم المترجمة

(١) السراى: لفظة تركية، تعنى القصر.

(٢) مراد الثالث: هو السلطان الثانى عشر مراد خان الثالث ابن السلطان سليم الغازى، ولد عام ٩٥٣ هـ وجلس على سرير الملك عام ٩٨٢هـ/ ١٥٧٤م، امتد حكمه حتى عام ١٠٠٣هـ، استهل حكمه بمنع شرب الخمر فى البلاد بعد أن سمح بشربها سلفه، لأنه رأى أن شربها كان وبالاً على الجند، غير أن الجند عصوا أمره وطالبوا بإباحة شربها، ولكن بمقدار لا يذهب به العقل، فاستجاب لهم وأباح شربها تحت هذا الشرط، قتل خمسة من إخوته ليأمن الظفر بالعرش. وكان على وفاق مع الفرنسيين والبنادقة فمنحهم إمتيازات خاصة فى الدولة، كما أبرم معاهدة تجارية مع إنجلترا، وقد أوعز إليه الصدر الأعظم (محمد صقللى باشا) أن يحارب إيران، وكان النصر فيها حليفًا للعثمانيين، ويمتاز عهده بتعيين وعزل الصدور العظام، ولما أبرم الصلح بين العثمانيين والإيرانيين، أعلن الإنكشارية سخطهم لأنهم كانوا يودون دوام الحرب لينعموا بالسلب والنهب، وقتلوا الدفتردار، وبكلر بك الروم إيلى بحجة أنهما نقصا رواتبهم، وثاروا وتمردوا فى استانبول والقاهرة وتبريز، ويذكر أن هذا السلطان لم يكن يخرج محاربًا على رأس جيوشه. توفى عام ١٥٩٦ م، كان ضعيف العزيمة، يرضخ لرأى نسائه وجواريه، وقد تفاقم الظلم فى عهده، وفسدت الذمم وشاعت الرشوة وضاقت الرعية ذرعًا بتلك الحال، أما هو فقد قضى عمره بين جواريه متهافتًا على المتعة.

(٣) أحمد باشا: هو ابن ولى الدين إلياس أفندى الذى كان من قضاة عسكر السلطان مراد الثانى، (١٤٣٦- ١٤٩٧م) تولى مناصب رفيعة مثل: قاضى العسكر والوزارة وإمارة الصنجق والقضاء، وانتسب إلى طبقة العلماء، ويعد أيضًا شاعرًا مشهورًا من شعراء الأدب الديوانى التركى القديم.

(٤) عائشة سلطان: وهى ابنة السلطانة مهرماه وابنة رستم باشا.

(٥) رستم باشا: هو الداماد رستم باشا (١٥٠٠-١٥٦١) كان من رجال الدولة العثمانية، ولد رستم باشا فى عام ١٥٠٠ ببلاد الأرناؤط، وبعد أن استقدم إلى الأراضى العثمانية انضم إلى الديوشيرمه، وحينما ولى ديار بكر عام ١٥٣٩ م، تزوج من السلطانة مهرماه كريمة السلطان سليمان القانونى فى حفلة إختنان الأمير جهانكير والأمير بايزيد، ومن ثم لُقب باسم "الداماد"، كان وزيراً على عهد السلطان القانونى، ثم تبوأ منصب الصدر الأعظم، كما عين واليًا على ديار بكر، وكان سديد الرأى له حنكة فى تدبير أمور الدولة، فاستقام له أن يزيد دخلها، وبقى فى منصب الصدارة العظمى أعوامًا تسعة (بين عامى ١٥٤٤-١٥٥٣ م)، إلا أن السلطان غضب عليه فى شىء، فعُزل وأقام عامين فى جوسقه بـ(اسكدار)، ثم لحق ثانية بمنصب الصدارة العظمى فى عام ٩٢٢هـ وظل فيها خمس عشرة سنة، وكانت وفاته عام ٩٩٨ هـ/١٥٥٥م.

(٦) الصدر الأعظم: بكسر الراء، هو رئيس الحكومة فى الدولة العثمانية، وهومن كانت له الجدارة بإدارة شئون الدولة والوكالة عن السلطان أثناء تولية منصب وزير. وعندما كان فى عهد السلطان مراد الأول وتولى (لاله شاهين باشا) ومن بعده (تيمور طاش باشا) الوزارة، أطلق عليها لقب وزير أعظم تميزًا لهما عن غيرهما من الوزراء، ثم منح لمن يتبوأ هذا المنصب لقب صدر أعظم، وصدر عالى وصاحب دولت، ألخ، إلا أن لقب صدر أعظم غلب على هذه الألقاب ودام حتى انتهاء الدولة العثمانية. والصدر الأعظم هو من يتلو السلطان فى منزلته وجيثيته ويدون ما يصدر السلطان من قرارات وله رئاسة الديوان السلطانى إلى جانب رئاسته للوزراء، وطبق قانون نامه الذى أصدره السلطان سليمان القانونى للصدر الأعظم تدبير أمور الدولة الإدارية والعسكرية والعلمية والترقية والتولية والعزل. ورغم أن السلطان يستطيع أن يعزل الصدر الأعظم، بل وقتله، إلا أنه لم يكن ليخالفه الرأى، وكان الصدر الأعظم حين يخرج على رأس الجيش، يسمى (سردارى أكرم)، ويطلق على ديوانه اسم (باشا قابى سى) بمعنى باب الباشا.

وفى عام ١٨٣٨م على عهد السلطان محمود الثانى الغى لقب الصدر الأعظم للمرة الأولى واستبدل بمنصب (باشا وكيلى) إلا أنه بعد وفاة هذا عام ١٩٣٩ م أعيد بعد إلغائه.

(٧) سنان باشا: وهو نمساوى الأصل، وقع فى أسر العثمانيين وجىء به إلى استانبول فدخل فى دين الله، وانضم إلى جنود الجيش العثمانى الذين يعرفون بـ(الدوشيرمه) وكان ذلك عند إسلامه فى الثالثة والعشرين، وحصل العلم فى مدرسة تسمى (مدرسة عجمى اوغلانلر)، واختار النجارة حرفة له، كما عمل فى بناء المساجد والخانات.

وكان له ولع بفن العمارة، فاسترعى انتباهه ما شاهد من عمائر فى استانبول والأناضول مما قوى فى نفسه الولوع بفن العمارة، ولقد كان سنان جنديًا فى جيش العثمانيين الذى حارب الإيرانيين فى جالديران، فراعه ما شاهده فى مدينة تبريز من أبنية لها طابع معمارى خاص، وكان كذلك فى جيش العثمانيين الذى دخل حلب ودمشق حيث شاهد ما شاهد من آثار الفن المعمارى العربى. أما فى القاهرة فتأمل طرز الأبنية المملوكية. ولم تفته مشاهدة الأهرام، وفى عهد السلطان القانونى تخرج سنان فى مدرسة عجمى اوغلانلر إنكشاريًا فنيًا. ولما شارك الجيش العثمانى فى حربه بجزيرة رودس شاهد روائع الفن اليونانى.

ولما حارب فى بودابست، وقعت تحت عينه المتأملة الطرز المعمارية المجرية، وفيها شاهد الكنائس التى حولها العثمانيون إلى مساجد، ومع تعاقب مشاهداته خلال حروب العثمانيين فى العراق تمكن من أن يشرف على بناء السفن التى كان الجيش العثمانى فى حاجة إليها لاجتياز بحيرة (وان)، ومن ثم تم تعيينه فى منصب كبير معماريى السلطان، وبذلك استقام له أن يكون القيم للقصور والمدارس والحمامات وغير ذلك من شتى الأبنية، وكان من عمله كذلك الإشراف على إصلاح وتعمير وترميم الأبنية وشق الطرق وتمهيدها ومد القنوات فى استانبول، وإلى هذا كله كان له أن يراقب كل أعمال البناء فى الدولة. وقد أمره السلطان سليمان القانونى بتيسير مد مدينة استانبول بماء الشرب، وذلك بحفر عيون الماء بدلاً من حمله إليها، فأقام عينًا فى كل حى طبقًا لأصول علم الهندسة، وقد أحصيت إنجازاته فبلغت أربعمائة وواحدا وأربعين، منها جامع السليمانية باستانبول وجامع صقوللو محمد باشا، وجامع رستم باشا، وجامع شهزاده، وجامع محمد باشا البوسنوى فى صوفيا ببلغاريا، وجامع مصطفى باشا المقتول ببودابست، وجامع تاتار خان فى القرم، أما فى البلاد العربية فأقام جامع الخسروية فى حلب، ورمم قباب الحرم المكى وأقام مبرة ومدرسة، وفى المدينة المنورة أقام مبرة باسم (خاصكى سلطان. توفى عام ١٥٨٨ م وعمر سنان مائة سنة بعد أن عاصر خمسة من سلاطين آل عثمان.

(٨) صوقوللى: محمد باشا الصوقوللو: أسدى أجل الخدمات للدولة العثمانية وقتًا جد طويل، فكان الصدر الأعظم فى عهد السلطان سليمان القانونى وسليم الثانى ومراد الثالث، ودامت صدارته العظمى خمسة عشر عامًا، وعمل فى أول أمره فى القصر السلطانى، وأصبح قبودان باشا عام ٩٥٣هـ. ومما يذكر عنه أنه حينما وافى الأجل السلطان

سليمان القانونى أثناء فتح سكتوار كتم خبر موت السلطان وأخفى نعشه. وبذلك حافظ على نظام الجيش، وقد قدر له هذا السلطان سليم الثانى، وأطلق يده فى تنظيم شئون الدولة وهو على ثقة من سداد رأيه وواسع خبرته وحسن تدبيره، كما أن السلطان مراد الثالث وكل إليه إدارة شئون الدولة وهو على يقين من جدارته. وقد خر صريعًا تحت خنجر شحاذ مخبول عام ٩٨٧ هـ.

(٩) النشانجى: اسم وظيفة يتولى صاحبها التوقيع بطغرا السلطان على ما يصدر من أوراق رسمية، وهى أحد الوظائف العالية فى الدولة العثمانية. معجم الدولة العثمانية.

(١٠) سنجق: تعنى كلمة "سنجق" التركية الراية أو اللواء، وكان من قماش حريرى ذى ألوان مختلفة يرفع على رمح عند الأتراك فى وسط آسيا رمز لجدارة وبسالة أحد الأبطال، ولذلك كان تشريفًا له ومفخرة، وللترك أعلام من ألوان سود وحمر وبيض، وكان للعثمانيين فى أول أمرهم علم أبيض، وفى أوائل القرن الخامس اتخذوا لهم علمًا أحمر، وللأسطول التركى أعلام من ألوان مختلفة تحمل إشارات خاصة. وفى عهد السلطان سليمان القانونى كانت ألوان الأعلام هى الأخضر والأحمر والأصفر، أما فى عهد السلطان سليم الثالث فكان العلم أحمر اللون وظهرت فيه هلال وثلاث نجوم.

وفى عهد السلطان محمود الثانى غير الإنكشارية اسم العلم من بايراق إلى سنجق وهو تشكيل إدارى فى الدولة العثمانية، وهى كلمة تطلق على المنطقة التى يحكمها السنجق بك الذى يعلق على رايته عادة طوخ واحد (أى ذنب حصان)، كان السنجق فى بداية الأمارة العثمانية هو الوحدة الإدارية الأساسية، ويُعرف حاكمها بالسنجق بك أى أمير اللواء، ثم باتساع الدولة، جمعت عدة صناجق لتشكل ولاية أو إيالة يرأسها بك البكوات، أى بك السناجق (وهو ما يشار إليه أيضًا بالكلمة الفارسية (ميرميران) وهى المحرفة من أمير أميران.

(١١) أق حصار: قره حصار أى القلعة السوداء، وفى تركيا عدة أماكن لها هذا الاسم، والمقصود هنا قره حصار القريبة من قونيه.

(١٢) السباهية: وهى كلمة فارسية الأصل "سباه" أى الجيش، أو قطعة عسكرية كبيرة، ويعد الجند السباهية من أقدم أنواع الجنود فى الدولة العثمانية، وكان يضم خليطًا من الأجناس من أتراك وعرب وأكراد، ويرأسهم الآى بك، ويعد السباهية دعامة الجيش العثمانى، وعاملاً رئيسيًا فى استمرار السيادة العثمانية، ومن ثم منحوا إقطاعات لقاء خدمتهم حيث يعيشون من أراضى الدولة التى كانت تقطع لهم، يزرع هذه الأرض

أصحابها الأصليون فى مقابل دفع جعل معين للسباهى صاحب الإقطاع، وذلك بشرط أن يسكن هذا السباهى فى أرضه وقت السلم، ويستعد للحرب عند الاقتضاء على نفقته، وأن يقدم جنديًا آخر معه، وهذه الإقطاعات لا يرثها إلا الذكور من الأعقاب، وإذا انقرضت الذرية ترجع إلى الدولة، وهى تقطعها إلى جندى آخر بنفس الشروط وعلى أثر ذلك صار هؤلاء الجنود من أصحاب التيمارات نتيجة استمرار منحهم هذه الإقطاعات، ومن ثم تمسك السباهية بالأرض أكثر من اهتمامه بالحرب، ولجأ إلى دفع مال البدل عوضًا عن الخدمة العسكرية، وفى النهاية تعرض هذا الجند الإقطاعى إلى الانحطاط.

(١٣) أستانة در السعادة: آستانه: أى عتبة أو باب، ودر السعادة: اسم أطلقه العثمانيون على استانبول.

(١٤) البكلربكى: بمعنى بك البكوات، أو الحاكم العام، ووجد من يتبوأ هذا المنصب الرفيع فى أوائل عهد الدولة العثمانية، وكان يضطلع بمسئولية الجيش، ونفوذه جد عظيم، وأول من كان له هذا المنصب واللقب فى تاريخ الدولة العثمانية سليمان باشا ابن اورخان وخلفه فى هذا المنصب لاله شاهين باشا، ولما اتسعت الدولة فى فتوحاتها فى الروم ايلى أى فى البلاد الأوروبية، أصبح للدولة شخصان لهما هذا المنصب، فكان فيروز بك بكلربك الروم ايلى، وتيمور طاش باشا بك هو بكلربك الأناضول، وقد أخذ العثمانيون هذا المنصب عن السلاجقة، وتطور هذا اللقب إلى (ملك الأمرا)، وتغير كذلك إلى (أمير الأمرا) وقد ازداد عدد هؤلاء مع تعاقب الأعوام، إلا أن نفوذهم ضعف عن ذى قبل.

(١٥) آقجه: وحدة نقدية فضية كانت متداولة فى العهد العثمانى منذ أول نشأتها، ويقال أن هذه الكلمة التركية مأخوذة من الكلمة اليونانية (Aspro) وتسمى أيضًا الأسبر، ولكن هناك من يرفض اشتقاق هذه الكلمة من الكلمة اليونانية، ويميل إلى اشتقاقها من كلمة (آق) بمعنى أبيض ؛ لأنها كانت بيضاء، وهى تقابل الدينار الذهبى الأصفر (آلتون صارى) التى وصفت بالدنانير الحمر، وهو ما يدل على أن اللون هو الأصل فى التسمية على الأغلب. وأول عملة من هذا النوع سكها السلطان (أورخان) فى مدينة بروسه عام ١٣٢٧م وظلت مستعملة حتى النصف الثانى من القرن السادس عشر، ثم قلت قيمتها جراء أزمة مالية تعرضت لها الدولة العثمانية التى أصدرت وحدة نقد فضية جديدة

عام ١٦٢٠م، وهى الباره، ولكنها لم تفد فى القضاء على التضخم النقدى وغلاء الأسعار، ولم تجد محاولة الدولة تخفيض سعر الآقجه عام ١٥٨٤ فى القضاء على الأزمة النقدية، فأصدرت فى الربع الأخير من القرن السابع عشر عملة جديدة هى القرش.

(١٦) فرمان: فى الفارسية بمعنى الأمر، وما يصدر عن السلطان من أوامر رسمية، وهو مكتوب، ويسمى كذلك برات، مثال، منشور، بيتى، حكم، توقيع، نيشان، وفى رأس صحيفة الفرمان تكتب كلمة (هو) إختصار لكلمة (الله) وتحتها طغرا السلطان. ثم يذكر إن كان هذا المكتوب فرمان أو برات أو غير ذلك، ثم يذكر اسم ولقب المرسل إليه، وما يأمر به السلطان، ويرغب فيه، فى إفادة غاية فى الوضوح ثم الدعاء بالتوفيق فى تنفيذ الأمر، وفى النهاية يذكر تاريخ الفرمان والموضوع الذى أصدر منه وتدون هذه الفرمانات فى إدارة خاصة بالديوان السلطانى، كما يقيد مضمونه وفحواه فى سجل خاص، ثم يوقع النيشانجى بالطغرا، ويرسل الفرمان أو يسلم لصاحبه يداً بيد. وفور وصول الفرمان إلى المرسل إليه ينظر فيه القاضى، وبعد التحقيق من أنه ليس مزوراً يدون فى المحكمة الشرعية، ثم ينفذ ما جاء فيه من حكم، وكانت الفرمانات تكتب بخط جميل وبعضها يذّهب، وفى بعض الأحايين كان السلطان يكتب بيده مختصراً الأمر بجانب الطغرا. وبعد التنظيمات كانت الفرمانات منحصرة فى مسائل خاصة معينة. وقد حل محلها ما يعرف بـ (إرادة) ولها حيثية الخط الهمايونى.

(١٧) الطغراء الشريفة: وهو توقيع السلطان العثمانى، وهى من التركية (توغرول) وهى بمعنى الصقر الذى يبسط جناحيه، وهذا التوقيع يشبه فى رسمه هذا الصقر، وبذلك دخل فى العربية والفارسية، وكان يوقع به على أنه توقيع للسلطان على الفرمانات والبراءات والقوانين والمسكوكات والقرارات الرسمية كلها. وهى فى التركية (طغرا) وفى الفارسية (نشان) وفى العربية (توقيع) وأول من وقع بالطغرا من العثمانيين هو اورخان بك وله وثيقتان تحملان هذه الطغرا يرجع تاريخهما إلى عام ١٣١٤م وعام ١٣٤٨م. وإلى عهد السلطان جلبى محمد كانت الطغرا تحمل اسم والد السلطان وابنه. مثل عثمان ومراد ابن اورخان.. ألخ، وأضيفت إليها عبارة (مظفر) دائمًا، وأضيفت إليها فى عهد سليمان الثانى صورة زهرة أو ورقة. وأصبح هذا عامًا إلى عهد السلطان أحمد الثالث وأضيفت إليها كلمة (غازى) فى عهد السلطان عبد الحميد الثانى. وهذا نموذج للطغرا:

(١٨) السلطانة مهرماه: ولدت (مهرماه سلطانة) عام ١٥٢٢ فى قصر (طوبقابى). وبعد عامين من ولادتها ولدت (خرم سلطانة) طفلاً آخر وهو السلطان سليم الثانى الذى تولى الحكم بعد موت السلطان سليمان القانونى، وكان الأخير يحب (مهرماه) كثيراً، ويلبى رغباتها فى الحال، وقد تلقت مهرماه تعليمًا جيداً، وتربية حسنة، ويُقال أنها رافقت أبيها فى ميادين المعارك التى خاضها.. تزوجت رستم باشا والى ديار بكر عام، والذى عين بعد زواجه رئيس الوزراء، وصارت (مهرماه سلطانة) صاحبة نفوذ قوى وفرضت سيطرتها طيلة عمرها.

توفيت عام ١٥٧٨م خلال حكم السلطان مراد الثالث، ودُفنت بجانب أبيها فى ضريح بجامع السليمانية.

(١٩) السلطان سليمان القانونى: تملك عام ١٥٢٠م، بلغت الدولة العثمانية على عهده ذروة مجدها فى كل منحى من المناحى، قدم استانبول فور علمه بموت أبيه واستقبله الإنكشارية على باب القصر طالبين العطايا والهدايا جريًا على عادتهم، ومن بواكير أعماله أنه أرسل سفيراً إلى ملك المجر، يطلب إليه أداء الجزية، إلا أن ملك المجر قتله فغضب سليمان غضباً شديداً، وجهز جيشاً جراراً قاده بنفسه إلى بلاد المجر، وفتح فى طريقه مدينة بلفوار التى قال الكاتب الشاعر لامعى إن فتحها أعيا الملوك من قبل، ولكن شاء اللّه أن يكون فتح قلعتها الحصينة على يد عساكر الإسلام. وأبرمت معاهدة تجارية بين البنادقة وبين الدولة العثمانية. ثم عقد العزم على فتح جزيرة رودس التى لم يقدر على فتحها محمد الفاتح واستولى عليها، إلا أن الإنكشاريين ارتكبوا القبائح فى الفتح، فعاقبهم السلطان، وقام بمحاربة الفرس وزحفت جيوشه حتى غلبت على تبريز عاصمة الدولة الصفوية، ثم تجاوزها إلى بغداد لفتحها، فتم له فتحها، وتحبب إلى أهلها وشق فيها الترع، ثم فتح تونس والجزائر ودامت الحرب طويلاً بين الدولة العثمانية والنمسا إلى أن تم الصلح بينهما على أن يدفع ملك النمسا الجزية كما تم فتح عدن. وقام بقتل ابنه الأمير مصطفى بناء على دس وكيد زوجته روكسلانه، ثم قتل ابنه الثانى بايزيد مع أولاده الخمس بعد أن أوغر سليم فى صدر أبيه على قتلهم حتى لا يزاحموه على العرش. وهو صاحب (قانون نامه) وهو مجموعة القوانين التى سنها وشاور فيها شيخ الإسلام أبا السعود أفندى. كان السلطان سليمان شاعراً صاحب ديوان، بسط رعايته على أهل العلم والأدب، توفى عام ١٥٦٦م.

(٢٠) أغا البنات: كلمة آغا بمعنى سيد، رئيس، خال، رئيس الأسرة، الأخ الكبير، رئيس الخدم فى قصر أحد العظماء، لقب من ألقاب التعظيم، مقر رئيس الإنكشارية، وتطلق على الرجل من العوام مقابل المتعلم المتأدب، لقب آغا البنات بلقب بـ"آغا باب السعادة"، وهم المُكَلَّفون بِخِدْمة الحرم وهم كبار مُوَظفِي الأغوات البِيض. وهم المنوط بهم انْضِباط الحَرَم والإدارة. وكان الأغَوات البيض من الأتْراك.

ثم أَلْغَى "مراد الثالث" هذه الأصول، وكلَّف الزنوج والأغوات السود بمهمة أغوية البنات، وتعنى كلمة (آغا البنات) رئيس الخصيان السود فى قصر السلطان، وهو يعادل الصدر الأعظم فى الرتبة، ولقبه الرسمى هو (دار السعادة الشريفة آغاسى).

(٢١) آغا السلاحدار: تتكون كلمة (سلاحدار) من كلمتين: الأولى (سلاح) وهى كلمة عربية، والثانية (دار) وهى لاحقة فارسية تعنى المحافظ والقيم والممسك والصاحب والمالك، ويعنى هذا المصطلح لغويًا (محافظ السلاح)، وقد أُطلقت هذه الكلمة على الشخص الذى تولى منصب السلاحدارية فى عهد السلطان العثمانى (بايزيد الصاعقة)، ومن أهم الأعمال التى يكلف بها السلاحدار:

١ - أن يحافظ على سيف السلطان وأسلحته داخل القصر.

٢- كان يخرج فى المواكب الرسمية راكبًا حصانًا حاملاً سيف السلطان على كتفه الأيمن.

٣ - كان يصاحب السلطان فى رحلات الصيد، وكان عليه أن يعد المائدة السلطانية أثناء الرحلة.

(٢٢) السليمى: نسبةً إلى السلطان سليم، وكلمة (سليمى) اسم قلنسوة منسوبة إلى السلطان سليم الأول، طولها يربو على نصف متر، وهو الذى ابتكرها، وهى اسطوانية الشكل ويلف حولها قماش رقيق ويلبسها الصدر الأعظم فى المناسبات الرسمية ورئيس الإنكشارية ورئيس الكتاب والدفتردار، أما السلاطين من قبل فكانوا يلبسون قلنسوة تسمى خراسانى وهى من صوف مدببة الرأس ويلفون حولها قماش عمامة.

(٢٣) تبين هذه صورة الزى الذى كان يرتديه أغا البنات.

(٢٤) المقاطعةجية: من يتولى الإقطاعات التى تقدمها الدولة لفئات الجيش العثمانى

(٢٥) روزنامه جى: تعنى كلمة (روزنامه) وهى كلمة فارسية، بمعنى ما تقيد فيه الأعمال والوقائع اليومية، كما يعنى سجل الإيراد والمصروفات، أما مصطلح روزنامه جى فهو من يتولى الدفتر الذى تقيد فيه الأعمال والمصروفات اليومية.

(٢٦) الأسطبل الخاص: وباللغة التركية (خاص آخور أو اصطبل عامره) وهو الاصطبل الخاص بالسلطان بجياد السلاطين، والإدارة الخاصة بإقامة الموظفين الذين يعملون فى هذا الأسطبل.

(٢٧) اورته قاپى: كلمة (اورته) تعنى الوسط، وكلمة (قاپى) أى الباب.

(٢٨) الفاتح: هو السلطان السابع محمد خان الفاتح ابن السلطان مراد الثانى، ولد فى مدينة ادرنه عام ٨٣٣هـ، وصعد على تخت الملك ٨٥٥هـ١٤٥١/م، ووضع نصب عينيه تنفيذ وصية والده بفتح القسطنطينية، فشرع فى إعداد ما يلزم من مهمات الحرب، وفى عام ١٤٥٣م زحف إليها بجيش كثيف يبلغ مئة وخمسين ألفًا، واستطاع الاستيلاء عليها بعد حصارها براًوبحراً وأحاط المدينة بمدافع صنعها مجرى اسمه (اوربان)، وحول محمد الفاتح كنيسة أيا صفيا إلى مسجد، وأصبحت القسطنطينية عاصمة للدولة العثمانية، وفتد كذلك بلاد المورة كما غزا جزر فى البحر الأبيض المتوسط وحارب بلاد البوسنة لرفض أميرها أداء الجزية فدانت له، كما حارب البنادقة، ثم ولى وجهه شطر آسيا فاستولى على أقليم قرمان، وبهذا استحق لقب أبى الفتح وأبى الخيرات، وهو الذى سمى الحكومة العثمانية الباب العالى، وجعل لها أربعة أركان هى: الوزير وقاضى العسكر والدفتردار والنيشانجى. وأقام المساجد والمدارس، وكان محبُا للعلم متضلعًا باللغة العربية حتى قيل إن جمهرة كتبه كانت عربية، وكان يحذق لغات أخرى كالعبرية واليونانية وهو شاعر صاحب ديوان، توفى عام ١٤٨١م.

(٢٩) الصرة: وهى كلمة عربية، تعنى كل ما يُجمع فيه الشىء ويُشد، وتعنى اصطلاحًا كل ما يهدى من أموال وغيرها من السلطنة السنية إلى الحرمين الشريفين.

(٣٠) أمير الاسطبل الكبير: ويسمى بويوك آخور، وتطلق على من يشرف على الأسطبل الخاص بالسلاطين.

(٣١) الديوان: أى الديوان السلطانى، وهو ما يعادل مجلس الوزراء اليوم، وفيه ينظر فى الشئون المالية والإدارة السياسية والشرعية كما تعرض فيه شكاوى للبت فيها. وكان الديوان الهمايونى مفتوحًا لاستقبال جميع أفراد الشعب على تفاوت أديانهم وأجناسهم لكل متظلم فى أرجاء المملكة الحق فى تقديم مظلمته إلى هذا الديوان، كما أن كل الإداريين والعسكريين يتقدمون بشكواهم إلى هـذا الديوان للنظر فيها بكل عناية، وهذا الديوان يتشكل من الصدر الأعظم ووزراء القبة وقبطان باشا وقاضى عسكر الروم إيلى والأناضول والنيشانجى ورئيس الإنكشارية ودريا قبطانى أى قبطان البحر ورئيس الكتاب وجاويش باشى.

(٣٢) السلطانة نوربانو: وهى والدة السلطان مراد الثالث، وتعد من أكثر سيدات القصر نفوذًا فى عصرها.

(٣٣) السراى الجديدة أو (يكى سراى) اسم لـ (طوب قابى سراى) وكان قد اطلق على أول قصر تم تشييده اسم (اسكى سراى) أى القصر القديم، ثم على القصر الذى أقيم بعده (يكى سراى) ويسمى كذلك (سراى جديد معمورة) وأقيم فى بقعة تطل على بحر مرمرة والبوسفور. وقد شرع فى الإقامة فيه عام ١٤٦٥ م، وهو يتألف من عدة أبنية فى حديقة مترامية الأطراف، وماط بسور فى كل أطرافه، ويتألف من ثلاثة أجنحة هى البيرون والاندرون والحريم.

(٣٤) بياله باشا: نشأ فى الترسانه، ورقى فيها إلى درجة الكتخدا، وفى شهر شوال من عام ١٠٥٢ صار قبودان البحر برتبة أمير الأمراء (أى وزير البحرية)، ثم ولى الوزارة سنة ١٠٥٣، ومن آثاره تشييد عين قاسم باشا.

(٣٥) كتخدا قادين: كلمة (كتخدا) من (كدخدا) فى الفارسية وتطلق فى التركية على الوكيل والنائب، وتطورت فى التركية إلى كلمة (كخيه قادين) وهذا الاسم عند العثمانيين يطلق على عدة مهام ووظائف، فكانكبار رجال الدولة العثمانية ممن لهم المناصب العالية فى القصر والجيش لهم من ينوب عنهم.

(٣٦) جانفدا خاتون: هى والدة السلطان مراد خان الثالث، وكانت من أفضل الجاريات لدى (بانو سلطان) التى أوصتها عند وفاتها بأن تهتم بأمور الحرم الهمايونى، ومن ثم لاقت شهرة وصارت فى مقام سيدة الكتخدا، انزوت فى السراى القديمة فى زمن السلطان محمد خان الثالث، كانت مكلفة بتزويج من بالسراى، اتصفت بالحكمة والتدبير، ومن آثارها مسجدان أحدهما فى آق بابا والآخر أمام الجمرك، ولها أيضًا حمام وسبيل فى آق بابا.

(٣٧) راضيه قالفه - وهى من سَيِّدات السراى - فى عَهد (مراد الثالث).

(٣٨) صفيه بافو الونديكية: إيطالية من البندقية، واسمها (بافو)، كان أبوها واليًا على (قورفو) من قبل البنادقة، واتفق أن كانت فى سفينة تمخر بحر (الإدرياتيك) فاعترض سفينتها قراصنة الترك، فأسروها وبيعت جارية، وكانت بارعة الحسن فقدموها إلى الأمير مراد بن سليم الثانى. ودخلت حريم السلطان مراد الثالث فى عام ١٥٦٦م، وكان يحبها حبًا شديدًا، حتى أنه آثرها على كل جواريه وانصرف عنهن إليها وحدها،

وقد بدأ التحاسد والتباغض بينها وبين زوجة السلطان (نوربانو). وقدمت إلى السلطان مراد الثالث حسان الجوارى كيما يكف قلبه عنها، ثم أصبحت (صفية سلطان) مسموعة الكلمة فى الدولة صاحبة الرأى الحاسم فى كل أمر. وتدخلت في شئون الدولة الداخلية وزاد نفوذها إلى حد بعيد، وكانت تتقاضى الرشوة ممن تسند إليهم أعلى المناصب، وبعد موت ابنها (محمد) أرسلت عام ١٦٠٣ م إلى القصر القديم وقضت فيه بقية عمرها شبه منفية، وماتت عام ١٦٠٥م.

ويُطلق لفظ (ونديك = فانديك = فاند = وند (wend)) وهم السلاف المستوطنون فى شرق ألمانيا، ويُطلق عليهم أحيانًا اسم الصرب (sorb) والصرب هم أحد شعوب الوند (wend) التى استوطنت ما بين نهرى الألب (Elbe) والسال (saale).

(٣٩) الخاصكى قادين: بسكون الصاد، ضابط نظام من ستين ضابطا كانت مهمتهم حراسة السلطان ورؤساؤهم يشتغلون وظائف عامة، كما يطلق هذا الاسم على بعض الجوارى فى حريم السلطان.

(٤٠) الأندرون: اسم يطلق على ما وراء باب السعادة فى قصر (طوب قابى) وبه رواق يقوم على عشرة أعمدة من رخام، وكان عرش السلطان يوضع فى هذا المكان أثناء انعقاده (أياق ديوانى) أى الديوان الطارئ، وأثناء الاحتفالات. واندرون كلمة فارسية بمعنى داخل الشيء.

(٤١) الركابدار: وهى بالفارسية بمعنى من يتول أمر ركاب السلطان، ومن يعين العظماء على امتطاء جيادهم.

(٤٢) سعد الدين أفندى الإصفهانى: وهو معروف بسعد الدين خواجه، كان مختصًا بالسلطان سليم الأول، وصاحب مشورته، وقد تبوأ منصبًا مرموقًا بين رجال الدولة العثمانية، وصحب السلطان فى إحدى حروبه، ودبر خطة القتال على نحو حقق النصر المبين للعثمانيين، مما كان سببا فى استفاضة الشهرة له، وفى سنة ١٠٠٦ هـ أصبح شيخًا للإسلام، وكان تقيًا ورعًا واسع العلم سديد الرأى له القدرة على حل المعضلات، كما كان مؤرخًا ذائع الصيت بتاريخه المعروف بتاج التواريخ، أدركته المنية عام ١٠٠٧هـ.

(٤٣) الجاوشية: أصل كلمة (جاويش) مأخوذ من الكلمة التركية (جاووش) وهو مشتق فى الأصل من الكلمة التركية (جاو) بمعنى (الصياح والنداء والصوت والصيت)،

كانت وظيفة الجاووش تنحصر فى أنه كان يسعى بين يدى الحاكم فى المواكب الرسمية ليفسح له الطريق ويقول (دورباش) أى (أفسحوا، تنحوا)، وله وظائف أخرى عديدة، منها أنه كان لكل هيئة فى الدولة العثمانية حامية يرأسها جاووش، فهناك جاويشات الديوان الهمايونى وهم يقومون على خدمة الديوان الهمايونى أثناء انعقاده، وهناك جاويشات الجيش الإنكشارى، وكان عملهم إبلاغ أوامر القائد لرؤساء الجند أثناء المعارك، كما كانوا يراقبون الجنود الإنكشارية أثناء التدريب والتعليم.

(٤٤) الشاعر باقى (١٥٢٦هـ - ١٦٠٠م) لُقب بسلطان الشعراء، تميز شعره بالاهتمام بتصوير معالم الحياة فى عصر السلطان سليمان القانونى، حيث استمد موضوعاته من الواقع، ونظم شعره فى لهجة استانبول الشعبية، عبر عن جمال الحسان فى بيئته، إن قيمة شعره تكمن فى تعبيره عن رونق الحياة فى عصر سليمان القانونى، تخطت شهرته الدولة العثمانية.

(٤٥) قاضى عسكرالروم ايلى: لعب المفتون فى عهد الدولة العثمانية دوراً مهماً فى مختلف المجالات، وقد كان القاضى عسكر هو المرجع فى كل أحكام الشرع الحنيف، والمعروف أن العثمانيين قد اعتمدوا المذهب الحنفى مذهباً رسمياً للدولة، وقد كانت الأولوية فى بداية عهد الدولة للقاضى العسكر الذى رافق الجيش المحارب، ثم أصبح المفتى رئيس العلماء فى عهد السلطان سليمان القانونى، ولُقب بشيخ الإسلام، نظراً للدور الذى لعبه فى التوفيق بين القوانين التى أصدرها السلطان سليمان (ومن هنا لقبه القانونى)، وبين الشريعة. وكان يحق لمفتى استانبول إصدار فتوى بعزل السلطان نفسه، كما أنه هو الذى يعين المفتين فى الولايات العثمانية. كان منصب قاضى العسكر منصباً واحداً حتى عام ١٤٨٠هـ (حتى عهد السلطان محمد الفاتح)، و بعد هذا التاريخ، انقسم هذا المنصب قسمين، فعُين أثنان أحدهما قاضيعسكر فى الروم إيلى، والآخر فى الأناضول، وكان قاضى استانبول إذا رقى أصبح قاضى عسكر الأناضول، أما قاضى عسكر الأناضول فيرقى إلى منصب شيخ الإسلام. ويتولى قاضى عسكر الروم إيلى تعيين وعزل جميع القضاة فى الروم إيلى، كما كان عضواً فى الديوان الهمايونى.

وفى عام ١٥١٦ م عُين قاضى عسكر ثالث وأطلق عليه اسم قاضى عسكر العرب والعجم، ويقع مقر هذا المنصب فى (ديار بكر)، ثم انتقل فيما بعد قاضى عسكر العرب والعجم إلى المركز بعد ضم مصر وسوريا، وبعد عام ١٥١٨ انخفض هذا المنصب إلى قسمين. ويحكم (قاضى عسكر) فى مسائل الشريعة، فى الديوان، وكان يعين المدرسين والقضاة.

(٤٦) بوغاز: أى الخليج.

(٤٧) ساحل الطونه: الطونه = الدانوب أكبر أنهار اوروبا بعد الفولجا ينبع من جنوب غربى ألمانيا، ويجرى نحو الجنوب الشرقى بوجه عام عبر جنوبى ألمانيا، وشرق النمسا والمجر وشمال شرقى يوغوسلافيا وجنوب شرقى رومانيا ليصب فى البحر الأسود يصب فيه أكثر من ٣٠٠ رافد. كان مجراه من المجر حتى البحر الأسود تابع للدولة العثمانية.

(٤٨) جنجى خواجه: بكسر وسكون وكسر. مشعوذ اشتغل بالنجامة واستخدام الجن، وهذا ما أذلفه إلى السلطان إبراهيم فعقد آصرته به واستحوذ على اهتمامه ورعايته، فنصبه قاضياً للعسكر بعد قصير زمان، وعظم نفوذه إلى حد أنه كان سبباً فى قتل الصدر الأعظم (قره مصطفى باشا) وقد أخذ الرشوة وجمع مالاً واسعاً من غير حله وأقام له قصراً منيعاً، وتدخل فى شئون الدولة حتى أنه أوصى بإعلان الحرب على جمهورية البندقية إلا أن مشورته لم تحقق أملاً، فسقطت هيبته ومنزلته، وأخذ قصره، إلا أنه كان طموحاً متسلطاً فسرعان ما استرد نفوذه ومنزلته، إلا أنه مع هذا كله سيء العاقبة ففى عهد السلطان مراد الرابع طالب الإنكشارية بمنحة الجلوس، إلا أنه امتنع عن تقديمها لهم، فزج فى غيابت السجن، ثم تعلق بأذيال الفرار وصودرت أمواله، وانتهى به سوء المصير إلى القتل عام ١٠٥٩هـ.

(٤٩) يوك: بضم الأول بمعنى الحمل فى اللغة التركية، وتطلق اصطلاحاً على مائة ألف أقجه.

(٥٠) البلطه چى: حامل الفأس، طائفة من خدم قصر السلطان، ويعرفون أيضاً بـ(تبردار) بمعنى حامل الفأس فى الفارسية. ومما يروى أن السلطان مراد الثانى حينما خرج محارباً استخدم هؤلاء فى رفع ما يعترض طريق الجيش من عوائق كالأشجار وغيرها، ثم ألحقهم بالقصر، كما كانوا يضربون الخيام ويضعون الأحمال على الدواب وينزلونها عنها. وبعد فتح استانبول سكنوا ثكنات خاصة بهم فيها، وكانوا تحت رئاسة (دار السعادة آغاسى) ولكل أميرة من أميرات القصر بلطجى يتبعها، كما كانوا يرافقون عرباتهم فى مسيرها إلى أدرنه، ويقيمون الخيام فى الطريق، ويقومون بالخدمة فى قصر الصدر الأعظم، وفى قصر (طوب قابى). أما من كانوا يعرفون القراءة والكتابة منهم فكانوا كتاباً فى إدارة القصر، ومنهم من تصدر للتدريس فى جامع بايزيد، ومنهم من كانوا يعرفون بـ(زلفلو بلطجيلر) بمعنى ذوى الذوائب،

يخدمون داخل القصر ويلبسون طربوشًا يتدلى من جانبيه على خديهما فيما يشبه النؤابة، ولذلك عرفوا بذوى الذوائب، وكان من واجبهم إخماد الحرائق إذا شبت فى حريم القصر، وحمل جنازة السلطان إذا مات فى الحرم.

(٥١) غلَطه بفتحتين، وهى كلمة يونانية الأصل، اسم إحدى ضواحى استانبول واسمها نسبة إلى مهاجرة (كلت) وإقامتهم فيها. وعندما كان السلطان محمد الفاتح يحاصر استانبول أعلن من يسكنون هذا الحى حيادهم، فوعدهم بتمييزهم ورعايتهم، إلا أنهم نكثوا عهدهم ونقضوا حيادهم، فألغى الفاتح امتيازهم وأحل العثمانيين محلهم، وكان لـ(غلطه) قضاة يختصون بها وإذا رقوا أصبحوا قضاة استانبول، وسكانها ألف من المسيحيين وستون ألفًا من المسلمين.

(٥٢) السلطان محمد الثالث: تملك عام ١٥٩٥م، كان له من الأخوة تسعة عشر غير الأخوات، وسرعان ما أمر بخنقهم جميعًا قبل دفن أبيه، ودفنوا معًا. ولم يكن يميل إلى أن يخرج محاربًا على رأس جيشه، وعهد إلى وزرائه تدبير أمور الدولة إلا أن من سلمهم تلك الأمانة لم يكونوا أمناء عليها، فتاجروا فى مناصب الدولة المدنية والعسكرية على حد سواء، ونقصوا عيار العملة حتى جأر الناس بالشكوى فى كل صوب، كما أن جيش العثمانيين منى بالهزيمة فى أوروبا لعدم وجود من يتولى قيادته بما ينبغى من جدارة، ولكنه تدارك الأمر، واعتزم أن يتولى قادة الجيش بنفسه متأسيًا فى ذلك بأسلافه السلاطين. فزحف بجيشه إلى بلغراد، فثارت فى جنود العثمانيين غيرتهم وحميتهم وشدة رغبتهم فى الجهاد، فغلبوا على قلعة (ارلو) وهى القلعة التى عجز السلطان سليمان القانونى فتحها ووفق فى تمزيق جيوش النمسا والمجر كل ممزق، وفى عهده خرج عليه فى الأناضول من يسمى (قره يازيجى) وهو على رأس جيش من جنود فروا من تلك المعركة التى خاضها السلطان مع النمسا والمجر، ونفيت إلى الأناضول، وشاركه أخوه (دللى حسن) والى بغداد فى التمرد والعصيان، ولكن استطاع (صوقوللى حسن باشا) إلحاق الهزيمة بالأخوين، ومات يازيجى، ولكن أخاه أعاد الكرة وتغلب على كوتاهية، ولكن الدولة عرضت عليه ولاية (البوسنه) وقدمت إليه مالاً فقبل، وأعلن الولاء للدولة، ومضى مع جيشه ليحارب الفرنجة من قبل الدولة، إلا أن جيوشه انهزمت حتى لم يبق منها بقية.

وفى استانبول ثار فرسان الجيش العثمانى على السلطان مطالبين بتعويض مقابل ما فقدوا من ريع إقطاعاتهم فى آسيا، ونهبوا وسلبوا، إلا أن الإنكشارية أخمدوا ثورتهم وألزمتهم حدهم، توفى السلطان محمد الثالث عام ١٦٠٣م.

(٥٣) الوالدة سلطان: كانت أم السلطان تسمى (الوالدة)، وكانت تلقب بـ (تاج المستورات) وكانت لها أرفع منزلة فى الحريم، وعلى من له المثول فى حضرتها أن يغض الطرف ويحنى الرأس ويضع اليدين على الصدر. وتتلو الوالدة في منزلتها سيدة تسمى (خازن دار اوستا) ومهمتهاالرقابة والإدارة والنظر فى النفقات، وعليها أن ترافق السلطان فى زيارته للحريم، وإذا ماتت (الوالدة) خلفتها في رياستها ومكانتها، وللسلطان فى هذا الحريم زوجات شرعيات يقال لهن (قادين) ولم يكن السلطان ياقيد بالعقد الشرعى، بل يكفى أن يقول إن فلانة زوجته لتكون زوجته الشرعية. ويقال أن بايزيد الأول المتوفى عام ١٤٠٣ م أول سلطان تزوج زواجًا شرعيًا، ولكل زوجة من زوجات السلطان حاشية من الجوارى خاصة بها تقوم بحاجتها وتسهر على راحتها. كان الحريم مرتعًا للكيد والدس والتنافس على الاستئثار بميل السلطان إلى نسائه. وفى القرنين السادس عشر والسابع عشر كان تأثير النساء على السلاطين من الشدة إلى حد أن الإيطاليات والصقليات كن يعرضن أنفسهن للبيع بمحض رغبتهن لإثارة الدسائس فى حريم السلطان.

فهذه (يافا الإيطالية التى تمكنت عند السلطان، فثنته عن عزم محاربة البندقية، كما كانت إمرأة يهودية تدخل الحريم لبيع الحلى ونقل الأخبار إلى سفير البندقية، وكان أملها أن يكون عرش آل عثمان لابنتها لتصبح (والدة) فكان لها ضلع فى مقتل تسعة عشر أميرًا، وهذه (روكسلانه) الروسية التى قتل كيدها ودسها وزيرا وأميرا، وكثيرًا ما كان السلاطين يقتلون حريمهم أو نساءهم، وتقال أن أحد السلاطين العثمانيين أمر بإغراق نساء الحريم جميعًا لا لشيء سوى رغبته فى استبدالهن بغيرهن.

(٥٤) آغا الإنكشارية: تعد الإنكشارية من فرق الجيش العثمانى، وكانت تشكل فى بدايتها من الشبان الأسرى، حيث كانوا يأخذونهم صغارًا وينشئونهم على الولاء للسلطان العثمانى، ويدربونهم تدريبًا جيدًا، ثم صار التجنيد لها وراثيًا فى القرن العاشر الهجرى، ثم أصبحوا من أكبر دواعى تأخر الدولة بعد أن كانوا أصحاب الفضل الأول فى اتساعها، قضى على هذه الفرقة السلطان محمود الثانى فى عام ١٢٤٠ هـ، يكتب اسمهم باللغة التركية العثمانية بـ(يكى چرى) وتلفظ (ينى تشرى)، أى العسكر الجديد أو الجيش الجديد، ثم حُرفت الكلمة فصارت "الإنكشارية".

(٥٥) الأناضول: الأناضول، أناضولى [Anatolia] هو الجزء الأسيوى من تركية، ويشكل حاليًا حوالى ٩٧٪من مساحة الدولة التركية، ويستعمل هذا الاسم مرادفًا لآسيا الصغرى.

(٥٦) (اليَمِشْجِي): بفتح وكسر وسكون بمعنى بائع الفاكهة، اسم يطلق على من يتولى إحضار الفاكهة للسلطان والمحافظة عليها ليأكلها.

(٥٧) قول: كلمة تركية بمعنى العبد، وتعنى اصطلاحًا سرية من الجند العثمانى.

(٨٥) ارزروم = ارضروم [Erzurum] هى الآن ولاية فى تركية، فى شمال شرقها.

(٥٩) الدَوْشِيرْمَه بفتح وسكون بمعنى الجمع والاقتطاف وهى كلمة تعنى (جمع الشبان)، وهى تطلق على جمع الجند وإحضارهم لأداء الخدمة العسكرية فى الجيش العثمانى، حيث قام العثمانيون فى الفترة مبين ١٤٣٠و ١٤٣٨م فى عهد مراد الثانى، ما عرف بالدفشرمه، والحقيقة أنه بعد هزيمة السلطان بيلديرم بايزيد فى انقره شرع فى جمع الفتيان من رعاياه المسيحيين الذين تتراوح أعمارهم بين الثامنة والعشرين وتتوفر فيهم اللياقة البدنية والمهارة، وكانوا فى أول الأمر يجلبون من ألبانيا واليونان وبلغاريا والصرب والبوسنة والهرسك والمجر، حيث ترسل، كل خمس سنوات، لجان تطوف روميليه لانتقاء الشبان الأشداء منها، وتدريبهم فى مدارس خاصة، فيصبح بعضهم موظفين إداريين، وأحيانًا صدورًا عظامًا، وتدخل كثرتهم فى الجيش الإنكشارى، وكانت المدن غالبًا مستثناة من الدفشرمة، التى اقتصرت على سكان الريف، حيث يوجد عادةً السكان الأشداء، وغالبيتهم من الصقالبة والألبانيين، وهذا ما يفسر بروز هؤلاء بين الإنكشاريين وكون اللغة السلافية هى السائدة بينهم، وفى أواخر القرن الخامس عشر كانوا يجمعون من رعايا الدولة العثمانية المسيحيين فى الأناضول، وفى القرن السابع عشر كان يجمع هؤلاء الفتيان من جميع أرجاء الدولة العثمانية، وكان رئيس الإنكشارية يعين العدد الذى تمس إليه الحاجة لاختيار هؤلاء الفتيان، وكانوا يسجلون فى دفاتر خاصة بهم.

(٦٠) يهود الدونمه: الدونمه لدى العثمانيين طائفة من اليهود ارتحلوا عن إسبانيا إلى تركيا فارين من محاكم التفتيش وما نزل بهم من أذى وما لاقوا من شدائد إرتحلوا إلى ازمير واستقروا فى سلانيك، أعلن جماعة منهم أنهم دخلوا فى دين الله، وذلك فى عهد السلطان مراد الرابع، إلا أنهم كانوا منافقين أى يظهرون غير ما يضمرون، فما كانوا يقومون بشعائر الدين وظلوا منطوين على أنفسهم معتزلين عن المسلمين، فما أصهروا إلى الترك ولا عقدوا أسبابهم بهم واشتغلوا بالتجارة، وإن كان منهم من تبوأ مناصب فى الدولة العثمانية، وأدى خدمات ليثبتوا أنهم على جدارة، وارتحلوا ثانية إلى استانبول وسكن معظمهم فى حى شيشلى وبشيكطاش وهما حيان من أحياء استانبول

الأوروبية، ومما يدل على عدم اندماجهم فى المجتمع التركى الإسلامى أنهم أسسوا مدرستين لأبنائهم هما: مدرسة (ثانوية فيضية) و (ثانوية الترقى). وعلى مر الأيام قاربوا العثمانيين المسلمين وارتفعت الفوارق بين هؤلاء وهؤلاء، وكانت لهم السيطرة على الحركة التجارية والإقتصادية فى تركيا، لهم جريدة تنشر مبادئهم وأفكارهم وأسمها جريدة (الوطن) كما أصدر شباب الدونمه مجلة اسمها (زهرة الأدب) فى عام ١٨٨٤ م. وكان كبار رجال الإتحاد والترقى على صلة قوية برجال الدونمه فى سلانيك، يعقدون اجتماعاتهم فى المحافل الماسونية هناك، وتمكن اليهود والدونمه والماسونية أن يؤثروا فى الشباب المثقف من العثمانيين، حتى استطاعوا أن يقودوا ثورة تركيا الفتاة.

(٦١) يوم الديوان: أى يوم انعقاد الديوان السلطانى، وهو ما يعادل اليوم مجلس الوزراء، وفيه ينظر فى الشئون المالية والشرعية، كما تعرض فيه شكاوى للبت فيها، وكان الديوان الهمايونى مفتوحًا لاستقبال جميع أفراد الشعب على تفاوت أديانهم وأجناسهم لكل متظلم فى أرجاء المملكة الحق فى تقديم مظلمته إلى هذا الديوان. كما أن كل الإداريين والعسكريين يتقدمون بشكواهم إلى هذا الديوان للنظر فيها بكل عناية، وهذا الديوان يتشكل من الصدر الأعظم ووزراء القبة، وقبطان باشا وقاضى عسكر الروم إيلى والأناضول والنيشانجى ورئيس الإنكشارية ودريا قبطانى أى قبطان البحر ورئيس الكتاب وجاويش باشى.

(٦٢) قائمقام الصدارة: أو صدارت قائمقامى: اسم من كان ينوب عن الصدر الأعظم إذا ما خرج للحرب، وإذا ما غاب السلطان عن استانبول لسبب ما سمى هذا آستانة قائمقامى أو استانبول قائمقامى.

(٦٣) أحمد الأول: هو السلطان الرابع عشر، ابن السلطان محمد الثالث، ولد عام ٩٩٨هـ وجلس عام ١٠١٢هـ/ ١٦٠٣ م بالغًا من العمر أربع عشرة سنة، ثارت فى عهده الولايات الشرقية التابعة للدولة العثمانية، غير أن الصدر الأعظم مراد باشا تمكن من قمعها وإخمادها، وفى عام ١٠١٤ هـ التجأت دولة المجر إلى كنف الدولة العلية لتنجدها على دولة النمسا، فعين السلطان رجلاً مجريًا أعطاه لقب ملك المجر، وأرسل إليه تاجًا وسيفًا، ثم اصحبه بالعساكر العثمانية إلى ميدان المعركة، فحارب دولة النمسا، واسترجع منها ما كانت استولت عليه من بلاده، وفى عهده ثار وجاق الإنكشارية فى إسلامبول، ولكنه قضى على ثائريهم، وفى عام ١٠١٦هـ ثارت بعض الجهات فى

بلاد الأناضول فتوجه لإذلالها، وهجم على أهالى مدينة أنقرة ثم قونيه لمحاربة قلندر أوغلى (أى ابن قلندر) وجانبولاد حاكم الأكراد وقرى سعيد وكينالى وموصللى جاويش، وتمكن من الفتك ببعضهم وطرد الآخرين من بلاد قونيه وأنقره.وفى عهد السلطان أحمد كثر استعمال التبغ فى الممالك العثمانية، فأمر بمنعه، كما حدث فى عام ١٠٢٠ هـ أن تمردت الأعاجم، فحاربهم مراد باشا، وهزم الشاه عباس الذى طلب الصلح، أصيب السلطان أحمد عام ١٠٢٦هـ / ١٦١٧م بحمى خبيثة، وأوصى قبل أن يموت بتفويض الملك لأخيه مصطفى، دفن بالقرب من جامعه فى تربته المخصوصة، ومن أشهر آثاره بناء الجامع الكبير المعروف بالأحمدية ذات الست منارات وجملة من المدارس.

(٦٤) السلطان مصطفى الأول: تملك عام ١٦٢٢م، بعد أن عزل الإنكشارية سلفه (عثمان الثانى) وأجلسوه على العرش، وأفضى ذلك إلى تسلط الإنكشارية وركوبهم رأسهم واستكبارهم وخلعهم السلاطين والوزراء ما شاءت أهوائهم ونزواتهم، وكان هذا السلطان خائر العزم، ضعيف الهمة لا أهلية له، فلجأ الإنكشارية إلى من يسمى (كمانكش على باشا) وأسندوا إليه منصب الصدر الأعظم متوسمين فيه القدرة وإعادة الأمور إلى نصابها. وقاموا بعزل السلطان مصطفى الأول عام ١٦١٢م بعد أن دام حكمه عاماً وشهرين فحسب. وكانت وفاته عام ١٦١٩ م، وتعد فترة حكمه فترة ساءت فيها الأحوال وفسدت الأوضاع إلى حد لا عهد للتاريخ العثمانى به، فعمت الفوضى أرجاء البلاد.

وقد أصابته لوثة، فكان ينتقل من جهة إلى أخرى من حجرات القصر وهو يصيح قائلاً (يا عثمان إرفع عنى أمر السلطنة)، ثم اتفق رأى المفتى والصدر الأعظم وشيخ الإسلام على عزله فعزله لما به من مس الجنون لم تشهد السلالة العثمانية نزاعات طويلة مميتة، على غرار ما جرى فى اوروبا، باستثناء ما حدث بين أبناء السلطان بايزيد الأول من اقتتال على السلطة بعد وفاته فى عام ١٤٠٣م، وكذلك فى ثورة الأمير جم على أخيه السلطان بايزيد الثانى فى عام ١٤٨١م، وقد جرى العرف على أن يخلف الابن الأكبر أباه، واعتاد السلطان العثمانى على تعيين أبنائه حكامًا على الولايات، مما أكسبهم خبرة إدارية أفادتهم فى الحكم، ولكن خطر الأخوة على أخيهم الذى أصبح سلطانًا، دعت السلطان محمد الثانى (١٤٥١-١٤٨١) إلى إصدار قانون يبيح للسلطان قتل اخوته، وجاءت ثورة جم على بايزيد وثورة اخوة السلطان سليم الأول عليه إثر اعتلائه

الحكم فى عام ١٥١٣ م، لتؤكـد ضرورة ذلك، وحين توفى السلطان أحمد الأول فى عام ١٦١٧ خلفه أخاه مصطفى الأول، لأن أبناءه كانوا صغاراً، وصدر فرمان آنذاك بأن تعطى السلطنة لأكبر الأعضاء الذكور سنًا فى أسرة عثمان، وقلل هذا كثيراً من نصيب الأبن فى تولى السلطنة بعد أبيه.

(٦٥) كنج عثمان: هو السلطان الخامس عشر ابن السلطان أحمد الأول، ولد عام ١٠١٣هـ، حاول إصلاح الأحوال الداخلية للسلطنة، وانطلق بنفسه عام ١٠٣٠ هـ لكبح جماح ثورات دول البلقان، وفى النهاية عقد معهم شروط الصلح، ثم عاد إلى الآستانة، وما لبث أن ثارت عليه أوجاق الإنكشارية بعد أن شاع خبر أن السلطان مزمع أن يذهب إلى الحج الشريف ويجمع عسكراً من الشام ومصر من رجال العرب تكون مطيعة لأوامره، ويهلك بهم نسل الإنكشارية، ومن ثم اتحدوا وطالبوا السلطان رأس الصدر الأعظم وآغا البنات وبعض الندماء، فزجرهم السلطان ورفض قطعيًا إجابة طلبهم، فهجم بعضهم على السراى التى كان السلطان مصطفى محبوسًا بها، وأخرجوه من سجنه، ونصبوه على كرسى السلطنة، وذلك بعد أن خلعوا السلطان عثمان وطافوا به فى شوارع المدينة طواف الازدراء والإهانة، ثم وضعوه فى قلعة يدى قله، وقتلوه بأمر داوود باشا الصدر الأعظم، وكان ذلك عام ١٠٣١هـ.

(٦٦) آت ميدانى: آت ميدانى: وتُكتب أيضاً أط ميدانى، أى ميدان الخيل، وهو ساحة عظيمة فى القسطنطينية، وكانت معدة لسباق الخيل، طولها ٩٠٠ وعرضها ٤٥٠قدمًا، وفيها مسلة من حجر الصوان بقطعة واحدة، جىء بها قديمًا من مصر الفرعونية، وفى الجهة الشرقية من هذا الميدان يوجد الباب العالى حيث يجلس الصدر الأعظم ورجال الدولة الفخام، وبالقرب منه السرايا المعروفة بطوب قابى سراى، وهى السراى التى جددها السلطان محمد الفاتح المنفصلة عن المدينة بسور متين، ولها ثمانية أبواب، بعضها من جهة المدينة، وبعضها ممن جهة البحر، وهى تعد من السرايات الشهيرة العظيمة، تحيطها جنينة فسيحة، وعلى أطرافها الباب الهمايونى، وهو مدخل للسراى الخارجة، المباح للجميع أن يدخلوا إليها، وهو عظيم الارتفاع على شكل دائرة تغشاها الكتابات العربية، وقائم عليه خمسون بوابًا خفراء، وعلى أحد طرفى الباب كان هرم يدعى هرم الجماجم، كانت تعلق عليه رؤوس المجرمين مكتوبًا عليها ما يدل على ماهية الذنب الذى بسببه حكم على صاحبها بالقتل، ويسمى (آت ميدانى) حاليًا (سلطان أحمد ميدانى) أى ميدان السلطان أحمد.

(٦٧) يدى قوله: يدى قوله بمعنى البروج السبعة، اسم قلعة تشكل جزءًا من سور استانبول، وهى تقع فى نهاية الطرف الجنوبى من سور القسطنطينية وكان لها خمسة بروج على عهد البيزنطيين، وقد أضاف إليها السلطان محمد الفاتح برجين، وفيها كان يعتقل المذنبين السياسيين. كما كان يحبس فيها سفراء الدول ورجال الدولة عند وقوع الحرب، وفى وسطها ميدان، وفيها حجرات للسجناء. وقد حبس فيها كثير من رجال الدولة العثمانية وصدورها العظام، وقتلوا ولم يعتقل فيها من السلاطين إلا (كنج عثمان) بعد أن عزل، وكان فيها قتله. وسمى بابا سور استانبول الذى يجاورها (يدى قوله قابوسى) أى باب يدى قوله.

(٦٨) الروم إيلى أول وأكبر إقليم للعثمانيين فى أوروبا، ومركزه مدينة صوفيا وحاكمها روم ايلى بكلربكى أى أمير أمراء الروم إيلى، ورتبته أعلى رتبة فى وظيفته، وإذا ما رقى أصبح وزيراً ويرقى إلى هذه الرتبة بكلربك الأناضول. وكان يشترك فى المشاورات والمداولات فى الديوان الهمايونى أثناء مقامه فى استانبول. وكذلك شأن بكلربك الأناضول، واعتباراً من أواسط القرن السابع عشر للميلاد كان من يتبوأ هذين المنصبين فى درجة وزير.

(٦٩) خانقاه: كلمة معربة من الكلمة الفارسية (خانكاه)، وهى بمعنى التكية.

(٧٠) مراد الرابع: هو السلطان السابع عشر، ابن السلطان أحمد الأول، ولد عام ١٠١٨هـ وجلس على عرش الملك عام ١٠٣٢هـ/١٦٢٣م وهو فى سن الرابعة عشر من عمره، رفعه إلى العرش الإنكشارية لحداثة سنه حتى يصفو لهم الجو ويفرضون ما تملى عليه أهواؤهم، وداموا على هذا الحال طيلة الأعوام العشرة الأولى من حكم هذا السلطان. وكانت فرصة مواتية لشاه إيران الذى وسع رقعة ملكه فانتزع من أملاك الدولة العثمانية المتاخمة لأملاكه، فخرج (حافظ باشا) الصدر الأعظم إلى بغداد ليستردها من الإيرانيين وحاصر بغداد ولكن الإنكشارية تمردوا واستردوا، حتى اضطر حافظ باشا إلى رفع الحصار والعودة إلى الموصل ومنها إلى ديار بكر، وفيها تمادى الإنكشارية فى عصيانهم وتمردهم، فعزل الصدر الأعظم وخرج جيش العثمانيين ثانية تحت إمرة (خليل باشا) الصدر الأعظم، واستولى على بغداد، وثارت فتنة الإنكشارية، هدموا قصر السلطان وقتلوا حافظ باشا. وشفى السلطان مراد الرابع غيظة إنكشارية بقتل كل من ثبت أن له ضلعًا فى إثارة الفتنة، وحاول من يدعى (رجب باشا) إثارة الإنكشارية،

لكن سرعان ما أمر السلطان بقتله وإلقاء جثته من نافذة القصر ليكون عبرة لمن يعتبر، فأمن الناس على أنفسهم وأموالهم بعد أن كابدوا من ثورات الإنكشارية ما كابدوا من شدائد ومحن. وأرسل السلطان إلى والي دمشق بمحاربة (فخر الدين) أمير الدروز بعد خروجه على الدولة، ثم مضى مراد الرابع بنفسه على رأس جيشه إلى إيران ليسترد ما سبق للسلطان سليمان القانوني أن استولى عليه من البلاد، وفتح مدينة تبريز وعافى عام ١٦٤٠ م، ومع أنه قضى طفولته في القصر إلا أنه كان ذا نزعة حربية عارمة، ومع ذلك كان أديبًا نواقة وشاعرًا مجيدًا، إلا أنه مع هذا كان ظلومًا يقتل في غير جريرة، حتى قيل: إن ذبح إنسان عنده يشبه ذبح دجاجة. وجاء في تواريخ العثمانيين أنه قتل إبان حكمه مائة ألف إنسان.

(٧١) السلطان إبراهيم: هو السلطان الثامن عشر، ابن السلطان أحمد الأول، ولد عام ١٠٢٤هـ، وجلس على عرش السلطنة عام ١٠٤٩هـ/١٦٤٠م، وكان قبل ذلك مسجوناً مدة سلطنة أخيه كما جرت العادة، لم يكن يميل إلى شن الحرب على النمسا، كما أنه رغب إلى أمير ترانسلفانيا ألا يحاربها، إلا أنه مع ذلك كان محاربًا، فأنفذ جيشه إلى القرم لمحاربة القازاق الذين احتلوا مدينة إزاق، فاسترد الجيش العثماني المدينة منهم عام ١٦٤٢م، وفي شهر ربيع الأول من عام ١٠٥٥هـ أرسل عمارة بحرية مؤلفة من أربع مئة مركبًا لمحاربة جزيرة كريت، وتم الإستيلاء على مدينة قنديه وهي من أعظم مدن تلك الجزيرة، ثم تحولوا إلى باقي المدن حتى استولوا عليها جميعًا، وبما أن أعماله كانت غير مرضية، تم خلعه وجلس مكانه ولده السلطان محمد وهو ابن سبع سنوات، فهاجت عساكر السباهية من إقامة صبي ملكًا عليهم، وطلبوا إرجاع السلطان إبراهيم، فخاف أكابر الدولة الذين سعوا إلى خلعه من رجوعه لئلا ينتقم منهم، وعولوا على قتله، فذهبوا إلى السرايا المسجون بها ومعهم قره على السياف، ولما دخلوا عليه أمروا السياف بقتله، فلم يتجاسر أن يرفع يده عليه، ثم انطرح على أقدام الوزير يتوسل إليه أن يقتله ولا يجبره على قتل السلطان، فضربه الوزير بالعصا على رأسه ففجه، أما السلطان فلما رآهم داخلين عليه نهض خائفًا مذعورًا وقال لهم: ماذا تريدون مني، ألست أنا سلطانكم ؟ فأجابوه: كلا، لأنك ما اتبعت آثار أجدادك، وخالفت نواميس الشريعة، وخربت المملكة، وأضعت زمانك منقاداً وراء الملذات، وقد كانوا استفتوا المفتي عن قتله تحت حجة أنه كان يبيع الوظائف بالمال، فأفتاهم بقتله، وإذ ذاك جاءه آغا الإنكشارية ووزير الصدارة محمد باشا وأعلموه بأنه قد حكم عليه بالموت، ثم وثبوا عليه وأعدموه الحياة سنة ١٠٥٩ هـ، ودفن في تربة السلطان مصطفى.

(٧٢) الجلاد: الجَلاد: بفتح وتشديد، كان الجلاد فى رفقة الحكام على الدوام لينفذ الحكم بالقتل، وكان بوابو القصر ومن يضربون الخيام بعد إعفائهم من عملهم يقومون بعمل الجلاد، كما كان للصدر الأعظم جلادون وكذلك للوزراء وحكام الأقاليم.

(٧٣) الباب الهمايونى: أى الباب الملكى، أو باب صاحب السعادة.

(٧٤) گوزده: وتعنى (فى العين) وهى كلمة تطلق على كل شخص يحظى بإعجاب السلطان.

(٧٥) ولدش: بثلاث فتحات. فى الفارسية بمعنى ابنه، وهو اسم يطلق لمن يولد لفرسان الـ(قابى قولو) سواء كان ذكراً أو أنثى، وإذا ما كبر هذا الابن، وصلب عوده، انخرط فى سلك الجندية بعد موت أبيه. كما كانت له صفة الشهيد، وإذا ما بلغ مبلغ الرجال، وولد له، خصص لولده مبلغ يتقاضاه.

وكان هذا كله امتيازاً خاصاً للإنكشارية، ومن يعملون قصر السلطان.

(٧٦) الأوجاق: لفظة تركية معناها فى الأصل: الموقد والمدخنة، ثم أطلق على كل ما تُنفخ فيه نار، ثم أطلق على الطائفة من طوائف أرباب الحرف، وعلى الصنف من أصناف الجند، فيكون المقصود: طائفة أو جماعة الإنكشارية.

(٧٧) أرناؤوط: الأرنؤوط = الأرنؤود: هم الألبانيون، وبلدهم ألبانيا [Albania] ويطلق عليها أيضاً: سقبيبينجه، وشقيبريه، ويدعون أنفسهم بـ (شبتار)، وأصل كلمة ألبانيا هو اسم إحدى قبائلهم: البانوى. يحدها من الشمال يوغسلافيا ومن الشرق كذلك، ومن الجنوب اليونان والغرب البحر الأدرياتيكى، من أهم مدن ألبانيا: تيرانا وأشقودره.

(٧٨) فرجية: وتسمى (فراجه: وهى ربطة أو قباء كان يرتديه رجال القصر وعليها فراء السمور.

(٧٩) قاپى جى باشى: معنى قابى جى البواب، وهو اسم يطلق عموماً على بوابالقصر، وهما طائفتان الأولى تسمى بوابان باب همايون) ومعناها فى الفارسية بوابو الباب السلطانى، وهم الواقفون على الباب السلطانى. والطائفة الأخرى يسمى أفرادها (بوابان دركاه عالى) ومعناها بوابو العتبة العالية، وماعدا هؤلاء البوابين بوابون أخرون خارج القصر، وكانت مهمتهم إلى جانب حراسة الأبواب عدم السماح لأحد بالدخول وهو يحمل سلاحًا إلى (اسكى سراى) أى إلى القصر القديم، وإذا ما استحق أحد فى الديوان عقوبة الضرب كان الصدر الأعظم يصدر أمره إلى هؤلاء البوابين بضربه. وإذا ما رقى البستانيون والخبازون والطباخون وصانعو الحلوى، أصبحوا بوابين، ولهم رئيس يسمى (قابى جى باشى) أى رئيس البوابين.

(٨٠) كلمة (همايون) بضم وفتح، كلمة فارسية من كلمة (هما) وهو اسم طائر كان معتقد القدماء أنه إذا طار ووقع ظله على رأس رجل، أصبح هذا الرجل ملكًا، وكلمة همايون تعنى ملكى أو سلطانى. كما تأتى بمعنى المبارك والسعيد، وتطلق على ما ينسب إلى السلاطين للتعظيم والتفخيم. وقد كان هذا الطائر رمزًا لدى الأتراك الوغوز وانتقل منهم إلى العثمانيين من كلمات التعظيم والتى تستعمل تجاه كبار الحكام.

(٨١) جنود الباشيبوزوق والصاريجه: اسم طائفة من الجند فى العهد العثمانى.

المؤلف فى سطور :

أحمد رفيق

- ولد فى "بشيكطاش" باستانبول عام ١٨٨٠م، وتعلم فى مدرسة "كوللى الحربية" وفى "المدرسة الحربية" (حربية مكتبى)، وأصبح ضابطاً، ولكنه صرف جُل وقته فى تدريس الجغرافية والفرنسية، وفى عام ١٩٠٩ ألحق بأركان الحرب محرراً للمجموعة العسكرية (عسكرى مجموعه)، ونشر فيها هو نفسه مقالات فى الموضوعات الحربية، وغدا من بعد عضواً فى الجمعية التاريخية (تاريخ انجمنى) ثم اعتزل وانصرف بكليته إلى دراساته. وشغل من عام ١٩١٧م إلى ١٩٣٣ م منصب أستاذ التاريخ فى جامعة استانبول، وتُوفى فى العاشر من أكتوبر ١٩٣٧م.

- ألف "أحمد رفيق" عدداً كبيراً جداً من المصنفات التاريخية تتراوح بين الصفة العلمية والصفة الشعبية، ونشر كثيراً من الوثائق المتعلقة بالتاريخ العثمانى استقاها من المحفوظات، ومن أشهر مصنفاته الكتب التى كتبها عن استانبول القديمة "هجرى ١٠ نجى، و١١ نجى، ١٢ نجى، ١٣ نجى - عصرده استانبول حياتى" (حياة استانبول فى القرون الـ١٠، و١١، و١٢، و١٣ الهجرى) وسلسلة الرسائل: "كچمش عصرلرده تورك حيات" (حياة الترك فى القرون الماضية).

من مؤلفاته:

١ – (عشائر الترك في الأناضول) Anadoluda Turk Asiretleri 600-1200 Ist, 1930.

٢ – إداره حربه دائر قواعد أساسية (= القواعد الأساسية الخاصة بإدارة الحروب): تأليف الجنرال قلاوز ويج، استانبول ١٣١٦م.

٣ – ايكي قوميته، ايكي قتال (= معركتان من أجل قوميتين)، استانبول ١٩١٩م.

٤ – بالطه جي محمد باشا (١٧١١–١٩١١) (= البلطه جي محمد باشا) استانبول ١٣٢٧هـ.

٥ – بيزانس إيمپراطوريجه لرى (= إمبراطوريات بيزنطة)، استانبول ١٣٣١هـ،

٦ – بيوك فره دريقد جنراللرينه تعليمات عسكرية سى (= التعليمات العسكرية للجنرال فردريك الكبير)، استانبول ١٣١٦هـ.

٧ – تاريخ صحيفة لرى (= صحائف التاريخ)، استانبول، ١٣٢٥هـ.

٨ – تاريخ عثماني (مختصر رسملى) (= التاريخ العثماني مختصر مصور) استانبول ١٣٣٢هـ.

٩ - تاريخ سيمالر (پارسده عثمانلى سفيرلرى) (= شخصيات تاريخية (السفراء العثمانيين فى باريس) استانبول ١٣٣١هـ.

١٠ - تصاوير رجال، (گچمش عصرلرده عثمانلى حياتى) (= أوصاف الرجال المصورة، (حياة العثمانيين فى القرون الماضية) استانبول ١٣٣١ هـ.

١١ - توركيه تاريخى (= تاريخ تركيا)، استانبول ١٩٢٣م.

١٢ - سلطان جم (= السلطان جم)، استانبول ١٩٢٣م.

١٣ - صحائف مظفريات عثمانية (صفحات من الإنتصارات العثمانية)، استانبول ١٣٢٥هـ.

١٤ - صوقوللو (٩١١-٩٨٧) گچمش عصرلرده تورك حياتى (صوقللو (٩١١- ٩٨٧ هـ) حياة الترك فى القرون الماضية)، استانبول ١٩٢٤م.

١٥ - عمومى تاريخ قرون قديمة، غرب قرون وسطاسى (= التاريخ العام للقرون الماضية، والقرون الوسطى عند الغرب)، استانبول ١٩٢٨م.

١٦ - قاپاقچى مصطفى، استانبول ١٣٣١هـ.

١٧ - قافقاس يوللرنده خاطره لرتحسسلر (= لمسات من الذكريات على طريق القفقاس)، استانبول ١٩١٩م.

١٨ - غـزوات جليله‌ء پيـغـمـبـرى (= غـزوات الرسـول الجليلة)، استانبول ١٣٢٤هـ.

١٩ - قادينلر سلطنتى (= حكم النساء)، استانبول ١٩٢٤م.

٢٠ - كوپريليلر (= عائلة كوبريلى)، استانبول ١٣٣١هـ.

٢١ - لاله دورى (١١٣٠ - ١١٤٣) (= عصر اللاله (١١٣٠ - ١١٤٣) استانبول ١٣٣١هـ.

المترجمة فى سطور :

سامية محمد جلال

- خريجة جامعة القاهرة، كلية الآداب، قسم اللغات الشرقية، فرع اللغات الإسلامية.

- مدرس اللغة التركية وآدابها فى كلية الآداب، قسم اللغات الشرقية، جامعة القاهرة.

- حاصلة على درجة الماجستير فى الأدب التركى، فى موضوع "جناب شهاب الدين شاعراً بين التقليد والتجديد".

- حاصلة على درجة الدكتوراه فى أدب الرحلة التركى مع مرتبة الشرف الأولى، فى موضوع "مصر فى كتابات الرحالة الأتراك فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر".

المراجع فى سطور :

الصفصافى أحمد المرسى القطورى

- تدرج فى سلك التعليم العالى منذ ١٩٦٣م حتى صار أستاذاً متفرغًا فى الدراسات التركية والعثمانية والآذارية والتركمانية فى الجامعات المصرية.

- له العديد من المؤلفات حول الحضارة والثقافة التركية والعثمانية تجاوزت العشرين كتابًا. إلى جانب ما يتجاوز الخمسة عشر كتابًا مترجمًا.

- انتدب وأعير وسافر أستاذاً زائرًا فى العديد من الجامعات العربية والتركية والأوروبية.

- ترجم عن العثمانية والتركية والتركمانية والآذارية أعمالاً تاريخية وإبداعية وفنية نُشرت ضمن ترجمات المجلس الأعلى للثقافة والعديد من دور النشر والمجلات فى المغرب وتونس والمملكة العربية السعودية ومصر ومجلة الأدب الإسلامى العالمية، ونال منها الجائزة الأولى عن الترجمة الإبداعية.

التصحيح اللغوى : أحمد الشقيرى
الإشراف الفنى : حسن كامل